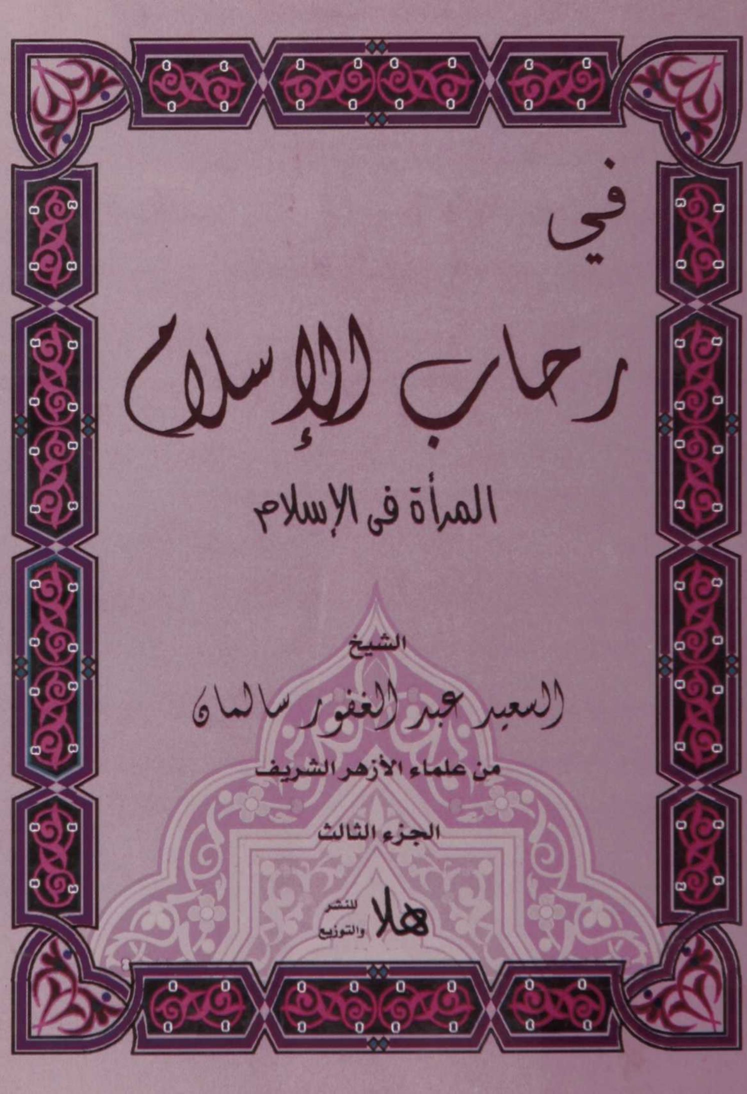


في
رحاب الإسلام
المرأة في الإسلام
الشيخ
السعيد عبد الغفور سالمان
من علماء الأزهر الشريف
الجزء الثالث
هلا للنشر والتوزيع

فى رحاب الإسلام

المرأة فى الإسلام

الشيخ
السعيد عبد الغفور سالمان
من علماء الأزهر الشريف

الجزء الثالث



الكتاب : فى رحاب الإسلام المرأة فى الإسلام جـ٣
المؤلف : السعيد عبد الغفور سالمان
الناشر : هلا للنشر والتوزيع
٦ ش الدكتور حجازى - الصحفيين - الجيزة
تليفون : ٣٠٤١٤٢١ / **تلفاكس :** ٣٤٤٩١٣٩
البريد الإلكترونى :
e-mail: hala@hala publishing. com
موقعنا على شبكة الإنترنت :
www. halpublishing. com
رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٢٠٠٢٩
الترقيم الدولى : 977-356-059-7
طبع وفصل ألوان : مطبعة المدينة
العنوان : ١١ ش طه العسقلانى - دار السلام
الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ ٢٠٠٤م



إلى بناة الأَجيال وصانعيها

إلى أساتذة العقول ومعلميها

إلى غارسى الأفكار وملقحيها

إلى أطباء النفوس ومعالجيها

إلى مؤدبى الطباع ومهذبيها

إلى رواد الحقيقة وطالبيها

إلى عشاق المعرفة ومقدريها

إلى أنصار الفضيلة ومقدسيها

إلى من يعشق اللفظ الجميل

إلى هؤلاء جميعا

أقدم الجزء الثالث من سلسلة «فى رحاب الإسلام»

راجيا أن يكون نوراً هاديا . وصوتا داعيا . وبلسما شافيا

وأن يأخذ بأيدى هؤلاء وأولئك إلى صراط مستقيم .

فمن نور القرآن الكريم كانت ومضاته .

ومن وحى السنة المطهرة كانت لمحاته إشراقة وسناء .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿رب يسر وأَعن يا كريم﴾

عن أَبى إدريس الخولانى أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول : «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى» (البخارى - كتاب المناقب)

وَمَـــا مِنْ كَـــاتِبٍ إلاَّ سَيُفْنَى
وَيَبْقَى الدَّهرَ مَـــا كَتَبَتْ يَدَاهُ
فَــلا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَىءٍ
يَسُرُّكَ فى القِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

الشيخ

السعيد عبد الغفور سالمان

من علماء الأزهر الشريف



كانت المرأة قديما وحديثا ، وعلى مر العصور وفى مختلف الأزمان، ولا زالت ، أما تربى الطفولة وتصنع الرجولة .

وزوجة تجمل الحياة ببسمتها الحبيبة . ولمستها الرقيقة . وتخفف من وعورة الطريق ، وأعباء العمل بكلمة معبرة حانية.

وأختا تشارك الأسرة حلو الحياة ومرها .

وابنة تملأ البيت هناءً وبهاءً ، وتقر بها عين الأبوين .

ولقد وقر فى الأذهان أن العرب فى الجاهلية كانوا يهينون الأُنثى ويغمصون مكانتها ، ولا يشركونها فى حياتهم العامة .

ولقد ثبت ذلك بما قرره القرآن الكريم من كراهية العرب لولادة الأُنثى الأمر الذى جعلهم يقتلونها طفلة ويوارونها تحت التراب .

قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩] .

وقال أيضا فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير : ٨ ، ٩] نعم كان هناك قلة يفعلون ذلك ، ويفتخرون به ، ولكنه لا يؤخذ على أنه القاعدة العامة التى كانت سائرة

بينهم . والحكم الذى لا يستثنى منه قبيلة أو مجموعة ، لأن التاريخ يحدثنا أن العربى كان شديد الاحترام للمرأة كثير الحدب عليها يغار عليها ويحرص على صيانتها ، وكان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغى وألسنتهم رطبة بذكر زوجاتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم . وكانوا يطلبون منهن أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم غمرات الحرب فى سبيل مجدهم ومفاخرهم . ومن أمثلة ذلك قول الشاعر عنترة العبسى :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وكانت قبائل برمتها ، ورجال من أكابر القوم ينتسبون إلى الأُمهات وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم حنين : «أنا ابن العواتك من سليم» وهو يشير بذلك إلى نسوة من أُصوله كل منهن تسمى عاتكة ، وقد كان لبعض النسوة فى الجاهلية أثرهن الكبير فى كبريات الأحداث. وهذه معركة ذى قار ، وهى من أخضم أحداث الجاهلية تشب بسبب امرأة أرادها كسرى وأباها النعمان عليه .

وحرب الفجار نشبت من أجل امرأة أراد بعض الشباب كشف نقابها، وامتازت بعض البيوت العربية بإكرام البنت حتى أنها لا تسمح بزواجها إلا برضاها ، كما حدث للخنساء إذ رفضت سيد بنى دريد وسيد بنى هوازن وحكيمها لتتزوج من رجل كانت تريده .

والعرف العربى كان لا يجوِّز تعريض النساء للمخاوف والتهديد ويفرض حمايتهن وفداءهن بالروح ، ويحتقر كل من يتهاون بصيانتهن

أو تردد فى الموت دونهن . وكانت النساء لا يقابلن بالمثل إذا بدأن بضرب الرجال أو إهانتهم كما حدث مع حاتم الطائى عندما مَرَّ ببلاد عنزة فى بعض الأشهر الحرم . فناداه أسير لهم : يا أبا سفانة : أكلنى الإسار. فقال : ويحك أسأت إذ نوهت باسمى فى غير بلاد قومى . فساوم القوم به ثم قال : أطلقوه واجعلوا يدى فى القيد مكانه ، ففعلوا فجاءته امرأة ببعير ليفصده فقام فنحره فلطمت وجهه . فقال : «لو غير ذات سوار لطمتنى» يعنى أنه لا يقتص من النساء . واحترام العرب لنسائهم جاء ثمرة نضج الذكورة وعرفان الأنثى لوظيفتها الصحيحة . ووظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف فى الوجود ، وما يحسنها إلا من استكمل لها أذكى الأخلاق وأنقى الأفكار . إن تصور المرأة فى البيت إنساناً قاعداً لا شغل له جهل شنيع بمعنى الأُسرة. وتصور ربة البيت إنسانا يجيد الطهى والخدمة فقط ضرب من السلوك الحيوانى الذى عرفته الأمم إبان انهيار حضارتها وسقوط مستواها العام ، والقصة الآتية التى حفظتها لنا كتب التاريخ - تدل دلالة قاطعة على أنه كان للمرأة كلمتها ومشورتها على زوجها . وأخذ رأيها عند زوجها .

«قال الحارث بن عوف المرى لخارجة بن سنان - فى إبان الحرب بين عبس وذبيان - : أترانى أخطب إلى أحد فيردنى ؟.

قال : نعم . أوس بن حارثة الطائى .

فقال الحارث لغلامه : «هيئ لى مركبًا» ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة وأتوا أوسا فوجدوه فى داره فلما رأى الحارث رحب به . وسأله

عن مجيئه فقال : «جئتك خاطبا» .

فقال أوس : لست هناك . أى رفض أن يزوجه .

فانصرف ولم يكلمه .

ثم دخل أوس على امرأته مغضبا وكانت من قبيلة عبس فقالت : من رجل وقف عليك فلم تطل الكلام معه ؟

فقال : ذاك سيد من سادات العرب : الحارث بن عوف .

قالت : فما لك لم تستنزله ؟

قال : إنه استحمق جاءنى خاطبا .

قالت : أتريد أن تزوج بناتك ؟ قال نعم .

قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟

قال : لقد كان ذلك .

قالت : فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له : إنك لقيتنى مغضبا بأمر لم يتقدم فيه قول . فلم يكن عندى من الجواب إلا ما سمعت فانصرف معى ولك عندى كل ما حييت . فإنه سيفعل . فعمل أوس برأى زوجته . ورد حارثه ومن معه . فلما وصلوا إلى بيت أوس وجلسوا فى مكان الضيافة دخل أوس إلى زوجه وقال لها : ادعى لى فلانة «أكبر بناته سناً» فأتته قال : يا بنية هذا الحارث بن عوف - سيد من سادات العرب، قد جاءنى طالبا خاطبا ، وقد أردت أن أزوجك منه .

فقالت : لا تفعل . لأنى فتاة فى وجهى ردة . وفى خلقى الحدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى . وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى . فيكون علىَّ فى ذلك ما فيه .

قال : قومى بارك الله فيك .

ثم دعا الوسطى : فأجابته بمثل جواب أُختها وقالت : إنى خرقاء وليست بيدى صناعة . ولا آمن أن يرى ما يكره فيطلقنى . فيكون علىَّ فى ذلك ما تعلم .

ثم دعا الثالثة : وهى أصغرهن ، فلما عرض عليها قالت : أنت وذاك . فأخبرها بإباء أخواتها ، فقالت : لكننى والله الجميلة وجها ، الصناع يدًا الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا . فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ، فزوجها الحارث .

ولما وصل ديار قومها قالت : أتلزم المنزل والعرب يقتل بعضها بعضا؟ أخرج إلى هؤلاء القوم وأصلح بينهم . ثم ارجع إلى أهلك .

فخرج الحارث مع خارجه بن سنان فأصلحا بين القوم . وحمل الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنوات .

والمرء يعجب لعظمة هذا البيت العربى زوجة ترشد رجلها إلى الصراط بعد ما كاد يزيغ عنه .

وبنات يعرفن برقة أوصافهن البدنية . وطبائع بيئتهن فيقدمن –

دون أثرة ، صغراهن لتكون زوجة لخاطب مقبل .

وعروس تأبى أن تسعد بزوجها حتى تضع الحرب أوزارها . وتقر السلام حولها ، أين من هذه الخلال الذكية فتيات عصرنا المبهورات بفتنة الغرب ؟ المتمردات على جو البيت ؟ المخدوعات بأضواء الليل . الجانيات الشوك آخر المطاف من ترك وظيفتهن الأصيلة ؟ وجاء الإسلام . جاءت الرسالة خاتمة الرسالات السماوية إلى البشرية بعد أن وصلت إلى رشدها العقلى ، فقررت أن المرأة جزء من الرجل . وقطعة من كيانه ، وحرر إنسانيتها روحا وجسدا حين أتاح لها أن تتزود من العلم ما تشاء ، وحصن حقوقها المالية حتى لا تذهب بها أثره الأقرباء أو الغرباء .

وفى جو الأُسرة المتآلفة يسكن الإنسان نفسيا ويسكن روحيا ويسكن جسديا . هذا هو السكن الذى يقصده الإسلام ، السكن الذى ترفرف عليه أجنحة المودة وتجمل لحظاته شفافية الحب والعطف .

وفى ساحة السكن الجميل تنبت بذور الرحمة ، وتتطاول فروعها وتلتف أغصانها فتخفف عن الزوجة ما تعانيه من تربيةالطفولة ومن إعداد للرجولة ، ومن تهيئة كاملة لمطالب الأُسرة .

وتمتد حتى تتحول إلى يد حانية تمسح من على وجه الرجل المكافح حبات العرق المتطايرة من جراء ضربه فى جنبات الأرض . بغية تأمين حياة الأُسرة وتوفير أسباب الحياة لها .

إنها المؤدة والرحمة التى فاض بهما قلب زوجة الحطاب فى عصر

النبوة وكل زوجة صابرة مؤمنة ليكون جزاؤها الجنة كما أخبر رسول الله ﷺ أصحابهُ بأن زوجة الحطاب من أهل الجنة . وما كاد الرسول عليه السلام ينطق بهذه الكلمة حتى سرت فى المجتمع الإسلامى سريان البرق على صفحة الكون . وتساءل الجميع ماذا فعلت زوجة الحطاب حتى كان جزاؤها الجنة ؟ وجاء جواب الزوجة المؤمنة وكأنه دستور للحياة الزوجية تخطّه لبنات جنسها ليسرن عليه مع أزواجهن فيسعدن فى دنياهن وينعمن برضوان الله فى آخرتهن .

قالت : إن زوجى رجل يقوم بقطع الأخشاب وجمع الحطب من الجبل ثم ينزل إلى السوق فيبيعه ويشترى ما يحتاج إليه بيتنا . وأحس بالعناء الذى لقيه فى سبيل رزقنا . وأحس بحرارة عطشه فى الجبل تكاد تحرق حلقى ، فأعد له الماء البارد حتى إذا ما قدم وجده . وقد نسقت متاعى واعددت له طعامه وقفت أنتظره فى أحسن ثيابى فإذا ما ولج الباب استقبلته كما تستقبل العروس عروسها الذى عشقته مسلمة نفسى إليه . فإذا أراد الراحة أعنته عليها . وإن أرادنى كنت بين ذراعيه كالطفلة الصغيرة يتلهّى بها أبوها (المرأة فى التصور الإسلامى - للأستاذ عبد المتعال محمد الجبرى) .

نعم إن زوجة الحطاب فى الجنة ، وصدق رسول الله ﷺ : ويؤيد هذه الواقعة ما يروى أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ذهبت إلى مجلس الرسول ﷺ وقالت : «يارسول الله إنى رسول مَن ورائى من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى» .

«إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا بالجمعات ، وشهود الجنائز والجهاد وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم أفنشاركهم فى الأجر؟..

فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ ...

فقالوا : بلى والله يارسول الله ...

فقال رسول الله ﷺ : انصرفى يا أسماء وأَعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعُّل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال» .

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ.

(الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ ٤ ص ٣٢ . وأورده السيوطى فى الدر المنثور حـ ٢ صـ ١٥٣ . ونسبه للبيهقى فى «شعب الإيمان») .

هذه هى وظيفة المرأة فى صدر الإسلام .

راعية لشئون زوجها .

ومربية وحاضنة لأطفالها .

وملكة متوجة فى مملكتها وبيتها .

إن الإسلام لن يرضى للمرأة غير الانسجام الكامل مع قوانين الفطرة ، هذه القوانين التى لا تُكره المرأة على ما لا يتفق مع كرامتها كإنسان ومع تركيبها كأنثى . وهو بذلك يفتح لها فى هذا العصر أبواب التخصص الملائم ، لتكون الطبيبة النسوية والخبيرة الاجتماعية والمربية المدرسية ، وما إلى ذلك من هذه الأعمال التى لا يكون نجاحها على حساب البيت والأُمومة . إن مبادئ الإسلام استطاعت أن تربى الزوجة الفاضلة ، والأُم الحانية ، والفتاة المؤمنة التى سجل تاريخها وسلوكها بأحرف من نور على جبهة التاريخ . لقد استطاعت الفتاة المسلمة أن تجعل القرآن دستورها . ومنهج الإسلام حياتها ... وأن تقيم دعائم بيت الزوجية على ما سنه الرسول ﷺ لزوجاته وبناته والمسلمين من بعده ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران : ٨] .

والله أسأل الهداية والتوفيق .

«الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله» .

الشيخ

السعيد عبد الغفور سالمان

الفصل الأول

مكانة المرأة وحقوقها فى الإسلام

المرأة قبل الإسلام

المرأة اليونانية قديما :

كانت اليونان فى قديم الزمان أكثر الأمم حضارة ومدنية . وكانت أثينا مدينة الحكمة والفلسفة والطب والعلم ، ومع هذا كانت المرأة اليونانية لدى الأثينيين القدماء تباع وتشترى كأنها سلعة من السلع التجارية ، وكانوا يعدونها رجسا من عمل الشيطان . ولم يسمحوا لها إلا بتدبير شئون البيت ، وتربية الأطفال ، وكان الرجل فى أثينا له أن يتزوج أى عدد يريده من النساء ، بلا قيد ولا شرط . أما الرجل فى إسبرطة من اليونان القديمة فكان لا يسمح له أن يتزوج أكثر من امرأة واحدة إلا عند الضرورة .

وستعجب كل العجب إذا عرفت أن المرأة الإسبرطية قديما كان يسمح لها أن تتزوج أكثر من رجل . وقد اعتادت الأكثرية من نساء إسبرطة تعدد الأزواج .

ولا ريب أن هذه العادة كانت من أقبح العادات . هذه حالة المرأة اليونانية المتمدنة فى قديم الزمان .

تعدد الزوجات عند الرومان :

أما المرأة الرومانية فقد كانت تقاسى انتشار تعدد الزوجات عند

الرومان فى العرف لا فى القانون ، ولكن (فالِنتيَان) الثانى العاهل الرومانى قد أصدر أمرًا رسميا أجاز فيه لكل رومانى أن يتزوج اكثر من امرأة إذا شاء وأراد . ولم يستنكر رؤساء الدين من الأساقفة تعدد الزوجات . وقد حذا حذو (فالنتيان) كل من أتى بعده .

واستمر تعدد الزوجات منتشرا بين الرومانيين حتى أتى (جو ستنيان) . فسن قوانين تمنع تعدد الزوجات . ولكن الرجال من الرومانيين استمروا على عاداتهم فى أن يتزوجوا اكثر من واحدة . ولم تبال الأكثرية من الرومانيين بتلك القوانين الجديدة التى تمنع التعدد. واستمر الرؤساء والحكام يرضون شهواتهم بالإكثار من الزوجات .

وتساهل رجال الدين ، وسمحوا للراغبين فى التزوج بأكثر من واحدة بتحقيق رغباتهم ومطالبهم . فكان الرئيس الدينى يعطى ترخيصا بذلك لمن يريد ، وعلى هذا استمر الرومانيون على عاداتهم من تعدد الزوجات . وكانت المرأة عندهم تعامل معاملة القاصر .

وأقرت المسيحية ما أَقَرته ديانة موسى فى الزواج . واستمر رجال الكنيسة يجيزون تعدد الزوجات حتى القرن السابع عشر . ولم يمنعوا التعدد إلا بعد هذا القرن .

المرأة اليهودية :

كان بعض اليهود يَعدُّون المرأة اليهودية فى منزلة خادم . كان الأب يسمح له أن يبيع ابنته وهى صغيرة ، ويتسلم ثمنها . وكانت الفتاة اليهودية لا ترث شيئا من أبيها إلا فى حالة واحدة ، وهى : إذا لم يترك

الأب أحداً من الأبناء بعد وفاته . فإذا كان له أبناء حرمت ابنته الميراث. وكان الرجل من بنى إسرائيل يتزوج أى عدد من النساء ؟ كما يريد ، من غير تقييد أو حدود.

المرأة عند الفرس :

وكانت المرأة عند الفرس قبل الإسلام ينظر إليها نظرة كلها احتقار. وقد استمرت مهضومة الحق . مجهولة القدر . مظلومة فى المعاملة ، حتى أنقذها الإسلام وأعطاها حقوقها، وجاء الرسول محمد ﷺ بالقرآن الكريم ، حيث يقول عز وجل فى كتابه الكريم : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] .

ففى هذه الآية أثبت الله للزوجات على الأزواج حقوقا مثل الحقوق التى لهم عليهن بالمعروف . وحسن العشرة . وترك الضرار وجعل للرجال عليهن درجة أى فضيلة فى الحق من وجوب طاعتهن لأزواجهن. لأن الرجال مطالبون بدفع المهر للزوجات . وبالإنفاق عليهن. والله عزيز فى ملكه . حكيم فيما دبره لخلقه .

ويقول جل شأنه فى كتابه الكريم : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] .

(قوامون على النساء) أى من شأنهم القيام على شئونهن ، لأن الأسرة لابد لها من رئيس يدبر أمورها .

(بما فضل الله بعضهم على بعض) بأشياء منها قوة استعداد الرجل

للأمور الهامة وقد خص الرجال بالرسالات والنبوات وقيادة الحروب وغيرها .

(وبما أنفقوا من أموالهم) أى من الصداق والنفقة على الأسرة كلها.

المرأة الهندية :

وكانت المرأة الهندية لا حق لها فى الحياة بعد موت زوجها. فإذا توفى الزوج جىء بها لتحرق على جثة الميت . وهى حية .

المرأة العربية فى الجاهلية والإسلام :

كانت المرأة عند بعض العرب فى الجاهلية تعد جزءا من ثروة أبيها أو زوجها ، وكان ابن الرجل يرث أرملة أبيه بعد وفاتها . وكان العرب قبل الإسلام يرثون النساء كرها بأن يأتى الوارث ويلقى ثوبه على زوجة أبيه ثم يقول : ورثتها كما ورثت مال أبى . فإذا أراد أن يتزوجها تزوجها بدون مهر ، أو زوجها لأحد عنده ، وتسلّم مهرها ممن يتزوجها. أو حرَّم عليها أن تتزوج كى يرثها بعد موتها .

فمنعت الشريعة الإسلامية هذا الظلم ، وهذا الإرث . قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء : ١٩]

ففى هذه الآية نهى عن عادة الجاهلية من إرث الرجل نساء أقربائه، يفعل بهن ما يشاء .. وكان العرب فى الجاهلية يمنعون النساء من الزواج . فالإبن الوارث كان يمنع زوجة أبيه من التزوج كى تعطيه ما

أخذت من ميراث أبيه . والأب يمنع ابنته من التزوج حتى تترك له ما تملكه ، والرجل الذى يطلق زوجته يمنع مطلقته من الزواج حتى يأخذ منها ما يشاء ، والزوج المبغض لزوجته يسىء عشرتها ولا يطلقها ، حتى ترد إليه مهرها ، فالعرب قبل الإسلام كانوا يظلمون المرأة . ويتحكمون فيها . فحرم الإسلام هذه الأمور كلها بقوله جل شأنه فى كتابه الكريم: ﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء : ١٩] .

﴿ وَلا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ : أصل العضل هو الحبس والتضييق ، أى ولا تمنعوهن عن الزواج لتأخذوا ما أعطيتموهن من المهر وغيره .

وكانوا لا يعدلون بين النساء فى النفقه والمعاشرة ، فأوجب الإسلام العدالة بينهن قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء : ١٩]

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : ٣]

وكان الرجل قبل الإسلام إذا أراد أن يتزوج زوجا أخرى أساء إلى زوجه الأولى ، ورماها فى عرضها . وأنفق ما أخذه منها على امرأة غيرها يريد أن يتزوجها ، فحرم الإسلام على الرجال الظلم والبغى فى قوله عز وجل فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النساء : ٢٠]

آتيتم : أعطيتم .

قنطارًا : مالا كثيرًا فى الصداق .

بهتانا : ظلما .

مبينا : واضحا وظاهرًا .

وفى هذه الآية نهى عن أخذ أى شىء مما دفعه الزوج من المهر . مهما يكن كثيرا . وتوبيخ للأزواج على أخذهم غير المشروع . بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ؟

وكانت المرأة قبل الإسلام تعد متاعا من الأمتعة . يتصرف فيها الزوج كما يشاء ، فيتنازل الزوج عن زوجته لغيره إذا أراد . بمقابل أو بغير مقابل . سواء أقبلت أم لم تقبل .

وكان العرب فى الجاهلية يتشاءمون عند ولادة البنات . ويدفنونهن عند ظهورهن إلى الحياة خوفا من العار أو الفقر .

قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩] .

ظل وجهه مسودا : أى صار وجهه أسود .

وهو كظيم : أى ممتلئ غيظا لا يستطيع له تصريفا .

هُون : ذل ومهانة .

يدسه فى التراب : أى يخفيه تحت التراب حيا حتى يموت.

ألا : حرف تنبيه .

ساء : قبح.

حتى قال أحد الآباء – وقد بشر بأن زوجه ولدت أُنثى –: «والله ما هى بنعم الولد . نصرها بكاء . وبرها سرقة» يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباها وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال والسلاح . ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها .

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يئد ابنته . يدفنها حية – من أجل فقر واقع . أو خشية من فقر قد يقع . أو من عار قد تجلبه – حين تكبر – على قومها .

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطى للأب الحق فى بيع ابنته إذا شاء . وبعضها الآخر . كشريعة حمورابى . تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها أو يملكها إذا قتل الأب ابنة الرجل الآخر .

جاء الإسلام فاعتبر البنت كالابن هبة من الله ونعمة ، يهبها لمن يشاء من عباده قال تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]

وبين القرآن فى قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثرا وأخلد ذكرا ، من كثير من الأبناء الذكور . كما فى قصة مريم ابنة عمران التى اصطفاها الله وطهرها واطفاها على نساء العالمين .

وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذكرًا يخدم الهيكل.

ويكون من الصالحين قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٧] .

وحمل القرآن رحلة شعواء على أولئك القساة الذين يقتلون أولادهم، اناثا كانوا أو ذكورا ، فقال تعالى : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١٤٠] .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء : ٣١] .

وجعل رسول الإسلام الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته . ويصبر على تربيتهن وحسن تأديبهن . ورعاية حق الله فيهن ، حتى يبلغن أو يموت عنهن ، وجعل منزلته بجواره ﷺ ، فى دار النعيم المقيم.

روى مسلم عن أنس عنه ﷺ أنه قال : «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو ... وضم أصابعه» رواه الترمذي بلفظ «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين ...» وأشار بأصبعه السبابة والتى تليها .

وروى ابن عباس عنه ﷺ أنه قال : ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه - أو صحبهما - إلا أدخلتاه الجنة» رواه البخارى فى الأدب المفرد (٧٧) .

ونصت بعض الأحاديث على أن هذا الجزاء - دخول الجنة - للأخ الذى يعول أخواته أو أختيه . كما نص بعض آخر على أن هذه المكافآت الإلهية ، لمن أحسن إلى جنس البنات ولو كانت واحدة ، ففى حديث أبى هريرة مرفوعا : «من كان له ثلاث بنات ، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرَّائهن، أدخله الله الجنَّة برحمته إياهن» قال رجل يارسول الله . وواحدة؟ قال : «وواحدة» رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبى : ١٧٦/٤ .

وروى ابن عباس مرفوعاً : «من كانت له أُنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر وُلده - يعنى الذكور - عليها - أدخله الله الجنة» رواه أبو داود: ١٤٦/٥ ، والحاكم وصححه ١٧٧/٤ وفى حديث عائشة الذى رواه الشيخان أنَّ رسول الله ﷺ قال: من ابتلى من هذه البنات بشىء . فأحسن إليهن . كن له سترا من النار» اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٦٨٨) .

وبهذه النصوص الصريحة ، والبشارات المكررة المؤكدة ، لم تعد ولادة البنت عبئا يخاف منه ، ولا طالع نحس يُتطير به، بل نعمة تشكر، ورحمة تُرجى وتُطلب ، لما وراءها من فضل الله تعالى وجزيل مثوبته .

وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأد إلى الأبد ، وأصبح للبنت فى قلب أبيها مكان عميق يتمثل فى قول النبى ﷺ فى ابنته فاطمة : «فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » رواه البخارى فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٤١٨٨) .

فاطمة بضعة منى يقبضنى ما يقبضها ، ويبسطنى ما يبسطها» رواه أحمد والطبرانى «إنما ابنتى بضعة منى ، يُريبنى ما أرابها . ويؤذينى ما آذاها» رواه الستة جميعا . ونلمس أثر ذلك فى الأدب الإسلامى فى مثل قول الشاعر :

لولا بنيات كزغب القطا ... رددت من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض
إن هبت الريح على بعضه ... امتنعت عينى عن الغمض

وأَما سُلْطان الأب على ابنته فلا يتجاوز حدود التأديب والرعاية والتهذيب الدينى والخُلُقى . شأنها شأن إخوانها الذكور. فيأمرها بالصلاة إذا بلغت سبع سنين ويضربها عليها إذا بلغت عشر ، ويفرق حينئذ بينها وبين إخوتها فى المضجع ، ويلزمها أدب الإسلام فى اللِّباس والزينة والخروج والكلام ، ونفقته عليها واجبة دينا وقضاءً حتى تتزوج.

وليس له سُلْطَة بيعها أو تمليكها لرجل آخر بحال من الأحوال ، فقد أبطل الإسلام بيع الحر ، ذَكرًا كان أو انثى ، بكل وجه من الوجوه ، ولو أن رجلاً حراً اشترى أو مَلَكَ ابنة له كانت رقيقة عند غيره ، فإنها تعتق عليه بمجرد تملكها ، شاء أم أبى بحكم قانون الإسلام .

وإذا كانت للبنت مال خاص بها ، فليس للأب إلا حسن القيام عليه بالمعروف ولا يجوز له أن يزوجها لرجل آخر . على أن يزوجه الآخر

ابنته على طريقة التبادل وهو المسمى فى الفقه بـ «نكاح الشغار» وذلك لخلو الزواج من المهر الذى هو حق البنت لا حق أبيها .

وليس للأب حق تزويج ابنته البالغة ممن تكرهه ولا ترضاه، وعليه أن يأخذ رأيها فيمن تتزوجه ، أتقبله أم ترفضه ، فإذا كانت ثيبا فلابد أن تعلن موافقتها بصريح العبارة ، وإن كانت بكرا يغلبها حياء العذراء اكتفى بسكوتها فالسكوت علامة الرضا . فإن قالت ، لا ، فليس له سلطة إجبارها على الزواج بمن لا تريد .

روى الشيخان عن أبى هريرة مرفوعا : «لا تنكح الأيم حتى تُستأمر ولا البكر حتى تُستأذن» قالوا : يارسول الله ؛ وكيف إذنها ؟ قال : «أن تسكت» متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان (٨٩٥) ورويا أيضا عن عائشة قالت : قالت : يارسول الله ، يُستأمر النساء فى أبضاعهن ؟ قال : «نعم» ، قلت : إنّ البكر تُستأمر فتستحى فتسكت ، قال : «سكاتها إذنها» متفق عليه . ولهذا قال العلماء : ينبغى إعلام البكر بأن سكوتها إذن .

وعن خنساء بنت خدام الأنصارية : أن أباها زوجها وهى ثيب فكرهت ذلك فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها» رواه الجماعة إلا مسلماً .

وعن ابن عباس : «أن جارية بكرًا أتت رسول الله ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة . فخيَّرها النبى ﷺ » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وفى هذا دليل على أن الأب لا يتميز عن غيره فى وجوب

استئذان البكر ، وضرورة الحصول على موافقتها ، وفى صحيح مسلم وغيره : «والبكر يستأمرها أبوها» أى يطلب أمرها وإذنها» .

وعن عائشة : أن فتاة دخلت عليها ، فقالت : إن أبى زوجنى من ابن أخيه ، ليرفع بى خسيسته ، وأنا كارهة ، قالت : اجلسى حتى يأتى النبى ﷺ ، فأخبرته فأرسل إلى أبيها . فدعاه فجعل الأمر إليها فقالت : يارسول الله . قد أجزت ما صنع أبى . ولكن أردت أن أعلم ، أن للنساء من الأمر شىء»؟ رواه النسائى . وظاهر الأحاديث يدل على أن استئذان البكر والثيِّب شرط فى صحة العقد . فإن زوجَّ الأب أو الولىُ الثيِّب بغير اذنها فالعقد باطل مردود ، كما فى قصة خنساء بنت خدام .. وفى البكر : هى صاحبة الخيار إن شاءت أجازت ، وإن شاءت أبت . فيبطل العقد كما فى قصة الجارية (انظر .. نيل الأوطار : ٦/٢٥٤ - ٢٥٦ طبع دار الجيل) ومن جميل ما جاء به الإسلام أنه أمر باستشارة الأُم فى زواج ابنتها ، حتى يتم الزواج برضا الأطراف المعنية كلها ، فعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : «آمروا النساء فى بناتهن» رواه أحمد وأبو داود .

وللإمام أبى سليمان الخطابى هنا كلمات قَيِّمة فى توجيه هذا الحديث فى كتابه «معالم السنن» يحسن بنا أن ننقلها هنا لما فيها من حكمة وعبرة يقول رحمه الله . «مؤامرة البنات فى بُضّع البنات ليس من أجل أنهن يملكن من عقد النكاح شيئا ، ولكن من جهة استطابة أنفسهن ، وحسن العشرة معهن ، ولأن ذلك أبقى للصحبة ، وأدعى إلى

الأُلفة بين البنات وأزواجهن ، إذا كان مبدأ العقد برضاء من الأُمهات ، ورغبة منهن . وإذا كان بخلاف ذلك لم يؤمن تضريتَهُن أى : (تحريضهن على أزواجهن) ووقوع الفساد من قِبَلهن . والبنات إلى الأُمهات أميل . ولقولهن أقبل . فمن أجل هذه الأُمور يستحب موامرتهن فى العقد على بناتهن ، واللهُ أعلم .

قال ويحتمل أن يكون ذلك لعلة أُخرى غير ما ذكرناه . وذلك أن المرأة ربما علمت من خاص أمر ابنتها ، ومن سِرِّ حديثها أمرًا لا يستصلح لها معه عقد النكاح ، وذلك مثل العِلَّة تكون بها . والآفة تمنع من إيفاء حقوق النكاح ، وعلى نحو هذا يتأول قوله : «ولا تزوج البكر إلا بإذنها وإذنها سكوتها» وذلك أنها قد تستحى من أن تُفصح بالإذن . وأن تُظهر الرغبة فى النكاح . فيستدل بسكوتها على سلامتها من آفة تمنع الجماع . أو سبب لا يصلح معه النكاح لا يعلمه غيرها . والله أعلم .

وتدير هنا أن الأم قد تعلم أسرار ابنتها أن قلبها مع شخص آخر ، فإذا تقدَّم لها هذا الشخص وكان كفئا ، فهو أولى بالتقدم والترجيح ، كما جاء فى الحديث : «لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح» رواه عن ابن عباس ، ابن ماجة (١٨٤٧) والحاكم وصححه على شرط مسلم جـ ٢ ١٦٠ .

وإذا كان الأب لا يحق له تزويج ابنته ممن لا ترضاه ، كان من حقه عليها ألا تُزوِّج نفسها إلا بإذنه لحديث أبى موسى مرفوعا : «لا نكاح

إلا بولى» رواه أبو داود والترمذى ولحديث عائشة مرفوعًا : «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ... ثلاث مرات» رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجة .

ورأى أبو حنيفة وأصحابه أن من حق الفتاة أن تزوج نفسها . ولو بغير إذن أبيها ووليها . بشرط أن يكون الزوج كفئا لها . ولم يثبت عندهم الحديث المذكور مستدلين بما جاء فى القرآن من نسبة النكاح إلى المرأة : ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة : ٢٣٠] .

وقوله تعالى : ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

أضاف النكاح فى هذه الآيات وغيرها إلى النساء . ونهى عن منعهن منه . ولأنه خالص حق المرأة . وهى من أهل المباشرة . فصح منها .

واشترط أبو حنيفة أن يكون زواجها من كفء . وإلا للأولياء حق الاعتراض ، فإن زوَّجت نفسها بإذن الولى دون حضوره . فقد أجاز ذلك بعض الفقهاء . والجمهور يشترطون حضور الولى وإلا فإن زواجها يكون باطلاً .

قال العلامة ابن قدامة : فإن حكم بصحة هذا العقد حاكم. أو كان المتولى لعقده حاكما . لم يجز نقضه . قال : وخرج القاضى فى هذا وجهًا خالصة : أنه ينقض . لأنه خالف نصاً. والأول أولى ، لأنها مسألة مختلف فيها ، ويسوغ فيها الإجتهاد، فلم يجز نقض الحكم له . كما لو

حكم بالشفعة للجار . وهذا النص (يعنى : لا نكاح إلا بِوَلى) متأول . وفى صحته كلام ، وقد عارضته ظواهر (المغنى لابن قدامة وهذا من عميق فقه ابن قدامة وانصافه رضى الله عنه) .

ومع هذا فالأولى والأوفق أن يتم الزواج بموافقة جميع الأطراف . الأب ، والأم ، والابنة حتى لا يكون هناك مجال للقيل والقال ، والخصومة والشحناء ، وقد شرع الله الزواج مجلبة للمودة والرحمة .

والمطلوب من الأب أن يتخير لأبنته الرجل الصالح الذى يسعدها ويسعد بها . وأن يكون همه الخُلُقُ والدين ، لا المادة والطين ، وألا يعوق زواجها إذا حضر كفؤها وفى الحديث : «إذا أتاكم من ترضون خُلُقه ودينه فزوِّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض» رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه ووافقه الذهبى وبهذا علم الإسلام الأب أن ابنته «إنسان» قبل كل شىء . فهى تطلب انسانا مثلها ، وليست «سلعة» تُعرض وتُعطى لمن يدفع نقودا أكثر . كما هو شأن كثير من الآباء الجاهلين والطامعين إلى اليوم ، وفى الحديث : «إن من يمن المرأة : تيسير خطبتها وتيسير صداقها ، وتيسير رحمها . أى ولادتها» رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، عن عائشة .

القرآن والمرأة

عنى القرآن الكريم بشئون المرأة فى كثير من سُوَرِهِ حتى عرفت إحدى السور بـ (سورة النساء الكبرى) وعرفت أخرى بـ (سورة النساء الصغرى) وهما سورتا النساء «الرابعة فى ترتيب المصحف» وسورة الطلاق رقم ٦٥ فى ترتيب المصحف وهذا يدل على مكانة المرأة فى نظر الإسلام . وأنها مكانة لم تبرز ولم تحظ بمثلها المرأة فى شريعة أخرى ، بل ولا فى مجتمع إنسانى ، على مر العصور والتطور الإنسانى فى هذه الحياة حتى الآن . ولقد أُثيرت فى هذه الأيام عدة قضايا حول المرأة .

بعضها جاء تقليدا لمجتمعات بعيدة عن المنهج الإسلامى الذى يستقى من نصوص القرآن والسنة .

وبعضها جاء وليدًا لعادات وأعراف توارثها الناس دون أن يستظهروا ما إذا كان هذا الذى توارثوه إسلاميا - صحيح بالنسبة إلى الإسلام أم لا ؟ وبعضها جاء نتيجة سوء الفهم لنصوص القرآن أو التزمت فى الفهم . ونستعرض بعض هذه القضايا مستلهمين حكم الإسلام فيها مما جاء به القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ .

المساواة بين الرجل والمرأة :

١- هذا هو القرآن الكريم يحدثنا عن خلق الرجل والمرأة فيقول الله تعالى فى أول سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن

نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ [النساء: ١] .

وبين الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات: ١٣].

والمستفاد من هاتين الآيتين - وغيرهما - أن القرآن لم يفاضل بين الرجل والمرأة فى الجانب الإنسانى ، وإنما التفاضل يكون بما يكتسبه الإنسان من الصفات والأخلاق التى تسمو بالإنسان إلى أفضل المستويات .

وفى القرآن : ما يقرر أن الرجل والمرأة شطرا نفس واحدة لا يختلفان فى الإنسانية كما لا يعد أحدهما فرعا للآخر . وإنما هما شطران لنفس واحدة ، فهما متكاملان ، ذلك قول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم: ٢١] .

وفى القرآن الكريم ما يقرر : أن الرجل والمرأة يشتركان فى (الوالدية) فقد سمى القرآن الرجل : والدًا . وامرأته : والدة ، وجاءت نصوص الآيات بوضعهما معا موضع التكريم والاحترام بوصف الوالدية . فكانت الوصايا العديدة التى تحث على الإحسان إليهما وعلى البر بهما تذكيرا بالأصل الإنسانى كما بين الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [النساء: ٣٦]

وقد بين الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

بل إن القرآن بعد أن سوى بين الوالدين فى الوصية بالإحسان إليهما واحترامهما - أرشد إلى ما للوالدة من جهود فائقة فى تربية أولادها ، لا يحمل الوالد منها ، شيئا ذلك قول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان : ١٤] .

وحين سأل رجل رسول الله ﷺ :

من أحق الناس بحسن صحابتى يارسول الله ؟

قال : أُمك .

قال : ثم من ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟

قال : أمك .

قال : ثم من ؟

قال : أبوك .

وتخصيص الأُم بهذا القدر من العناية جاء تنظيما لما تقضى به فطرة الخلق والتكوين وجزاء عاطفة الشفقة الفائقة التى أودعها الله فى قلب المرأة لولدها . وبها احتملت مشاق الحمل والولادة والإرضاع وجهود التربية الأُولى . والسهر على حفظ المولود فى صحته وسلامته

بما يؤهله إلى اجتياز مراحل الحياة ، وذلك شأن تشريع الإسلام . فكما نظم صلة الولد بالوالدين ، وأبان فضل الأُم تقديرا لما تقوم به نحو الولد، وتقدير دور الوالد باعتباره المكافح الكادح المنفق ، وكما فعل ذلك فى محيط الوالدين نظم تحصيل المال من طرقه المشروعة وإنفاقه فى الوجوه المعقولة ، دون تقيد أو تبذير ، ونظم علاقات الناس بعضهم مع بعض علي أَساس من المحبة والتعاون دون استغلال لحاجة محتاج ، كل ذلك جاء تنظيما لمقتضى الفطرة السليمة .

فهل مع هذه المساواة التى قررها الإسلام فى القرآن بين الرجل والمرأة فى (الوالدية) والنص على كمال «إنسانية المرأة» وأنها والرجل قد خلقا من نفس واحدة ، هل مع هذا يكون الإسلام قد ميز الرجل كإنسان عن المرأة كإنسان . اللهم: لا..

بل الله يمن على المرأة بإنصاف القرآن لها ويرفع شأنها ..

المساواة فى المسئولية :

يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء : ١٢٤] .

وقال سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

فيما تلونا من هاتين الآيتين وغيرهما تقرير القرآن : أن المرأة ذات

مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل . فهى مسئولة عن نفسها . وعن عبادتها وعن معاملاتها . وعن أُسرتها وعن أُمتها ولا تقل فى مطلق المسئولية عن الرجل ، وأن الثواب والعقاب عند الله لكل من الرجل والمرأة منوط بما يكون من كل منهما من طاعة أو مخالفة ، وطاعة الرجل لا تنفع المرأة إذا كانت غير صالحة ومنحرفة ، كما أن معصيته لا تضرها . وهى مستقيمة صالحة ثم إن فى عبارة الآية الأخيرة (بعضكم من بعض) . دلالة واضحة على المساواة إذ جعل القرآن المرأة بعضا من الرجل وجعل الرجل بعضا من المرأة وبذلك تتجلى (المساواة فى المسئولية والتكليف) بين الرجل والمرأة فى حياتهما المشتركة دون تفاضل . أو سلطان كما يؤكده قول الله تعالى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء : ٣٢] .

وقد بين الحق فى كتابه الكريم فقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر : ٣٨] .

إذ قررت هذه الآية أن كل نفس : رجل أو امرأة مسئولة عما كسبت، فلا يتحمل أحدهما خطأ الأخر أو خطيئته ...

ويظهر هذا واضحا فى حديث القرآن عن امرأتى النبيين : نوح . ولوط وعن امرأة فرعون ، قال الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي

عندكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) ﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

إذ لم تشفع نبوة نوح ولوط عليهما السلام، لامرأتيهما بل كانتا فى النار جزاء خروجهما على الدين وكفرهما، كما لم يضر كفر فرعون امرأته التى قدمت عملا صالحا فأدخلت الجنة بعملها دون أن تساءل بأعمال زوجها.

المسئولية العامة للمرأة:

وإذا كان القرآن قد قرر مسئولية المرأة الخاصة عن نفسها وعباداتها ومعاملاتها، فقد قرر أيضا مسئولية الدعوة إلى الخير بالأمر بالمعروف، والإرشاد إلى الفضائل، وبالنهى عن المنكر والتحذير من الرذائل، وجعل انحراف كل منهما عن واجب الإيمان والاخلاص لله. وللأمة المسلمة موضع المساءلة باعتبار أن مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أكبر المسئوليات.

ذلك ما صرح به القرآن فى قول الله سبحانه فى كتابه الكريم: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾ [التوبة: ٧١].

وقد بين الحق سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل فقال: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ

وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨] .

فليس من الإسلام أن تقعد المرأة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تلقى قسطها من هذه المسئولية على الرجل ، بل عليها بحكم الله فى القرآن أن تحمل المسئولية تضامنا مع الرجل لتنهض الأمة ويستقيم حالها . لأن الرجل والمرأة مسئولان تضامنا عن استقامة حياة الأمة . وإلا اضطربت الحياة أن تخاذل أحدهما عن حمل قسطه منها.

هذه مثل من القرآن دالة على أن الإسلام قد كرم المرأة . فهى فى أصول العقيدة تحمل أمانة إنسانيتها كاملة ، وتكاليف رشدها أصالة . فحقوقها مصونة وواجباتها ملقاة على عاتقها .

وأساس الزواج فى الإسلام التآلف والتكامل بين الزوجين ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] .

ومن ثم فلا يجوز فى الإسلام أن تكون الحياة الزوجية مجال صراع بين الزوجين على السيطرة والسلطة . أو تنازع على نفوذ ورياسة . قد شرع الله لكل من الزوجين دائرة عمله وتكاليفهما مع الأخذ فى الاعتبار أن طبيعة الجماعة تقتضى أن يتولى فرد منها رعاية شئونها ، ويتحدث باسمها .

والأُسرة أحوج ما تكون إلى من يقوم على مصالحها ، وقد جعل القرآن هذه القِوَامة إلى الرجل تكليفا لا تشريفا ، مع احتفاظ المرأة بكل مقومات شخصيتها ، فلا تتخلى عن الانتماء إلى أسرتها التى

أنجبتها ، بل تظل تحمل اسم أبيها ، ولها ذمتها المالية مادامت عاقلة رشيدة تباشر عقود التصرفات المدنية دون أن يحد الزواج من هذه الأهلية ، بل وليس لزوجها ولا لأبيها على أموالها أية حقوق حيث أتاح لها الإسلام أن تملك وأن تتصرف فيما تملك ، وأباح لها توكيل غيرها فيما لا تريد مباشرته بنفسها ، وأن تضمن غيرها ، وأن يضمنها غيرها ، كل ذلك مساواة بالرجل سواء بسواء .

تلك المساواة التى كفلها الإسلام للمرأة باعتبارها إنسانا كامل الإنسانية فى حين أن المرأة الغربية ، وبالجملة غير المسلمة ، وفى هذا العصر الذى يتادون فيه بحقوق الإنسان عامة ، وحقوق المرأة خاصة ، لم تصل إلى هذه الحقوق التى قررها الإسلام . ففى الغرب ، بالزواج تتمحى ذاتية المرأة ، وتنسلخ من أسرتها وتنسب إلى زوجها ، ولا تملك التصرف فى أموالها ، إن الحق سبحانه وتعالى بين فى كتابه الكريم فقال : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] .

جعل مناط القِوَامة الرجولة : فلا تصح شرعا لقاصر ، أو عاجز أو سفيه ، ويتفاوت ميزان الرجولة بتفاوت المسئوليات ، وفى مقابل هذه القِوَامَة ومؤداها تحميل الرجل أعباء هذه الأسرة القِوَام عليها ولا تنقص هذه الدرجة من قدر المرأة ، ولا تحط من مكانها أو مكانتها زوجا أو أما مسئولة عن بيت الزوجية ، مشاركة فى حمل أعبائه .

كما لا تعطل الأصل العام المقرر للمساواة فى الحقوق والواجبات حسبما يقضى به العرف . وعلى طريق المماثلة .

ذلك قول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وهذه الدرجة للرجل ليست حطا من شأن المرأة ، أو نقصا من المساواة ، وإنما جريا على ما قرره القرآن فى شأن الرسل عليهم السلام .

كما فى قول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وقول الله سبحانه وتعالى فى شأن المؤمنين وأولى العلم : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وبين فى كتابه الكريم فقال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

فليس إذاً بدعا من القول والحكم أن أسند الله القِوَامة للرجل . وأناط به أعباء الأُسرة ورفعه بهذا درجة . لأنها فى مقابل مسئولية أوفى وأكبر . كما رفع بعض الرسل على بعض ، وكما رفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات .

فالقِوَامة تنظيم للمسئولية بين الرجل والمرأة ، وتوزيع لأعباء الحياة الزوجية ، وليست انتقاصا من الحقوق التى قررها الإسلام وأقرها للمرأة فى نطاق المساواة فى الحقوق والواجبات .

كما أن ما يقال عن قضايا المرأة ومشاكل الزوجية ليس ناشئا عن

قواعد التشريع الإسلامى الذى أقام الحياة الزوجية على التآلف النفسى والسكن والمودة والرحمة وإنما هذه المشاكل أساسها أن ما يحدث حالات فردية . وتعتبر حالات مرضية شرع لها الإسلام وسائل الإصلاح ، وطرق العلاج حتى إذا لم تفلح وسائل الاصلاح المشروعة حسمت هذه العلاقة غير المستقرة بالطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله كما بين الحق فى كتابه الكريم فقال : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء : ١٣٠] .

ومن تمام المساواة بين الرجل والمرأة فى الإسلام أن كان دمها مساويا لدمه والحكم فيهما واحدا إذا وجب القصاص .

ذلك قول الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

حيث قصد بهذه الأية إبطال ما كان عليه العرب من الإسراف فى القتل ، وعدم اتخاذ (القصاص) فيه أساسا للجزاء حيث كانوا لا يقتصرون فى الجزاء على القاتل . بل كانوا يقتلون بالعبد إذا قتله عبد. سيدا من سادات العبد القاتل ، كما كانوا . إذا قتلت المرأة . لا يقتلونها قصاصا . وإنما يقتلون رجلا من قبيلة القاتل .

وهذا الواقع الذى كان عليه العرب يوضح لنا المقصود من ظاهر هذه الآية . ومن مقابلة الأصناف الواردة فيها . ومن ثم فلا دلالة لمفهوم المقابلة فى الآية على أن الرجل لا يقتل بالأنثى ولا على أن الحر لا يقتل العبد .

المساواة بين الرجل والمرأة فى الدية :

كان من مقتضى تسوية القرآن بين الرجل والمرأة فى الإنسانية أن القصاص هو الحكم بينهما فى الاعتداء على النفس ، وكانت جهنم والخلود فيها . وغضب الله ولعنته . هو الجزاء الأخروى فى قتل المرأة كما كان هو الجزاء الأخروى فى قتل الرجل ، وكانت الآية فى قتل كل منهما خطأ واحدة دون تمييز بين الذكر والأنثى .

كذلك بين الحق سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٩٢] .

إذ الآية لم تفرق فى هذا الحكم ، فى وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأُنثى حيث جاءت عبارتها عامة مطلقة لم تخص الرجل بشىء منها عن المرأة ، ولم يختلف الفقهاء فى هذا الفهم . وإن اختلفوا فى مقدار الدية . وهل الرجل والمرأة فيه سواء . فذهب البعض إلى أن دية المرأة على النصف من دية الرجل فى القتل الخطأ .

وذهب آخرون إلى المساواة فى مقدار الدية .

وهذا هو ما يؤكده إجماع الفقهاء على أن الرجل والمرأة داخلان فى حكم هذه الآية ، ومن ثم وجبت المساواة بينهما فى مقدار الدية . كما تساويا فى وجوبها ...

انعقاد الزواج بعبارة النساء :

قد يقال : إن الإسلام أقام على المرأة حجرا فى أن تزوج نفسها ،

أى أن تباشر عقد زواجها بنفسها . أو تنوب عن غيرها فى عقد الزواج .

وفى ذلك انتقاص لشخصها ونقص مساواتها بالرجل فى خصوص عقد الزواج حيث ترى أكثر المذاهب الفقهية الإسلامية حرمانها من تولى هذا العقد . وأن لوليها - إذا كانت بكرا . أن يجبرها على التزوج بمن لا تريد ودون أن تستشار ، أو يؤخذ رأيها .

وحقا قد اختلف الفقهاء فى صحة عقد الزواج إذا باشرته المرأة لنفسها أو وكيلة عن غيرها ، وإذا كان ثم خلاف إلا أنه يمكن القول بأن آيات القرآن الكريم قد أضافت عقد الزواج بعبارة صريحة إلى المرأة نفسها ، وحذرت الرجال من منعها من هذا الحق .

من هذه الآيات قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٠] .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

وصحت الأحاديث الكثيرة فى وجوب استئذان البكر مع مراعاة ما يغلب عليها من حياء ، فلم تطلب الأحاديث ضرورة تصريحها بالرضا ، وطلبت ذلك بالنسبة للثيب أى التى سبق لها الزواج .

من هذا قول الرسول ﷺ : «**الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر يستأذنها أبوها فى نفسها وإذنها صماتها**» رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

وروى البخارى ومسلم : أن خنساء بنت حزام زوجها أبوها وهى كارهة وكانت ثيبا ، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها .

أى أبطل هذا العقد .

كما روى فى كتب السنن من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما : أن جارية بكراً أتت النبى ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة . فخيرها النبى ﷺ بعد أن جعل الحق لها ، فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ولكن اردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء ، وقد أخذ فقه المذهب الحنفى بهذا . وأجاز للمرأة البالغة العاقلة الرشيدة أن تتولى عقد الزواج لنفسها ولغيرها .

هذا : وإنه مع هذا الحق قد أجيز لعصبة المرأة بالترتيب حق الاعتراض إذا زوجت نفسها بغير كفء لها باعتبار أن الزواج صهر بين أسرتين .

حظ المرأة من الميراث :

إن القرآن حين قرر أن ميراث الأُنثى على النصف من ميراث الرجل فى قول الله تعالى فى سورة النساء فى آية المواريث : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء : ١١] .

لم يكن منتقصا من إنسانية المرأة . واعتبارها أقل من إنسانية الرجل ، وإنما معناه : ما قضت به طبيعة المرأة فى الحياة العامة وأعباء الرجل فيها ، فقد تحمل الرجل نفقات الأُسرة من زوجة وأولاد

وأقارب . وتحمل كذلك المهر الذى يقدمه للزوجة عنوانا على رغبته فى الإقتران بها . وكانت أعباء المرأة غالبا : تدبير البيت وشئون الحمل والإرضاع بعد الوضع . والتفرغ لحضانة الأطفال ، والقيام على أمورهم .. وبالموازنة بين هذه الحقوق ، وتلك الواجبات المقررة لكل من الرجل والمرأة يتضح أن الرجل قد كثرت واجباته . وثقلت تبعاته وكانت المرأة فى هذا أسعد منه حظا . وأقل تبعة ، وهذا هو القرآن يقرر تبعات الرجل فيقول الحق تبارك وتعالى فى سورة النساء تقريرا للمهر دون تحديد لأكثره :

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء : ٤] .

ويقول فى ذات السورة : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٢٠] .

وفى شأن وجوب النفقه قال الله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ [الطلاق : ٧] .

وأوجب لها نفقة العدة بعد الطلاق على نحو ما وجبت لها حال قيام الزوجية . كما جاء فى سورة الطلاق فى الحديث عن العدة بعد الطلاق وأحكامها وحقوق المطلقة قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٦] .

وأوجب لها المتعة وهى ما يبذله الرجل لامرأته بعد الطلاق فوق

نفقة العدة .. ذلك قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ٦].

وهكذا كانت المرأة أسعد حظا من الرجل . وأقل تبعة . ومن ثم كان التفاضل فى الميراث فى أغلب صورة .

شهادة المرأة :

جاء فى آية المداينة فى (سورة البقرة) قول الله سبحانه : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقد صرحت هذه الآية بأن المرأتين تحلان محل رجل فى الشهادة . وأن الأصل الاستشهاد برجلين . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان . وليس هذا الذي قررته الآية انتقاصا من أهلية المرأة أو إنسانيتها . وإنما جعلت شهادة المرأتين مقابل شهادة رجل واحد ، لأن النسيان أسرع إليها من الرجل، وإلى هذا المعنى أشارت الآية : ﴿أن تضل إحداهما «أى تنسى» فتذكر احداهما الأخرى﴾ ولأنه فى الأغلب ليس من شأن المرأة الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المفاوضات. ومن هنا يكون إلمامها بما لا يهمها حال أن الرجل يمارس غالبا هذه المعاملات فتكسبه الممارسة إلماما بقضاياها .

ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها ويكثر اشتغالهم بها .

ومن ثم قبلت شهادة المرأة - وحدها - فيما لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها : كالولادة - وعيوب النساء ، والبكارة ، كما اقتصر على الرجال فى القضايا التى قد تثير عاطفة المرأة كالحدود ..

هذا ولقد جعل القرآن شهادة المرأة كشهادة الرجل فى «اللعان» وهو ما شرعه الله فى القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجته دون أن يكون لديه دليل على اتهامه .

ذلك قول الله تعالى فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩ ﴾ [النور : ٦ - ٩] .

فتلك شهادات أربع من الرجال يعقبها استنزال لعنة الله عليه إن كان كاذبا فى اتهامه لزوجه ، ويقابلها ـ ويبطل أثرها ـ أربع شهادات من المرأة يعقبها استنزال غضب الله عليها إن كان من الصادقين تلك عدالة الإسلام فى توزيع الحقوق بين الرجل والمرأة .

وهى عدالة تحقق أنهما فى الإنسانية سواء ..

ونحن نستعرض حديث القرآن عن المرأة ومالها من حقوق وما عليها من واجبات نتحدث عن بعض الأمور التى أثيرت أخيرا فى مجتمعنا لنتعرف على حكم القرآن فيها :

اختلاط الرجال والنساء :

إن الإسلام قد أباح للمرأة أن تشارك فى الحياة العامة للمجتمع نجد هذا مقررا فى قول الله سبحان وتعالى فى كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة : ١٢] .

أليست هذه الآية قد قررت أن للمرأة أن تشترك فى الأمور العامة بخروجها لمبايعة الرسول ﷺ والتعاهد معه على هذه الأصول العامة : للدين وللحياة وللقيام بحدود الشريعة وأحكامها التزاما بشرع الله.. وقد صح أن عمر بن الخطاب كان يحلف المرأة المهاجرة :

(بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض) و (بالله ما خرجت من بغض زوج) (وبالله ما خرجت التماس دنيا) ، و (بالله ما خرجت إلا حبا لله و لرسوله) ولقد نقلت كتب السيرة و التاريخ ، أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، ظل ثلاثة أيام يستشير الناس فيمن يخلف عمر ،رضي الله عنه ، من الستة المرشحين ، فلم يبق رجل ولا امرأة يعتد برأيه إلا استشاره وهذا إجماع من الصحابة ..

ونقل القرآن ذلك الحوار التشريعى بين رسول الله ﷺ والمرأة التى ظاهر منها زوجها حيث افتتحت (سورة المجادلة) بقول الله سبحانه ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ

تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة : ١] حيث نقل أن سبب نزول هذه الآية وما بعدها :

أن أوس بن الصامت قال لزوجته خولة بنت ثعلبة : أنت عليَّ كظهر أُمي . وكان مثل هذا القول يحرم المرأة على زوجها في الجاهلية، ثم أراد منها ما يريده الرجل من زوجته فامتنعت وقالت : والذي نفس خولة بيده لا تصل إليَّ . وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله ﷺ . فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول إن أوسا تزوجني ، وأنا شابه مرغوب فيَّ. فلما خلا سنى ، ونثرت له بطنى جعلنى كأمه . وتركنى إلى غير أحد . فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله .

فقال الرسول ﷺ : ما أُمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ، وما أراك إلا حرمت عليه . قالت (ما ذكر طلاقا) وجادلت رسول الله ﷺ . مرارا ثم قالت . إن لى صبية صغاراً . إن ضممهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا . وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : إننى أشكوا إليك . اللهم فأنزل على نبيك ، وما برحت حتى نزلت آيات الظهار فى سورة المجادلة ..

وهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين خطب الناس فنهاهم عن الغلو فى مهور النساء ، وجعل للمهر حدًا أقصى أربعمائة درهم ، فاعترضت امرأة على قوله وقالت : أو سمعت قول الله: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النساء : ٢٠] .

فرجع عمر عن قوله وقال : اللهم اغفر . كل الناس أفقه من عمر .

فلم تكن المرأة في تاريخ الإسلام محصورة فى البيت لا تبرحه .

ولم تكن كذلك لا تتحدث مع الرجال ولا تحضر مجالسهم. ولم تكن ممنوعة من مزاولة العمل المناسب لها . بل كانت مشاركة في الحياة العامة ..

والمشاركة تقتضى مخالطة المجتمع التى تمكنها من أداء أعمالها وقضاء كل احتياجاتها فى حدود شرع الله .

ولقد كانت النساء يؤدين الصلاة فى المسجد مع جماعة المسلمين فى عهد رسول الله ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين من بعده وقد كن يخرجن مع الجيش فى الحرب .

ثم اليس الحج فرضا على الرجال وعلى النساء وتؤدى النساء هذه الفريضة ومن ثم فإن خروج النساء واختلاطهن بالرجال مخالطة مشرعة فى الأسرة والمجتمع .

والعمل أمر مباح بشرط ألا ينفرد رجل وامرأة . وبشرط عدم التبرج .

حيث نهى الرسول ﷺ عن الخلوة . فقال : «**لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما**» رواه الطبرى . ونهى القرآن عن التبرج فقال الله تعالى : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

الرجال قوامون على النساء

قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء : ٣٤] يقومون بما تستلزمه الحياة من الشئون الخارجية التى تتطلب مجهودا . وجعل للمرأة القيام بالأمور التى تستطيعها بمهارة ، كتربية الأطفال . وإعداد ملابسهم وتغذيتهم ، ولم يمنعها من الدراسة والقيام بالعمل خارج البيت ، مادامت قادرة على ذلك العمل محافظة على كرامتها ، قائمة بواجبها . فالرجل رئيس الأُسرة . ومدير شئونها .

وإن جعل الرجل قيِّما على المرأة لا يمس عزتها وشخصيتها واحترامها ، بل يجعلها عزيزة مصونة كريمة غير ممتهنة . قال عز وجل : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]

فللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، ولكن للرجال درجة زائدة على النساء ، هى قوامتهم عليهن ، لأن الرجال مطالبون بالإنفاق على الأُسرة ، والعمل بكل وسيلة لإسعادها والتكفل بمطالبها .

أن يسعى ويعمل لإسعاد الآخر ، وإذا قام الرجل بواجبه . وقامت الزوجة بواجبها . وتعاونا معا على الحياة استطاعا أن يكوِّنا بيتا سعيدًا ، وأسرة سعيدة . هانئة راضية ، متعاونة متآلفة .

ومما يدل على منزلة المرأة فى الإسلام ، وإكرامها ، والمحافظة على شعورها أن أم هانئ . وهى (هند ابنة أبى طالب . وهى ابنة عم النبى ﷺ وكنيتها أم هانى) قد استجار بها فى الحرب عدو من أعداء

المسلمين فأجارته ، فجاء على بن أبى طالب يريد وجهه . فمنعت عليا من قتله ، واحتكمت إلى الرسول ﷺ ، فقال الرسول النبيل ﷺ «قد **أَجرنا من أَجَرتِ يا أم هانئ**» أى أنقذنا من تعهدت بإنقاذه . وحافظ الرسول على عهدها ، ووفى بما وعَدت به ، مع أن من وعدَته كان عدوا من الكفار ، وهذا من النبل فى الإسلام .

وكانت المرأة قبل الإسلام تورَث كبقية ما يتركه الرجل المتوفى من المال ، فأنصفها الإسلام ، وجعل لها حقا فى ميراث أبيها وأخيها وزوجها ، وجعل للذكر مثل حظ الأُنثيين ، فتأخذ نصف ما يأخذه أخوها من الميراث ولقد روعى فى هذه العدالة . لأن الأَخ له أُسرة ينفق عليها . وزوجة وأولاد ينفق عليهم ، أما المرأة فزوجها مكلف بالإنفاق عليها إذا تزوجت .

وإذا لم تتزوج فنفقتها على أبيها أو أخيها أو عمها أو أقرب الناس إليها .

فالإسلام كان منصفا حينما جعل للبنت فى الميراث نصيب الابن من تركة الأب . لقد منح الإسلام المرأة حقوقا انسانية واقتصادية واجتماعية لم تمنحها قبل الإسلام أو بعده ، وحافظ على كرامتها وشرفها ، وعاملها معاملة كلها إجلال واحترام . فالمرأة المسلمة قد أعطيت من الحقوق ما لم تعطه المرأة الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية قديما . والمرأة الأوروبية والأمريكية حديثا .

أعطيت المرأة في الإسلام ما لم تنله فى ديانة موسى وعيسى .

يقول المرحوم الشيخ محمد عبده : «هذه الدرجة التى رفع الله النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق . ولا شريعة من الشرائع ، بل لم تصل إليها أمة من الأُمم قبل الإسلام ولا بعده وهذه الأمم الأُوروبية التى كان من تقدمها فى الحضارة أن بالغت فى احترام النساء وتكريمهن ، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن الفنون والعلوم ، لا تزال دون هذه الدرجة التى رفع الإسلام النساء إليها ، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف فى مالها بدون إذن زوجها ، وغير ذلك من الحقوق التى منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن . وقد كان النساء فى أوروبه منذ أكثر من خمسين سنة بمنزلة الأرقاء فى كل شىء . كما كان فى عهد الجاهلية عند العرب ، بل أسوأ حالا ... وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا فى إعلاء شأن النساء يفخرون علينا ، بل يرموننا بالجهل فى معاملة النساء .

ويزعم الجاهلون منهم أن ما نحن عليه هو أثر ديننا» تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٧٥ ويكفينا ما قاله الرسول ﷺ : «**مازال جبريلُ يوصينى بالنساءِ حتى ظننتُ أَنه سيُحَرِّمُ طلاقهنَّ**» ولا نبالغ إذا قلنا إن المرأة المسلمة قد أعطيت من الحقوق ما لم تعطه المرأة الأوروبية والأمريكية فى القرن العشرين . وإن الإسلام قد أنصفها ، وعاملها معاملة إنسانية كريمة ، منذ أربعة عشر قرنا تقريبا ، فكان لها منزلة رفيعة ودرجة سامية فى العصور الإسلامية الذهبية . فالإسلام مفترى عليه بالكذب والبهتان ، من متعصبين ومحترفين وكُتَّاب لا يعرفون الحق ،

لأنهم لا يرونه ، ولا يعرفون العدالة والإنصاف ، ولا يفهمون الإسلام على حقيقته .

ويجهلون مثله العليا ، ومبادئه وقواعده . وآراؤهم كلها افتراءات وأكاذيب .

المرأة المسلمة شاركت الرجل فى الحرب

وقد شاركت المرأة المسلمة الرجل فى الحرب . وساعدته كل المساعدة ، بروحها الفدائية . وقلبها الرحيم ، ففى غزوة أحد تقدمت السيدة عائشة رضى الله عنها بسيفها لتحارب به ، وتدافع عن الرسول ، وتقدمت أمُّ سلمَة أيضا بسيفها للدفاع ، وتقدمت نساء كثيرات بسيوفهن للدفاع عن الإسلام ، ورسول الرحمة والسلام . وهجمت النساء على الأعداء ، وبتلك الروح نجا المصطفى ﷺ فى تلك الغزوة .

وكان الرسول ﷺ يغزو بأم سليم ومعها نسوة من الأنصار ، ، يسقين الماء ، ويداوين الجرحى .

وقد قامت السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ بنصيب كبير ، فى الدعوة إلى إسناد الخلافة إلى على بن أبى طالب العالم المؤمن . البطل الحكيم ، كرم الله وجهه .

وأنقذت السيدة زينب بنت الحسين - رضى الله عنهما - ابن أَخيها الصغير اليتيم من الأَمويين بعد مذبحة كربلاء (بها قتل سيدنا الحسين رضى الله عنه) .

الإسلام لا يمنع المرأة من الجهاد :

إن الإسلام لا يمنع المرأة من الجهاد . قال جل شأنه : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس : ٣٥] وقالت الربيع بنت معوذ : «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، نسقى القوم ونخدمهم ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى إلى المدينة» .

وقالت أم عطية الأنصارية : «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم فى رحالهم . وأصنع لهم طعامهم . وأُداوى الجرحى ، وأَقوم على الزَّمْنَى» الزمنى : جمع زمين ، وهو المريض الذى به عاهة . وقد اشتركت أم حكيم «هى زوج عكرمة بن أبى جهل» بنت الحارث فى معركة بين الروم والمسلمين وهى عروس .

وفى غزوة أحد شغل المسلمون بالغنائم وجمعها . ففاجأهم كفار قريش من الأمام والخلف . فهزم المسلمون ، وهاجمت جماعة منهم رسول الله ﷺ فسقط من دافعوا عنه من المسلمين ، فجاءت نسيبة بنت كعب . وبدأت تعطى الرسول السهام فيرميها بقوسه .

فالدين الإسلامى لا يمنع المرأة من القيام بأى عمل شريف. تجيده للإسهام فى النهوض بالوطن .

شجاعة المرأة المسلمة فى الحرب :

لقد آمنت نسيبة بنت كعب الأنصارية بالإسلام . ورسول الإسلام . وأسلم معها زوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله . وشاركوها الثقة بمحمد الرسول الأمين ، والإخلاص له .

وقد فرحت الفرح كله حينما هاجر المصطفى من مكة إلى المدينة ، فهى مدنية من أهل المدينة ويمكنها أن تستمع هناك إلى كلام الله . الذى ينطق به محمد . وتتمتع بأحاديثه الحلوة العذبة كل يوم . فلما جاء كفار مكة ليقاتلوا المسلمين بالمدينة فى غزوة أُحد ، قالت نسيبة لزوجها وابنيها : «الآن وجب الدفاع عن دين الله . ذلك الدين الحق» فرد زوجها : نعم يا نسيبة ، لقد وجب الدفاع فأعدِّى لى ما أحتاج إليه من سلاح.

وقال ابناها : نعم يا أماه . لقد وجب الدفاع والجهاد لسحق المعتدين ، فأعدى لنا الأسلحة . لنشترك مع أبينا فى القيام بالواجب .

سُرَّت نسيبة بما قاله زوجها وابناها سرورا جمًا . وقالت لقد أعددتُ لكم ولنفسي السلاح . وسنذهب جميعا لنصرة دين الله .

وقد بدأت الحربُ بين المسلمين والكفار والمعتدين على جبل أُحد . وبرزت نسيبة بين المحاربين . وهى تحمل قربة من الماء، لتسقى من كان فى ظمأ . وتأسوَ الجرحى وتضمد جراحهم . وتعالجهم . وتبث الحماسة والشجاعة فى صفوف المسلمين .

نسيبة بنت كعب تدافع عن الرسول :

واشتد القتال . ورجحت كفة الكفار . وتفرق المسلمون . فلم يثبت فى المعركة إلا محمد العظيم . وقليل من الصحابة . وانتهز الأعداء الفرصة . واتجهوا إلى الرسول ليقتلوه ، ونظرت نسيبة . فإذا المصطفى رابط الجأش فى مكانه . يدافع بكل بسالة وشجاعة . وعزيمة وبطولة ، وسهام المشركين تتجه إليه من كل جانب . وسيوفهم تتناوله من كل حدب وصوب . فنزعت نسيبة سيفها من غمده . وانقضَّت على صفوف الكفار . وطفقت تصول وتجول بين يدى رسول الله . وأخذت تصيح : وامحمداه . ودافعت عن الرسول بسيفها وقوسها ونبالها . وكم دفعت عنه الأذى . وكم ردت عنه الرَّدَى . كان المصطفى الشجاع ينظر يمينا فيراها . وينظر يسارا فيراها ، وينظر أمامه فيجدها . ويلتفت خلفه . فيراها تدافع ببسالة نادرة . وإيمان ثابت . فأراد المشركون أَن يقتلوها . واستمرت فى دفاعها حتى أُصيبت بجراح من طعنات الأَسِنَّة ، وضربات السيوف . ورميات السهام . فوقعت على الأرض ودمُها ينزف من كتفها . ولم تعبأ بنزيفها الشديد. وقد زُهيَت بروعة الجهاد . وحلاوة الظفر . ودهش لبطولتها الأبطال الشجَعان ، وشهد لها الأعداء .

وقد سألها أحد المسلمين : كيف حالك يا نسيبة ؟

فأجابت نسيبة : أخبرونى أولا عن الرسول . هل نجاه الله من الأعداء ؟

فأجابوا : نعم ، قد نجاه الله من كيد الأعداء .

قالت : ساعدونى كى أَمضىَ إليه لآراه بنفسى .

سألوها : لم لم تسألى عن زيد زوجك . وعن ابنيك : حبيب وعبد الله ؟

أجابت : إنى أريد أن أعرف : ماذا تم للرسول ؟

ولما أقبلت على النبى ﷺ بارك كفاحها ، ودعا لها بالشفاء، وحسن الجزاء . وقد شفيت نسيبة من جرحها .

وبعد سنوات انتقل المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وتولى أبوبكر الخلافة ، وادعى مسيلمة الكذاب النبوة بأرض اليمامة . فبعث إليه أبو بكر جيشا يحاربه ، وأرادت نسيبة أن تذهب إلى الحرب للدفاع عن دين الله . فقال لها ابنها حبيب بن زيد : أذهب أنا يا أماه ، وتبقين أنت. فشجعته على الذهاب إلى اليمامة ، لنصرة دين الحق ، فأسره مسيلمة ، وأراد منه أن يرتد عن الإسلام ، ويكفر بالله ونبيه ، فأبى ، فأخذ مسيلمة يقطعه عضوا عضوا حتى استشهد ، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين .

وعرفت نسيبة أن ابنها حبيبا استُشهد ، فأخذت سيفها وقوسها وخرجت للقتال مرة أخرى ، ومعها ابنها عبد الله بن زيد ، وأظهرت من الشجاعة والبطولة فى حرب اليمامة ما أظهرته منهما فى غزوة أُحد .

وضاق بها العدو ضيقا شديدا ، وقصدها ليأخذ ثأره منها، وقد

أصابتها ضربة بالسيف ، فقطعت ذراعها ، فنادت نسيبة ابنها عبد الله قائلة له : أنت ذراعى الآن ، فلا تترك عدو الله حتى تقتله . فأخذ عبد الله سيفها ، واتجه إلى مسيلمة الكذاب ، ولم يعد حتى قتله بسيف أمه نسيبة المؤمنة الباسلة.

ورجعت نسيبة من اليمامة بذراع واحدة بعد أن كان لها ذراعان ، وابن واحد بعد أن كان لها ابنان ، وسيف ملوث بدم مسيلمة الكذاب .

خولة الكِنْدِية تدافع دفاع الأبطال :

لبست خولة الكِنْدِية قناعا على وجهها ، وظهرت فى مظهر الفرسان ، فكانت تُرى فى وقعة «أَجنادين» بالشام كأنها بطل من الأبطال ، رأى خالد بن الوليد فارسا يقتُلُ ويطعن ، ويحسن الكرَّ والفرَّ، فتساءل : ليت شعرى من هذا الفارس المغوار ؟

وحينما هجم الروم حمل عليهم الفارس المقنَّع ، فكان يدفع كتائبهم. ويزحزح مواكبهم ، حتى ظن الجنود أنه خالد نفسه، فسألوا قائدهم عن ذلك البطل المغامر الشجاع ، ثم نادوه ، وناشدوه كشف القناع أو الحجاب عن محياه أى وجهه ، فما أحار الجواب . وما استطاع الرد .

ولما ألح عليه خالد أغمد الفارس سيفه ، وأزاح اللثام عن وجهه ، فإذا طلعته وسيمة ، تشرق بالبهاء والسناء والجمال ، وإذا الفارس من بنات حواء .

يقول لخالد : أنا خولة الكندية ، أُخت ضرار بن الأزوَر ، أتيت مع نساء العرب لنشدَّ عضدك فى الجهاد .

ولما استخلصت نفسها ونساء قومها من سرايا الروم أنشدت :

نحن بنات تُبَّع وحِمْيَرُ وضَرْبُنا فى القوم ليس يُنكرْ
لأنَّنا فى الحربِ نارٌ تُسْعَرُ اليوم تُسَقَوْنَ العذابَ الأكبرْ

وطنية الخنساء :

لقد استشهد أبناؤها الأربعة فى وقعة القادسية (وهى بلد قرب الكوفة مر بها إبراهيم عليه السلام) فقالت الحمد لله الذى شرفنى بموتهم شهداء وأرجوا أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

على أن الخنساء لم تبك فلذات كبدها ، لأن الموت خطفهم فى الحرب ، ولكن أبكاها أخوها صخر زمنا طويلا ، لأنه مات على فراشه مطعونا طعنة غادرة .

شجاعة أسماء بنت أبى بكر

جاء عبد الله بن الزبير يودع أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق قبل أن يعود للجهاد فشيعته وودعته بقولها :

«امض فى قتالك يا عبد الله ، فوالذى نفسى بيده . لأن أراك مجدَّلا صريعا فى سبيل الحق خيرٌ من أن أراك مذعنا للباطل» .

معنى : فوالذى نفسى بيده : أُقسم بالله الذى حياتى فى قدرته .

مجدَّلاً : مطروحا على الأَرض .

مذعنا : خاضعا .

فخرج عبد الله ودافع وناضل حتى استُشهِدَ .

الفصل الثانى
حقوق المرأة فى الإسلام

لقد عرفت الآن كيف كانت المرأة تعامل عند اليونان القدماء ، وعند الرومان ، وعند اليهود ، والفرس وعند الهنود . والعرب فى الجاهلية، وكيف أنقذها الإسلام ، وعاملها معاملة كلها عدل ورحمة وإنسانية وتبجيل وتوقير ، قال الرسول ﷺ «**كلكم راع . وكل راع مسئول عن رعيته . فالإمام راع ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والخادم راعٍ فى مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته**» .

فخير الخلق ﷺ جعل المرأة فى منزلة الراعية التى لها سيطرة على غيرها . ووضع مكانها بين الإمام والرجل ، ولم يضعها بين الرجل والخادم تكريما لها . وإشارة إلى شرفها .

لقد أحترم الإسلام المرأة . ووضعها فى المكانة اللائقة بها، وأعطاها كل حق لها ودعا المسلمون عائشة رضى الله عنها «بسيدة نساء أهل الجنة» فبرهنوا بهذا على أنها كانت مثلا ساميا للمرأة المسلمة فى علمها ودينها ، وصلاحها وتقواها وزهدها وعفتها ، وشجاعتها، وفى يوم أحد كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ومعها أم سليم تحملان قرب الماء . ثم تفرغانه فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغان الماء فى أفواه المسلمين . وقد

أتت بعد أم المسلمين عائشة كثيرات من المسلمات اللاتى سرن سيرتها فى علمها وخلقها وفضلها .

ولنذكر هنا الحقوق التى منحها الإسلام للمرأة :

١- تحريم وأد البنات فى الإسلام

كان العرب قبل الإسلام يئدون البنات ويدفنونهنَّ وهنَّ على قيد الحياة خوفاً من العار . فجاء الإسلام وحرَّم وأدهُنَّ وقتلَهُنَّ ، ومنحهن الحق فى الحياة . وبهذا أنصف الإسلام المرأة كل الإنصاف . وحافظ على حياتها وحقوقها الإنسانية . وقد ندد الله كل التنديد بقتل البنات وحرمانهن الحياة فى قوله جل شأنه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير : ٨، ٩] .

الموءودة : هى التى تدفن وهى حية من غير أى ذنب جنته .

وكان الرجل فى الجاهلية يئد بنته أى يدفنها حية ، ويهيل عليها التراب حتى تموت خشية العار أو الفقر ، فجاء الإسلام بتحريم ذلك تحريما قاطعا . ولهذا كانت النساء من العرب ينصرون رسول الله ﷺ، ويؤيدنه فى رسالته . ويجاهدن فى نشر الإسلام . ويسعين لنصرته ، وإعلاء كلمته .

٢- منح الإسلام المرأة الحق فى أن ترث :

كان العرب لا يعطون المرأة شيئا من الميراث ، ولا الصبيان الذين قد مات آباؤهم ولكنهم كانوا يعطون الرجل الميراث . وحجتهم فى

تخصيصهم الرجل بالعطاء أنهم هم الذين يلاقون الأعداء، ويقاتلون فى الحرب . ولكن الإسلام قد أباح للمرأة أن ترث ، ومنحها الحق فى الميراث . فتضايق العرب المحبون لأنفسهم من هذا التشريع الإسلامى الذى جعل لهن نصيبا فى الإرث بغير جدال فيه . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت الفرائضُ التى يبين الله فيها أنصبة البنت والزوجة والولد والأبوين كرهها الناس وقالوا :

تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى البنت النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم . ولا يجوز الغنيمة :

وقد قال الله فى كتابه الكريم : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء: ١١] .

والحكمة فى جعل نصيب الابن ضعف نصيب البنت أن الابن مطالب بالإنفاق على بيته وزوجته وأولاده . والمحافظة على اسم الأسرة . ولكن البنت لا تُسأل إلا عن نفسها . وزوجها مسئول عن نفقتها . فالمطالب التى يطلب بها الابن كثيرة ، والتى تطالب بها البنت محدودة . وعند الزواج يدفع الابن مهراً لعروسه .

وتتسلم البنت مهرا من خطيبها . ومن هذا يتبن أنه لا ظلم على الفتاة إذا أخذت نصف نصيب أخيها . وأن الإسلام قد أعطى البنت من الميراث حقا يناسب حالها ويغنيها عن إخوتها وأقاربها .

٣- الإنفاق على البنت :

إن الإسلام قد أَوجب على الأب أن يكفل إبنته حتى تبلغ سن الرشد، وينفق عليها حتى تتزوج . فإذا تزوجت ألزم زوجها بالإنفاق عليها . بعد أن تنتهى النفقة الواجبة لها من زوجها الذى طلقها . واذا وظفت البنت وكان راتبها يكفيها لا يطلب من الأب نفقة لها ، واذا لم يكفيها راتبها وجب على الأب أن يعطيها ما تحتاج إليه من النفقة .

وأن الأب مطالب فى الإسلام بالإنفاق على ابنه الفقير حتى يستطيع أن يعتمد على نفسه فى كسب معيشته .

٤- أخذ رأى الفتاة عند الزواج :

إذا بلغت الفتاة سن الرشد . وتقدم إليها من يريد أن يتزوجها أوجبت الشريعة الإسلامية أن يؤخذ رأيها فى الزواج. فإذا رضيت صح العقد . واذا رفضت فليس لأى إنسان أن يجبرها على التزوج بشخص لا تريده . فالفتاة المسلمة أعطيت هذا الحق فى القرن السابع الميلادى، فى حين أن الفتاة الأوربية لم تعط حق اختيار الزوج حتى أخر القرن السادس عشر . ولا يستطيع أحد أن يزوج البنت المسلمة بغير رضاها متى كانت بالغة . واذا تزوجت فليس للزوج أن يتدخل فى أموالها بغير إذنها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا تُنكح الأيمُ حتى تُستأمر ولا البكر حتى تُستأذن» .

قالوا : يارسول الله وكيف اذنها ؟
قال : أن تسكُتَ .

الأيمُ : الثيب التى لا زوج لها أو التى كانت متزوجة ثم فقدت زوجها.

والبكر : البالغة التى لم تزال بكارتها .
تُستأمر : يطلب وليها أمرها قبل أن يزوجها .
تُستأذن : يطلب إِذنها بالزواج .

فالرسول ﷺ يرشدنا إلى أنه لا يصح أن ينفرد الولىَ باختيار الزوج للأيم التى فقدت زوجها ، ولا يصح العقد عليها بدون رضاها .

فينبغى أن يكون لها رأى فى أختياره ، ولأبد من تصريحها بالإذن ولا يكفى السكوت منها .

أما البكر فيكتفى بسكوتها. ويعد سكوتها دليلا على الرضا، لأن الحياء يغلب عليها فالإسلام يعد المرأة إنسانا كامل الإرادة. كامل الاختيار . ولا حق لأحد عليها فى أن يكرهها على التزوج بمن لا ترضى به زوجا وشريكا لها فى حياتها الزوجية متى كانت عاقلة . ولابد من إذنها ورضاها . وليس لأبيها أو أخيها أن يكرهها على أن تتزوج شخصا لا ترغبه .

فالإسلام قد حرر المرأة . وأزال عنها قيود العبودية والإذلال . ومنحها نصبها من الحرية والاستقلال ، بعد أن كانت فى الجاهلية وضيعة الشأن . لا إرادة لها ولا رأى فى أى شأن من الشئون . وكان

لوليها أن يزوجها بمن يريد ، أو يعضلها أو يمنعها عن الزواج . لا رادَّ لإرادته . ولا معقب لفعله .

٥- للمرأة المسلمة الحق فى حضانة أولادها فى سن معينة :

وأجاز لها الإسلام أن تأخذ نفقة الحضانة . وأن تطلب الطلاق من زوجها اذا كان مريضا بأمراض خبيثة . واذا لم يجدد لها مهر عند الزواج أُعطيت فى الإسلام مهر المثل .

سماحة الإسلام فى المناداة بتعليم المرأة

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة :

لقد فرض طلب العلم على المرأة كما فرض على الرجل فى الإسلام، فقد سوى الدين الإسلامى بين الرجل والمرأة فى الأمور الروحية ، والواجبات الدينية ، ولم يفرق بينهما فى العلم والتعلم . قال رسول الله ﷺ :

«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» .

من غير تفرقة بينهما فى طلب العلم ، فالعلم مقدس فى الدين الإسلامى ، وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة كما بينا أكثر من مرة.

وقد كان للمرأة العربية فى الجاهلية قبل الإسلام - الحق فى العلم . وكان بين النساء كاتبات وشاعرات وناقدات يقلن الشعر على البديهة .

وحينما ظهر الإسلام بدأت الحياة العقلية تنشط وتحيا لدى العرب، وكسبت المرأة حقوقا اجتماعية لم تكن لها قبل الإسلام . فنهض التعليم بين النساء ووضّح الكتّاب والمؤرخون أسماء المسلمات المتعلمات اللآتى كان يعرفن القراءة والكتابة فى صدر الإسلام . وكانت السيدة حفصة بنت عمر زوج النبى كانت تقرأ وتكتب . وعائشة بنت سعد كانت تعرف القراءة والكتابة ، والسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق كانت تقرأ المصحف . وتعلم الكثير . قال عليه الصلاة

والسلام : «**خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء**» .

الحميراء : تصغير حمراء : البيضاء .

وقد قال فى شأنها عروة بن الزبير : «ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بطب ولا بشعر من عائشة» وقد روت عن الرسول ﷺ ألف حديث .

من النساء المسلمات النابغات الخنساء

واسمها تماضر . وهى شاعرة عرفت بجودة الشعر . وصدق الوطنية ، والوفاء والتضحية . وقد عاشت فى أيام النبى ﷺ . واعتُرف لها بالتفوق فى الشعر . وأكثر شعرها كان فى رثاء أخويها . وهما معاوية وصخر .

ألا يا صخر أن أبكيت عيني فقد أضحكتنى زمنا طويلا
إذا قبُح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

وقالت :

أعينى جُودا ولا تَجْمُدا ألا تبكيان لصخر النَّدَى
ألا تبكيان الجرىءَ الجليلَ ألا تبكيان الفتى السيِّدا ؟
إذا القوم مدُّوا بأيديهم الى المجد مدَّ إليه يدا
فنال التى فوق أيديهم الى المجد ثم انتهى مُصعِداً

وقد قابلتها السيدة عائشة زوج النبى ﷺ ، بعد موت أخيها صخر . وهى حزينة كل الحزن عليه . تسير معتمدة على عصا؛ لضعفها وكبر سنها . فسألتها عائشة : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟

فأجابت : موت أخى صخر ، فقد كان زوجى متلافا للأموال . يقامر حتى يتلف ماله . فأذهب إلى صخر . فأشكوا إليه حالنا ، فيعطينى نصف ماله . فيقامر به زوجى . فأعود إلى أخى ، وأشكو إليه ، فيقدم لى نصف ماله . وقد لامته زوجته ونصحت له أن يعطينى خمس ماله . لأن زوجى لا يبقى شيئا من المال . فلم يرض صخر بإعطائها الخمس ، بل قسم ماله قسمين ، وأعطانى أحسنهما . فلما مات صخر أصبحت كما ترين . وحق لى البكاء والرثاء ولما ذهبت الخنساء إلى رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام فأسلمت . وطلب منها أن تنشد شعرا فأنشدت . فأعجب بشعرها وهو يقول : هيه ياخنساء ، ثم انصرفت ، واستمرت تبكى أخويها . وتقص شعرها كعادة العرب فى الجاهلية . وتلبس ثوبا باليا أسود .

وذات يوم رآها سيدنا عمر بن الخطاب تطوف بالكعبة . وهى على حال محزنة فتقدم إليها ونصح لها بالصبر .

فقالت : لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به ، فكيف أتحمل آلام فراق فارسين قد فقدتهما ؟

فأجابها عمر : لو اطلعت على مصائب الناس لهان عليك الأمر . وذكر لها أن هذا النوع من الحداد بدعة من بدع الجاهلية التى حرمها الإسلام ، فسمعت نصيحته . وامتثلت أمره .

ولوطنيتها وشجاعتها إقدامها انضمت إلى الجيش العربى حينما سار لفتح بلاد الفرس . وكان معها أبناؤها الأربعة . وفى الليلة التى حدثت فيها وقعة القادسية نصحت لأبنائها قائلة :

«يابنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، فاعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا . واتقوا الله لعلكم تفلحون فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها . فيمموا وطيسها . تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة» .

فلما أقبل الصباح أسرعوا إلى مراكزهم . وتقدموا واحداً بعد آخر ينشدون شعراً وطنيا . ويذكرون وصية أمهم العجوز لهم ، حتى قتل أبناؤها الأربعة فلما عرفت الخبر قالت :

«الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم . وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته» وقد استمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعطيها ما يخص أبناؤها الأربعة إلى أن توفيت إلى رحمة الله. وصارت يضرب بها المثل فى الصبر وضيق النفس .

السيدة سكينة بنت سيدنا الحسين :

والسيدة سكينة بنت سيدنا الحسين رضى الله عنها . هى شاعرة أديبة ، عالمة بضروب الإيقاع . وسيدة الناقدين . وكان الشعراء يفدون على دارها من كل حدب وصوب للمباراة بالأشعار فى حضرتها .

عائشة بنت طلحة :

وقد خطت عائشة بنت طلحة خطوات السيدة سكينة ، فاشتهرت بنقد الشعر . واجتمع لديها الأُدباء والشعراء والرواة للمناقشة فى الأدب والشعر والرواية وأن الكتب العربية مملوءة بأسماء المسلمات

النابغات فى العلوم الدينية والأدبية والطبية وأسماء الجوارى الشهيرات فى الأدب والفنون .

وقد اشتهرت المرأة المسلمة بالصدق فى عملها . والأمانة والدقة فى روايتها ، وأخذ أفاضل العلماء بروايتها . وقد قال الحافظ الذهبى، وهو محدث عظيم .

«وما علمت من النساء من أُتهمت ، ولا من تركوها» .

ومن النساء الشهيرات فى عالم الحديث

كريمة المروزية

وكانتا من أهم راويات الأحاديث التى جمعها البخارى . وقد ذكر الحافظ بن عساكر - وهو أحد رواة الحديث . أن عدد شيوخه وأساتذته من النساء بضعا وثمانين أستاذه .

وقد سرقت مرة امرأة من قريش ، من ذوات الحسب والنسب . فعوقبت عقاب من يسرق فى عهد النبى ﷺ . فحاول أحد المسلمين أن يشفع لها ، فقال له النبى العظيم :

«أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : «يا أيها الناس ، إنما أضل من قبلكم أنهم اذا سرق الشريف تركوه، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله . لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» ففى الإسلام مساواة بين الرجل والمرأة فى الثواب والعقاب. وفى التربية والتعليم ولا يتميز الرجل عنها إلا فى أنه

مطالب بالإنفاق عليها . ورعايتها . والدفاع عنها . قال جل شأنه فى موقف المرأة : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وحينما بدأ النبى عليه الصلاة والسلام بنشر قواعد الإسلام ومبادئه نشرها بين الرجال والنساء من غير تفرقة .

تعليم المرأة فى الإسلام

إن من يدرس هذا الموضوع ، وهو : «تعليم المرأة فى الإسلام» يجد رأيين متناقضين فيه :

الرأى الأول :رأى من يقول بتعليم المرأة القرآن الكريم والدين الإسلامى ليس غير وينهى عن تعليمها الكتابة والشعر. وقد بالغ أنصار هذا الرأى . وادعوا أن المرأة ناقصة العقل والدين ، وأَن نقصهما لا يشجع على تعليمها العلوم .

وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

النساءُ ناقصات عقل ودين   ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله   تعالى من النساء نبيًّا

ومنهم القابس الفقيه القيروانى صاحب كتاب : «الفضيلة لأحوال المتعلمين» فهو لا يرى بأسا من تعليم المرأة القرآن الكريم والدين . لا الترسيل والشعر .. وإنما تتعلم ما يرجى له السلامة ، ويؤمن عليها من فتنته . وسلامتها من تعلم الخط أَنجى لها» .

وهو رأى يسىء الظن بالمرأة . ويقلل الثقة بها دون مبرر . ولا تقول به أكثرية المسلمين . وقد كان هذا الرأى من الأسباب التى أخرت البلاد الإسلامية وخاصة فى عهد الاستعمار .

الرأى الثانى : رأى من ينادى بتعليم المرأة من المسلمين. وهو رأى سديد . يستمد قوة عظيمة من استناده الى أحاديث نبوية تشجع على تعليم المرأة ، منها الحديث الذى ذكرناه فى بدء الموضوع ، وهو «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» وقوله ﷺ **«وأيما رجل كانت عنده وليدة (أى أمة) فعلمها . فأحسن تعلميها . وأدبها وأحسن تأديبها. ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»** .

الرسول حث على تعليم أزواجه الكتابة

وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام على تعليم أزواجه الكتابة . فقال للشفاء العدوية . وقد كانت تجيد القراءة والكتابة فى الجاهلية . «ألا تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتيها الكتابة ؟» وقد انتصر الرأى القائل بتعليم المرأة المسلمة القراءة والكتابة حتى وصلت المرأة المسلمة إلى أسمى درجات العلم والأدب والثقافة . ونالت أكبر قسط من التربية والتعليم فى العصور الذهبية للإسلام . فكان من النساء المسلمات الكاتبة . والشاعرة . والطبيبة . والقاضية والأستاذة. والمدرسة . ولم يستطع المترددون الوقوف فى سبيل تعليمها إلا فى البلاد المحتلة النامية ، ففى تلك البلاد حرمت المرأة العلم والنور . وتركت فى دارها جاهلة لا تقرأ أو لا تكتب . وفى كتب الأدب العربى

والسير والتاريخ الإسلامى عدد كبير من النساء المسلمات الشهيرات . نذكر منهن بعض الفضليات من المؤمنات الصالحات فى العصور الذهبية الإسلامية .

بعض الفضليات من المسلمات

فى القرون الإسلامية السته الأولى كان بعض الفضليات من المسلمات يعقدون مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة ، ويحكمن بين العلماء والأدباء فإذا ما شبت الحرب خرجن يشحذن همم الرجال. ويواسين الجراحى.

ويثنين على الشجعان . ولنذكر هنا بعض الأمثلة . للسيدات المسلمات فى عصور العظمة الإسلامية .

١- السيدة خديجة

كانت السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها . أول من شجع النبى ﷺ وقد قاسمته فى جهوده . وأعانته بالعطف والرأى والمال . وكانت من أكبر أنصاره على المشركين الذين سخروا منه .

فقد قالت له ﷺ «أبشر : فوالله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم . وتحمل الكل . وتكسب المعدوم . وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الحق» .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى وأحسن الثناء عليها . فغرت يوما وقلت: ما أكثر ما

تذكرها ، حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها فقال :

«ما أبدلنى الله خيرا منها . قد آمنت بى اذ كفر الناس . وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس . ورزقنى أولادها إذ حرمنى أولاد النساء» .

٢- السيدة عائشة

السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وزوجة الرسول الأمين . كانت سيدة مثالية للمسلمة العربية . ولها أثر كبير فى الفقه الإسلامى. والحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين ، كان يرجع لها فى الأحاديث النبوية . قال رسول الله ﷺ «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» وكانت السيدة عائشة عالمة أديبة شاعرة خطيبة ، من أعلم الناس وأفقههم ، وأحسنهم رأيا . وقد وصفها عروة بن الزبير فقال :

ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن . ولا بفقه . ولا بشعر . ولا بحديث من عائشة» ولها خطب رائعة . وكان معاوية يقول : لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشة . رضى الله عنها .

٣- السيدة فاطمة الزهراء

السيدة فاطمة الزهراء ، بنت المصطفى صلى الله عليه وسلم . أدبها الرسول فأحسن تأديبها . ورباها فأحسن تربيتها . فكانت آية فى الفضيلة والعلم . تزوجت على بن أبى طالب . كرم الله وجهه . وهى أم سيدنا الحسن والحسين رضى الله عنهما . وهما سيدا شباب

العرب ، كانت لا تهمل شئون بيتها ، فإذا ما فرغت منه وأدت الفرائض جمعت الصحابة . وأخذت تنثر فيهم الحكم الثمينة ، والنصائح الغالية، وتحثهم على الفضائل . وكانت ذات عقل راجح . وعلم غزير . ونفس عالية . تجيد الشعر . ولها قصائد جميلة، وتعرف أحكام الفقه والشريعة ، وقد روت كثيرًا من الأحاديث النبوية ، ولها إلمام بالتاريخ ودراية بحل المشكلات . وكانت تشابه الرسول ﷺ فى كلامها .

٤- السيدة سكينة بنت الحسين :

السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما . كانت جوهرة فريدة بين النساء وآية زمانها فى العلم والأدب . كاملة الأخلاق . محبة للعلم، تجلس مع العلماء والأتقياء . وتشاركهم فى كثير من العلوم والآداب والفنون . وكانت دارها مثابة للعلماء والأُدباء . وقد اشتهرت بالنقد الصائب فى الشعر العربى . وفى الكرم والفضائل على الشعراء .

وكانت أوفر نساء عصرها ذكاء . وحضور بديهة . والتف حولها الشعراء والعظماء من قريش . وكانت من أحسن الأدباء شعراً . وقد عرفت بأدبها العالى . وعلمها الغزير وذوقها الجميل فى النقد الأدبى . تقول الحق . ولا تخشى لومة لائم .

٥- السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد :

زبيدة زوجة هارون الرشيد . بطلة مسلمة . وأميرة هاشمية. كانت لها مكانة عظيمة فى عصرها . لأخلاقها النبيلة . وأعمالها الجليلة . وفضائلها الكثيرة . فهى التى أمدت مكة بالماء الصالح للشرب من

العين التى عرفت باسمها . وهى عين زبيدة . وهى التى أمرت ببناء أسكندرونة بعد أن دمرها البيزنطيون وكانت تقرض الشعر الجيد . ولها آراء صائبة فى السياسة والحروب .

وهى ابنة جعفر بن جعفر المنصور . عميد الدولة العباسية. أحبها جدها كل الحب . وعنى بتربيتها كل العناية . وعلمها القراءة والكتابة وشجعها على حفظ الأخبار والسير والشعر . فنشأت مولعة بالشعر . محبة الأدب . حتى كانت تزين حيطان حجرتها بالسجف والستائر الموشاة بالأبيات الجميلة من الشعر البديع . وابنها «محمد الأمين» عاشت مع زوجها هارون الرشيد فى قصر «دار القرار» على شاطئ نهر دجلة . وكان من بين جواريها مائة جارية يعرفن القراءة والكتابة . وقول الشعر . يحفظن القرآن الكريم ويقرأنه ليلا .

تمسكت الأميرة زبيدة بالإسلام . وكانت تحب أن تسمع القرآن الكريم من جواريها اللاتى يحفظنه .

ولصفاتها النبيلة وعقلها الراجح . وذهنها الحاضر . وأخلاقها النبيلة كان هارون الرشيد يستشيرها فى كل عمل يعمله ويحبوا حبًّا جمًّا .

كانت محبة للخير . بارة للفقراء . محسنة إلى المساكين . ولها أثر كبير فى إنشاء المدارس والمكاتب والمستشفيات والملاجئ والمساجد والمنازل والمشارب . وقد توفيت وسنها تسع وستون سنة ببغداد فى جمادى الأولى سنة ١١٦ هجريا .

٦- شهدة فخر النساء

شهدة الملقبة بفخر النساء فى القرن الخامس الهجرى . كانت تلقى دروسا فى الأدب والتاريخ فى جامع بغداد على الجمهور . وكان لها منزلة علمية كبيرة فى التاريخ الإسلامى . ولهذا كان يحضر دروسها كثيرة من العلماء والفضلاء .

فهى كاتبة بغدادية . عالمة محدثة عابدة . صادقة فى رواية الأحاديث وكانت تجيد الخط . ولها رسائل فى الحديث والفقه والتوحيد .

٧- الخيزران

ومن السيدات المسلمات البارات البارزات الخيزران امرأة المهدى الخليفة الثالث من بنى العباس وكانت من العجائب فى عقلها وذكائها . وكياستها وشجاعتها . يقف ببابها الوزراء والعلماء والشعراء.

٨- بوران

بُوران زوجة المأمون المسلمة الفارسية . لم تقعد بها فارسيتها . فقد جمعت بين الكرامة الإسلامية . والكياسة الفارسية وعرفت بالذكاء وحسن التصرف . وأقامت فى بغداد المدارس والمستشفيات .

٩- قطر الندى

ومن الشهيرات فى الإسلام قطر النَّدى زوجة المعتضد بالله. وأم المكتفى . كانت عالمة فذة . خبيرة بالشريعة الإسلامية والقضاء .

فقامت بالوصاية على ابنها المقتدر . قبل أن يبلغ سن الرشد . وأدارت الأحكام . وقضت بنفسها بين الناس . وأحاط بها كثيرون وكثيرات من الشعراء . والشواعر والأدباء والأديبات . وكانت تجتمع بالنساء النابغات للمناقشات فى الموضوعات العلمية والأدبية . ومطارحة الأسئلة الكثيرة . وأصبح العقد والحل بيدها . وكانت تقابل الوزراء والسفراء بنفسها . وتنظر فى المظالم . وتوقع على الأحكام بخطها وباسمها .

١٠- شجرة الدر

شجرة الدر عصمة الدين . زوجة نجم الدين أيوب . قد أدارت بنفسها رحى الحرب على ملك فرنسا . سان لويس ، بعد موت زوجها بالمنصورة . واعترف لها الناس بأنها مليكة مصر . وقد عرفت بالذكاء النادر . والذهن الحاضر . وحب القراءة والكتابة . وهى أول امرأة مسلمة تقلدت الملك . وحكمت بمهارة وحسن دراية .

١١- السيدة مهر النساء

وقد رَقِيَ الأمير سليم عرش فارس فتزوج السيدة مهر النساء . وكانت تتقن اللغتين : العربية والفارسية . وآدابهما . ولها علم واسع ودراية تامة بالموسيقا . وكانت موفقة فى عملها . تمرض الجند . وتستقبل الأمراء والحكام . وقد حدث مرة أن زوجها وقع أسيرا فى بعض الحروب . فقامت على رأس الجنود . فاستخلصته من قبضة الأعداء . وكانت تربى اليتامى واليتيمات وتعطف عليهم وتزوجهم .

وكانت ملجأ المظلومين ، وملاذ المعدمين . وكان زوجها الأمير سليم يدعوها «نور القصر» وكان الشعب يدعوها «نورجهان» أى نور الدنيا . وكانت تأمر بالخطبة فى المساجد . وتحدد الضرائب وتنظر فى أموال البلاد يوميا. وقد كتب اسمها على النقود إلى جانب اسم زوجها . وقد أنشأت بعض المدارس والمستشفيات والمطاعم . وأصدرت قانون يمنع الهنود من دفن النساء وهن على قيد الحياة مع أزواجهن عند موتهم .

١٢- علية بنت المهدى

علية بنت المهدى : وهى المعروفة بالعباسية . هى ابنة هارون الرشيد . وكان أبوها يكرمها كل الإكرام . ولا يمكنه أن يفارقها . وكانت تحضر مع (زبيدة) زوجة أبيها فى مجلس الرشيد فى أثناء المقابلات الرسمية ، والمحاضرات التى يجمع فيها مع العلماء والأُدباء . وهى شاعرة معروفة بالنبوغ الشعرى . والذكاء الفطرى . والمعانى الرقيقة والعبارة الجذلة. والأدب الرائع . ولها ديوان من الشعر .

١٣- عائشة بنت أحمد بن قادم

عائشة بنت أحمد بن قادم . قد نشأت بقرطبة . ولم يكن فى زمانها فى الأندلس من يماثلها . فى علمها وأدبها وفهمها. وفصاحتها وعلمها . وكانت تجيد كتابة الخط . وتكتب المصاحف القرآنية ، وتجمع الكتب الثمينة فى خزانتها ودارها. وقد توفيت سنة ٤٠٠هـ .

١٤- ولادة

وَلّادة بنت الخليفة المستكفى بالله : وهى أديبة شاعرة : ناظرت الأَدباء والشعراء . وكان قصرها منتدى متسعا . يأوى اليه رجال الأدب والشعر والوزراء والعلماء والقضاة .

١٥- لبنى

هى الكاتبة فى ديوان الخليفة الحكم بن عبد الرحمن . المجيدة للكتابة . الشاعرة العالمة بالنحو . المتينة فى الحساب والعلم . وقد توفيت سنة ٣٩٢هـ.

١٦- فضل

هى جارية تعلمت فنون الأدب والشعر والغناء . وقد اشتريت وأهديت إلى الخليفة المتوكل . وعرفت بالذكاء . وحضور البديهة . والنبوغ فى الشعر الغنائى . الذى يحتاج إلى رقة الطبع . والعاطفة . وقوة التأثير . وقد ظهرت فى عصر تميز بفحول الشعر كالبحترى وابن الرومى . وعلى بن الجهم . فلم تقصر عن هؤلاء جميعا .

١٧- الطبيبة زينب

قد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتاب (طبقات الأطباء) إلى طبيبتين مسلمتين درستَا الطب . واشتغلتا به . منهما الطبيبة زينب طبيبة بنى أود التى عرفت بعلاج أمراض العيون .

وكانت النساء المسلمات يقمن فى الحروب الإسلامية بمداواة

الجرحى وخدمتهم ومعاونتهم . كما تعمل سيدات الهلال الأحمر والصليب الأحمر فى الحروب اليوم .

روى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله فى نسوة من بنى غفار . وهو سائر الى غزوة خيبر . فقلن : يارسول الله قد أردنا أن نخرج معك . فنداوى الجرحى . ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال : على بركة الله .

وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ . فنسقى القوم ونخدمهم . ونداوى الجرحى . ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة.

١٨- الطبيبة أم الحسن

ومن الطبيبات المسلمات أيضا : أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى . وقد كانت طبيبة مبرزة شهيرة فى الطب . كثيرة الاطلاع . وأجادت علوما كثيرة مع الطب . وأخت الحفيد بن زهرة وابنتها كانتا عالمتين بالطب والمداواة . ولهما خبرة كبيرة بعلاج أمراض النساء .

(طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة جـ٢ صـ٧٠ .

١٩- امرأة تتولى القضاء فى العصر العباسى .

وفى العصر العباسى . فى عهد الخليفة المقتدر . أشارت كتب التاريخ إلى امرأة مسلمة ، تولت القضاء . واطمأن الناس إلى عدالتها فى الحكم . واعترفوا بفضلها ومقدرتها القضائية .

اشتغال النساء المسلمات بالسياسة

ومع أن الميدان السياسى صعب . وليس سهلا . نجد بين المسلمات نساء اشتغلن بالسياسة . وناصرن طائفة على أخرى. معتمدات على فصاحتهن وعاطفتهن المؤثرة . وبديهتهن الحاضرة ومقدرتهن الخطابية الملتهبة كما حدث وقت القتال بين على ومعاوية . فقد ناصرت نساء كثيرات عليا . مثل هند بنت أبى يزيد الأنصارية . والزرقاء بنت عدى بنت قيس . وأم الخير البارقية وقد أعجب معاوية بن أبى سفيان بالنساء اللاتى خاصمنه . وخطبن ضده . فبعث وطلب بعض الخطيبات منهن ، لمناقشتهن . ومعرفة ما عسى أن يقلن عنه بعد أن قتل على . وتولى معاوية الخلافة .

وفى العصور التى تلت عصر معاوية لعبت الخيزران وشجرة الدر دورا كبيرا فى سياسة الدولة الإسلامية .

حظ المرأة المسلمة من التعليم العالى :

ومما سبق يتبين لنا أن المرأة المسلمة لم تكتف بالدراسة وتحصيل العلم . ولكنها انتفعت بعلمها وذكائها . وذوقها الأدبى . ونشاطها العقلى . فى النواحى التى اشتغلت بها كالأدب والسياسة . والإجتماع . والطب . والقضاء والتدريس. ولكن عدد المشتغلات بمهنة التعليم من المسلمات كان أكثر ممن اشتغلن بالمهن الأخرى . كما هو حدث الآن .

وكان العلماء من الرجال يقومون بالتدريس للنساء . وكانت النساء يقمن بالتدريس للرجال .

وقد اعترف بعض العلماء والأُدباء بفضل النساء المسلمات ، فقد ذكر ابن خلكان أن أُم المؤيد زينب بنت الشعرى كانت عالمة. أخذت العلم عن كبار العلماء . وروته عنهم . ومنحوها إجازة علمية أدبية . وقال إنها منحته إجازة كتبتها له فى سنة ٦١٠هـ وقد قيل أن طرفة بنت عبد العزيز بنت موسى قد تلقت العلم عن العلماء المشهورين فى عصرها بالأندلس . وأخذت عنهم كثيرا من كتبهم . وقد كانت متزوجة . وسمح لها زوجها بتدريس هذه الكتب لطلبتها . وكان من النساء مدرسات منقطعات لتدريس العلوم الدينية للنساء.

الإسلام اعترف بحق البنات فى التعلم

والحق أن الإسلام قد اعترف بحق البنات فى التعلم ، إلى أقصى حدود العلم . إن كان للعلم نهاية وحدود . فتعلمت البنت التعليم الابتدائى . واستمرت فى التعليم وطلب العلم . حتى وصلت إلى التعليم العالى . فدرست المرأة المسلمة الأدب والدين والطب ، واشتغلت بالقضاء . واشتركت فى الشئون السياسية . وبلغت كثيرات منهن منزلة علمية رفيعة ، فكان منهن الأستاذات والمدرسات للإمام الشافعى . وابن خلكان . وأبى حيان . وجميعهم من الفقهاء والعلماء والأدباء المشهورين. ويكفيهن هذا فخراً بين النساء فى جميع الأديان . وهذا أكبر دليل على ما تمتاز به التربية الإسلامية من الحرية فى التعلم . (والديمقراطية) فى التعلم واليقظة الروحية فى الإسلام .

وكان من النساء المسلمات الأديبات والكاتبات . والشاعرات والخطيبات والفقيهات والطبيبات . والقاضيات والسياسيات.

قال ﷺ : « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهنّ ، وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة البتة البتة» .

ولا ريب أن من الإحسان إليهن تربيتهن تربية دينية وعلمية عملية ومنزلية وخلقية . وفى الأندلس بلغت المرأة المسلمة الأوج ، وحلت الذروة قال (فون كريمر) :

«أن العرب كانوا مفطورين على احترام النساء فى قرطبة . ومنها . أى قرطبة . تعلم الأوروبيون احترام السيدات» .

فالإسلام قد أنصف المرأة كل الإنصاف ومنحها من الحقوق ما لم تمنحه المرأة الغربية . والمرأة المسلمة كانت مكانتها سامية فى العصور الإسلامية الأُولى ، عصور العظمة فى الإسلام . وقد وقف التقدم وعُدْنا إلى القهقرى فى العصور الاستعمارية المظلمة . فرجعت المرأة إلى الوراء . لأن الاحتلال قد حرمها العلم والتعلم . لأنه تحكم فى التعليم فى البلاد الإسلامية . وحكم عليها بالجهل والأُمية مدة طويلة . فلا عيب فى الإسلام . ولكن العيب فى الاستعمار . فقد أوجب الإسلام على الرجل والمرأة أن يتعلما ويطلبا العلم .

قال رسول الله ﷺ : **«طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»** فإذا أراد المسلمون فى جميع البلاد الإسلامية استرداد عظمتهم القديمة . وتاريخهم المجيد فعليهم أن ينهضوا بتثقيف البنات المسلمات. وتربيتهن تربية إسلامية مثالية . حتى يصلن إلى المستوى العلمى الذى كانت تتمتع به المرأة المسلمة فى عصور العظمة الإسلامية

المرأة المسلمة اليوم :

فى العهود الاستعمارية الغابرة كانت المرأة المسلمة منكودة الحظ . تعسة الجد . مهملة فى التربية والتعليم . مقيدة بالأغلال التى تعوقُ حركتها الحرة . أما اليوم فقد اعترف بمساواة المرأة بالرجل . وصارت عضوا عاملا فى الحياة . وقد وصلت بعلمها وأدبها . ومجهودها إلى كل ما وصل اليه الرجل . وأخذت نصيبها من التعليم الخلقى والدينى والمدنى . والتدبير المنزلى . والعلم بتربية الأطفال . وأقبلت على التعليم الجامعى كل الإقبال . فى جميع الكليات . وأصبح لدينا والحمد لله مدرسات لجميع المواد الأدبية والعلمية والرياضية والفنية فى المدارس الثانوية للبنات ولدينا طبيبات ماهرات فى كثير من فروع الطب ، ومهندسات فى فروع الهندسة . ومحاميات قديرات . ومدرسات فى الكليات الجامعية لتدريس كل مادة من المواد . وكاتبات وشاعرات . وقد برهنت المرأة المسلمة على أنها لا تنقص عن الأوروبية أو الأمريكية شيئا اذا أعطيت الفرصة .

وقد فتحت أمامها جميع المعاهد العلمية . ومعظم الوظائف الحكومية . وأعطتها الدول الإسلامية الناهضة حقوقها . وساوتها بالرجل . وأعطتها الحق فى الانتخاب وعضوية مجلس الأمة . وأعتقد أن المرأة المسلمة تستطيع أن تشارك الأن بعمق وإيجابية فى صنع الحياة . وتكون الأسرة المثقفة المهذبة . والنهوض بأطفال اليوم ليكونوا من خيرة الرجال غدا .

وإنى أرجو أن يأتى اليوم الذى تشرق فيه الشمس فى الأُمة الإسلامية كلها فى جميع البلاد . وفتياتها جميعهن متعلمات مثقفات مهذبات . فى المدن والقرى . كى يستطعن القيام بالواجب نحو أبنائِهن وبناتهن وأزواجهن وأنفسهن ووطنهن . وانى أقصد بالتعليم التربية التى تؤدى الى الفضيلة والرقى والكمال فى كل ناحية من نواحى الحياة .

يعتقد بعض الناس أن البيت هو مكان المرأة . ولكن ماذا تفعل اذا كان لديها أخوات كثيرات لم يتزوجن هل يقضين حياتهن متعطلات أو يتعلمن كى يستطعن القيام بواجبهن نحو أنفسهن ونحو الأمة . ولا يكن كلاً على أب قد يكون فقيرا .

وفى عهد الاحتلال كانت مدارس البنات قليلة جداً . وكانت الأُمهات جاهلات . ونسبة الوفيات بين الأطفال كبيرة . وأمراض العيون منتشرة . والتربية الصحيحة مهملة فى طور الطفولة . ولكن بعد أن أنشئت مدارس البنات . وتعلمت الفتيات المسلمات ارتفع المستوى الصحى فى الأسرة . ونظمت شئون البيت ، وروعيت العادات الصحية فى البيوت . بسبب تعلم الزوجات والأمهات.

وإن المرأة المسلمة اليوم لم تتعلم العلوم الابتدائية . فحسب، بل شاركت الرجل فى كل علم من العلوم . وكل فن من الفنون. وكل عمل من الأعمال من هذا كله يتضح كل الوضوح أن لا صحة للرأى المنتشر يين المتعصبين من الغربيين بأن جهل المرأة المسلمة راجع إلى أسباب دينية . وتقاليد إسلامية ، فالإسلام دين علم ونور . لا دين جهل

وظلمة. وقد أوجب العلم على كل مسلم ومسلمة . ولكن روح التعصب هى التى نشرت هذه الفكرة الخاطئة فى الإسلام .

وأن من يقلب الصفحات الماضية للمرأة المسلمة سيجد فيها صورا للعظمة الروحية . والعناية بالقيم المعنوية التى يرمز اليها تعليم المرأة فى عصر الحضارة الإسلامية . فللنساء المسلمات ماض مجيد تستطيع المرأة المسلمة اليوم أن تفخر به . وتبنى فوقه لنفسها مجدا علميا وجدا روحيا .

المعارضون لتعليم البنات

وإنى أسأل من يعارض فى تعليم البنات : ماذا تفعل الفتاة اذا تركت غير متزوجة ولا أخ لها ولا معين ولا نصير ؟

ماذا تفعل اذا توفى عنها زوجها وترك معها كثيرا من الأطفال الصغار ، ولا مال يقوم بتربيتهم أو معيشتهم ؟

ماذا تفعل إذا ترك لها زوجها فتيات لم يتزوجن ، وليس لديها من يقوم بالنفقة عليهن ؟

هل يتركن كَلاً على تلك الأُم المسكينة العاجزة عن الكسب ، التى قسا عليها الدهر ، أو يتعلمن من الصغر العلم الذى يناسبهن ، والحرفة التى يملن اليها حتى اذا تركت الواحدة منهن من غير زواج . أو طلقت أو مات عنها زوجها . أو مات أبوها أمكنها أن تعتمد على نفسها ، وتكسب عيشتها من وسيلة شريفة هى العمل والاعتماد على النفس . والأمن من عرق الجبين ؟

وأيهما أشرف : العلم أَم الجهل ، والكسب من عمل شريف أم من عمل دنئٍ . والاعتماد على نفسك أم على غيرك ؟

ليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار فى تعليم الفتاة المسلمة التعليم الذى يمكنها من كسب عيشتها . والاعتماد على نفسها إذا ابتليت بيوم أسود ، أو أصيبت بفقر أو فقد زوج أو أب . أمن العيب أن تجعل المرأة حية بالعلم . قادرة على العمل ؟

هل العار فى العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف أو الإستجداء من الناس والالتجاء إلى وسائل غير شريفة ؟

ماذا تستطيع المرأة الفقيرة أن تفعل اذا تركت وحولها ستة أطفال؟ حصنوا الفتاة بالعلم ، والتمسك بالدين والتربية الروحية . ولا تقبروها بالجهل وهى حية . احفظوها من الخرافات العتيقة . لقد منحها الإسلام حقوقها كاملة فافتحوا سبل التعليم أمامها . وشجعوها على إتمام دراستها . حتى تعد نفسها للحياة . فإن المرأة اذا تعلمت استطاعت أن تقوم بكل ما يقوم به الرجل . وإن الأُمة التى يعم فيها التعليم البنين والبنات إذا حاربت أَمة تنكر تعليم البنات كانت تحارب بيدين، أما الثانية تحارب بيد واحدة . والنصر للأُولى من غير شك .

أيها المسلمون علموا بناتكم :

الحق الذى لا شك فيه أننا لسنا فى حاجة الى ذكر الفوائد التى تقود على الأمة الإسلامية الكبرى من تعليم البنات وتربيتهن تربية كاملة . تربية خلقية ودينية وعلمية ووطنية ، فقد مضى الوقت الذى

كان يعد فيه تعليم المرأة عاراً . وإننا ننتظر من كل أَب مسلم في كل بلد إسلامى ، أن يقوم خير قيام بتربية أبنائه وبناته من غير تفرقة ، لأننا إذا قمنا بتعليم الابن فالتعليم لا يتعدى فردا واحدا . ولكننا إذا ربينا البنت فكأننا قمنا بتربية أَسرة كاملة وتثقيفها ، لأن بنت اليوم أم فى المستقبل . تقوم بتربية أبنائها وبناتها وتهذيبهم . ولو ألقينا نظرة واحدة على التاريخ لوجدنا للأُمهات فضلا كبيرا فى تكوين العظماء والأُدباء والعلماء والقادة من الأبناء .

واعتقد أنه قد مضى العهد الذى كانت فيه المرأة المسلمة منكودة الحظ ، مهضومة الحق . مهملة فى التعليم . ولا ينكر أحد من المسلمين اليوم فضل تعليم البنت وتربيتها تربية حقة.

وإنى أقصد بالتعليم النوع الذى يؤدى الى الفضيلة والرقى والكمال. فى كل ناحية من نواحى الحياة . وليس هناك مضرة ولا منقصة ولا عار فى تعليم الفتاة المسلمة التعليم الذى يمكنها من كسب عيشها . والاعتماد على نفسها اذا ابتليت بيوم أسود . أو أصيبت بفقر . أو فقد زوج أو أب . أمن العيب أن تجعل المرأة حية بالعلم . قادرة على العمل ؟

هل العار فى العمل والقدرة على كسب العيش من طريق شريف أو فى الاستجداء من الناس . والالتجاء إلى وسائل غير شريفة ؟

ماذا تستطيع المرأة المسلمة أن تفعل اذا تركت وحولها أطفال لا دخل لهم ولا معاش ولا معين ؟

فيا أيها المسلمون ، علموا بناتكم . ولا تعطلوا نصف الأُمة

الإسلامية ؛ فمحال أن ترقى مادام نصفها الذى يقوم بالتربية المنزلية متعطلا جاهلا . لا يعرف عن الحياة شيئا . ساعدوا البنات بالتربية الكاملة . ورقوها بالعلم والتعليم واحترموها . فما هى إلا مخلوق مثلكم، ولا تتركوها جاهلة مهمَلة . فكروا دائما فى تربية بناتكم كما تفكرون فى تربية أبنائكم .

إن المرأة ضعيفة القوة البدنية . فقووها بالعلم وحسن الخلق، ولا تقبروها بالجهل وهى حية . افتحوا كل سبل التعليم أمامها ؛ فإن المرأة اذا تعلمت استطاعت أن تكون معلمة وأستاذة . وناظرة. ومفتشة. وطبيبة للنساء والأطفال . والعيون والأمراض الباطنية . والأمراض النفسية والعصبية . وجراحة الأَعصاب والأذن والأنف والحنجرة . والأَسنان . وممرضة للمرضى . ومربية وكاتبة ، ومؤلفة وباحثة . وعالمة . ومهندسة معمارية . ومحامية وقاضية . واستيقظوا من سباتكم إن كنتم نائمين .

ورحم الله حافظ إبراهيم إذ قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأَعراق

ورحم الله شوقى حيث قال :

واذا النساء نشأن فى أُمية رضع الرجال جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتم هو الذى تلقى له أُما تخلت أو أبا مشغولا

وليس الذكاء مقصورا على الأبناء . أو خاصاً بالبنات . بل هو شركة بين النوعين . ومن النقص أن توجه العناية إلى نوع ويهمل الآخر . ومن الحكمة أن ننتفع بذكاء البنات فى دائرة حياتهن ، كما ننتفع بذكاء البنين ، حتى نجد شعبا مسلما كاملا . جمع بين الحسنين ينهض ببلاده الإسلامية . ويعيد إليها تراثها الخالد . فى عصورها الذهبية .

الاختلاط الأُسرى

فى تشريع القرآن للأسرة ما يرشدنا إلى أن تزوار الأُسرة مشروع . وأن قيام النساء بالواجبات الاجتماعية مباح .

ففى البخارى فى (باب عيادة النساء بالرجل) أن أم الدرداء عادت رجلا مريضا من الأنصار فى المسجد . وأن عائشة ـ رضى الله عنها ـ عادت بلالا ـ وهو مريض ـ قبل نزول آية الحجاب الخاصة بنساء الرسول ﷺ .

ولا يعنى هذا إباحة المجالسة بين الرجال والنساء على النحو الذى شاع فى كثير من المجالس والنوادى حاسرات ومتبرجات . وإنما أباح الإسلام الاختلاط غير المحرم . وفى المجالس التى تفيد والتى لا تؤدى إلى الفساد والضلال .

فالزيارات واللقاءات العائلية الملتزمة لا شىء فيها والمحظور أن تتخذ هذه اللقاءات وسيلة لدخول الرجال والشباب بيوت الغير دون استئذان أو فى غيبة الأزواج منعا للخلوة غير الشرعية .

واختلاط البنين والبنات بعد البلوغ أمر غير مشروع ، بل يرقى إلى درجة المحظور سدا للذرائع إلى الفساد . ولا سيما في سن المراهقة التي تتغلب فيها الرغبات الجامحة على العقل . وفي ظل انعدام الالتزام بآداب الإسلام في الملابس . وفي الحديث والمخالطة .

سورة النور فصلت آداب الزيارات :

لنسمع قوله سبحانه وتعالى ونعمل به : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور: ٢٧ - ٢٩] .

فأية حصانة وحماية للبيوت بعد هذه الأوامر الإلهية التي صانت الحرمات وحفظت الأسرار . ولننظر في حرص الرسول ﷺ على تعليم المسلمين هذه الآداب حين سأله رجل - بعد نزول هذه الآيات «قال : أستأذن على أمي ؟ قال : نعم: قال الرجل : ليس لها خادم غيري أستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : الرسول ﷺ أتحب أن تراها عريانة : قال الرجل : لا . قال الرسول ﷺ فاستأذن عليها» . رواه الإمام مالك في الموطأ . هذه آداب يجب أن نحرص عليها وأن يحرص عليها أولادنا

زى المرأة

آيتـان فى القـرآن الكريم حـددتـا مـا يـجب أن تكون عليـه المرأة اذا خرجت من بيتها او أستقبلت غير زوجها ومحارمها .

إحـداهمـا فـى (سـورة الأحـزاب) قـال الله تعـالـى فـى كـتـابه الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

[الأحزاب : ٥٩]

هيا بنا إلى تفسير هذه الآية من سورة الأحزاب مع الجامع لأحكام القرآن الكريم (القرطبي) فيه ست مسائل :

الأولى ـ قـوله تعـالـى : (قل لأزواجك) قـال قتـادة : مـات رسـول الله ﷺ عن تسع ، خمس من قـريش عـائشة ، وحـفصة ، وأم حـبيبة ، وسـودة ، وأم سلمـة ، وثلاث مـن سـائر الـعـرب مـيـمـونة ، وزيـنـب بنت جـحـش ، وجويرية . وواحدة من بنى هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبى ﷺ أولاد ذكور وأناث .

فـالذكـور من أولاده : القـاسم ، أُمـة خـديجـة . وبه كـان يُكنى ﷺ . وهو أول من مـات مـن أولاده . وعـاش سـنتـين . وقـال عـروة : ولدت خـديجـة للنبـى ﷺ القـاسم والطاهر وعـبد الله والطيب . وقـال أبو بكر الفـرقى : ويقـال أن الطاهر هو الطيب وهو عـبـد الله . وإبـراهيم أُمـه مـارية القبطية . ولد فـى ذى الحجـة سنة ثمـان من الهجـرة . وتوفـى ابن

ستة عشر شهرا . وقيل ثمانية عشر . ذكره الدارقطنى . ودفن بالبقيع. وقال ﷺ «إن له مرضعا تُتم رضاعه فى الجنة» وجميع أولاد النبى ﷺ من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا فى حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهن فاطمة الزهراء بنت خديجة . ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوة بخمس سنين ، وهى أصغر بناته . وتزوجها على رضى الله عنهما فى السنة الثانية من الهجرة فى رمضان . وبنى بها فى ذى الحجة . وقيل تزوجها فى رجب . وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بقليل وهى أول من لحقه من أهل بيته رضى الله عنها .

ومنهن زينب . أمها خديجة – تزوجها ابن خالتها أبو العاصى بن الربيع . وكانت أم العاصى هالة بنت خويلد أخت خديجة . واسم أبو العاصى لَقيط ، وقيل هاشم . وقيل هشيم. وقيل مقسم . وكانت أكبر بنات رسول الله ﷺ . وتوفيت سنة ثمان من الهجرة . ونزل رسول الله ﷺ فى قبرها .

ومنهن رقية . أمها خديجة . تزوجها عتبة بن أبى لهب قبل النبوة ، فلما بعث رسول الله ﷺ وأنزل عليه «تبت يد أبى لهب» قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته ، ففارقها ولم يكن بنى بها . وأسلمت حين أسلمت أُمها خديجة . وبايعت رسول الله ﷺ هى وأخواتها حين بايعهُ النساء . وتزوجها عثمان بن عفان ، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوجها عثمان :

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين . وكانت قد أسقطت من عثمان سقطا . ثم ولدت بعد ذلك عبد الله . وكان عثمان يكنى به فى الإسلام . وبلغ ست سنين فنقره ديك فى وجهه فمات ولم تلد له شيئا بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله ﷺ يتجهز إلى بدر فخلف عثمان عليها . فتوفيت ورسول الله ﷺ ببدر على رأس سبعة عشر شهرا من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيرا من بدر . فدخل المدينة حين سُوِّى التراب على رقية . ولم يشهد دفنها رسول الله ﷺ .

ومنهن : أم كلثوم - أمها خديجة - تزوجها عتيبة بن أَبى لهب - أخو عتبة . قبل النبوة وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور فى أمر رقية . ولم يكن دخل بها . فلم تزل بمكة مع رسول الله ﷺ . وأسلمت حين أسلمت أمها . وبايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء . وهاجرت إلى المدينة حين هاجر الرسول ﷺ . فلما توفيت رقية تزوجها عثمان . وبذلك سمى ذا النُّورَين . وتوفيت فى حياة النبى ﷺ فى شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله ﷺ على قبرها ونزل فى حفرتها على والفضل وأُسامة . وذكر الزبير بن بكار أَن أكبر ولد النبى ﷺ : القاسم . ثم زينب . ثم عبد الله . وكان يقال له الطيب أو الطاهر .

وولد بعد النبوة ومات صغيرا . ثم أم كلثوم . ثم فاطمة ، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله .

الثانية : لما كانت عادة العربيات التبذل وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء ، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن ، وتشعب الفكر فيهن . أمر الله رسول الله ﷺ أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حَوائجهن .

الثالثة : قوله تعالى ﴿من جلابيبهن﴾ الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وبن مسعود أنه الرداء وقد قيل : أنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذى يستر جميع البدن . وفى صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يارسول الله ، أحدنا لا يكون له جلباب ؟ قال «لتلبسها أختها من جلبابها» .

الرابعة : واختلف الناس فى صورة إرخائه . فقال ابن عباس وعبيدة السلمانى : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها . وقال ابن عباس أيضا وقتادة. ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأَنف . وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .

الخامسة : أمر الله سبحانه وتعالى جميع النساء بالستر . وأن ذلك لا يكون إلا بما يوصف جلدها ، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت . لأن له أن يستمتع بها كيف يشاء ، ثبت أن النبى ﷺ استيقظ ليلة فقال سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رُبَّ كاسية فى الدنيا عاريةٌ فى الآخرة . وبت عن النبى ﷺ أنه قال «نساء كاسيات عاريات مائلات

مميلات رُوءسهن مثل أسمنة البُخت . لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» .

السادسة : قوله تعالى ﴿ذلك أدنى أن يعرفن﴾ أى الحرائر حتى لا يختلطن بالإماء . فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية . فتنقطع الأطماع عنهن . وليس المعنى أن تُعْرفَ المرأة حتى تُعلم من هى «وكان الله غفورا رحيما» تأنيس للنساء فى ترك الجلابيب قبل هذا الأمر مشروع .

وقال تعالى فى سورة النور : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١] .

آيتان فى القرآن الكريم حددتا ما يجب أن تكون عليه المرأة إذا خرجت من بيتها أو استقبلت غير زوجها إحداهما فى سورة الأحزاب والآية والأخرى فى سورة النور .

والجلابيب واحدها جلباب . وهو ما يلبس فوق غيره من الملابس ليستر ما تحته . وهاتان الآيتان متكاملتان ، وقد حددتا ما يجب أن ترتديه المرأة بحيث يحجب جسدها كله فلا ينكشف من المرأة الملتزمة

إلا الوجه . وهو من منبت الشعر إلى أسفل الذقن . وما بين شحمتى الأذنين بحيث لا يظهر شىء من الشعر ولا القراط (الحلق ولا الأذن) ولا شىء من العنق . ولا يكون الثوب مظهرا لما تحته . ولا ضيقا وصافا يفصل أجزاء الجسد . ولا لافتا للنظر بلون . أو تفصيل يسترعى أنظار الآخرين . ويدخل فى حكم التبرج المنهى عنه فى القرآن الكريم. فالمطلوب من المرأة . بمقتضى هاتين الآيتين . أَن تُغَطى رأسها ورقبتها وصدرها وأن يكون ثوبها ساترا لجميع جسدها . فلا يرى منه إلا الوجه والكفان.

هذا هو زى المرأة المقر فى القرآن الكريم . ولقد فسر الرسول ﷺ قول الله سبحانه وتعالى فى آية سورة النور «إلا ما ظهر منها» قال : الوجه والكفان .

النقاب : وهو (ما تضعه بعض النساء على الوجه) غير لازم كما يدل على ذلك حديث أسماء رضى الله عنها . حين دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثوب رقيق يظهر ما تحته فأعرض عنها . وقال : يأسماء : إن المرأة اذا بلغت المحيض لا يصلح . أو لا يحل أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه ﷺ . رواه أبو داود .

ولو كانت تغطية الوجه من الواجبات . لأمرها بذلك الرسول ﷺ ولكن مقتضى الحديث أنه ليس لازما . بل يحل كشفه .

ولقد اتفق الفقهاء أخذاً من الواقعات الكثيرة الواردة فى السنة على أن للمرأة أن تبدى وجهها فى الصلاة . ولو رآه الغرباء .

فما تفعله بعض السيدات والبنات من تغطية الوجه من باب المغالاة فى الدين . هو عمل شخصى وليس بحكم شرعى .

واذا أجاز الإسلام للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها . فإنه ليس مقتضيا أن تبالغ فى استعمال الألوان والأصباغ والظلال لتثير الناس . وتستلفت الأنظار إليها فإن كل ذلك وما يفعله كثير من النساء الآن . يدخل فى باب المحظور .

وإنما المباح مما ظهر من الزينة ما لا يستلفت الأنظار . ولا يثير الغرائز ولا يشوه المنظر . ولا يغير خلق الله . وإلا كان محرما قولا واحدا وإن جرت به العادة أو المألوف بين الناس .

المصافحة بين المرأة وغير محارمها

لما قدم رسول الله ﷺ من (الحديبية) عام ست من الهجرة جمع النساء الأنصار وأرسل اليهن عمر بن الخطاب للمبايعة . فتلا عمر عليهن آية المبايعة من سورة الممتحنة . فقلن : نعم. فمد عمر يده خارج الباب . ومدت النساء المبايعات أيديهن من داخل . ثم قال : اللهم أشهد. وقد وضع عمر يده فى أيديهن مبايعا . وبلا حائل وعمر هو عمر . غيرة وورعا وشدة.. وقد أخرج هذه الواقعة الأئمة أحمد والبيهقى وابن خزيمة وابن حبان .

أما أن الرسول لم يبايع النساء بيده . أو لم يسلم على أمرأة أجنبية فتلك من خصوصياته كالوصال فى الصوم .

ومن ثم فعدم المصفاحة بين بعض الرجال والنساء يدخل فى باب التورع الشخصى وليس محرما ، اذ لم يرد نص محرم حاسم .

ذلك بيان لواقع المصفاحة باليد لمجرد المصافحة . أما ما يفعله بعض الناس من الإمساك بيد امرأة أجنبية بحجة المصافحة والتسليم فذلك يدخل فى باب المحظور سداً للذرائع والإثارة ..

ويتطرق بنا الحديث إلى بيان حكم اللمس . وهل ينقض الوضوء ؟

فى فقه الإمام الشافعى :

أن لمس المرأة غير المحرم للرجل (كالأُم والبنت والأخت والخالة والعمة والجدة) ناقض للوضوء . فلمس الرجل يد زوجته . أو جزء من جسدها مباشرة ناقض لوضوئهما .

وفى فقه المالكية والحنابلة :

أن اللمس بشهوة ناقض للوضوء . والإ فلا ينقض .

وفى الفقه الحنفى :

أن لمس المرأة زوجة أو غيرها لا ينقض الوضوء . ويفسرون (أو لامستم النساء) بالتعامل بين الزوجين .

وأدلة الفقه الحنفى فى هذا أرجح وأقوى . وما انتهى اليه هذا الفقه أيسر على الناس .

هل قدم المرأة عورة يجب سترها ؟

الفقه المالكى والحنفى

يقرران أن القدم ليست من العورة بالنسبة للمرأة لآثار وردت صحيحة عند فقهاء المذهبين .

ويرى غيرهم : أنها عورة لما يدل عليه قول الله تعالى . فى آية سورة النور : ﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١].

وعلى أى حال فإن الأولى ستر القدم ، لأن الساق والقدم غالبا ما تكون ملفتة للنظر . ومدعاة للفتنة .

صوت المرأة وهل يعتبر عورة ؟

يجرى على الألسنة دائما أن صوت المرأة عورة . وهذا القول على عمومه وإطلاقه لا يستند إلى دليل صحيح فى الإسلام .

وإنما الصحيح والمنقول . أن النساء على عهد الرسول ﷺ كن يحدثن الرجال ويسألن الرسول فى أمور الدين . ويتقاضين أمامه ويذهبن إلى الأسواق . ويمارسن نشاطهن . متحدثات ومجادلات . وكان منهن راويات للحديث إلى الرجال. وشاعرات . وفقيهات ولم ينه الرسول ﷺ ولا أحد من أصحابه النساء عن مجرد الحديث مع الرجال فالقول بأن صوت المرأة عورة بإطلاق لا سند له . وإنما يصبح كذلك إذا صاحب الحديث تكسر وطراوة وتدليل وتكلف على الوجه الذى نهى عنه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٣٢].

أى فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال . وتخرجن عن المألوف فى المحادثة من الكلام العف والحسن دون لين أو تكسر . فالحديث مع الرجال الأجانب غير الحديث مع الأزواج وليس هذا عدم ثقة بالنساء . وإنما حماية لهن ممن لا خلاق لهم من الرجال .

ومن ثم فإنه محظور شرعا على المرأة أن تحادث الرجال الأجانب بطريقة تغريهم بها ، بل ينبغى أن يكون حديثها مستقيما لا لين فيه حتى لا يطمع فيها من كان فى قلبه مرض وغرض

عمل المرأة خارج بيتها :-

إن الإسلام قد كفل للمرأة : زوجا وأما وأختا وبنتا أن يعولها الرجل، ويقوم على كافة ما يلزمها من نفقات . وفرغها لمهمة عظمى يعجز عنها الرجل تلك هى تربية الإنسان .

الإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ليعمرها . ولتزدهر به كانت الأم له منبته . تحمله كرها . وتضعه كرها . ثم تقوم على إرضاعه وفطامه .

وبين يديها يتعلم الحديث ، ويدرك ما حوله . ويتعلم الأسماء كلها . فمهمتها أكبر من أن تشغل عنها . أو تقارن بغيرها . أو تقابل بمال وليس معنى هذا أننا نرى منع المرأة من العمل خارج بيتها ولكننا نقول: أن المرأة تعمل إذا احتاجت العمل . أو احتاجها العمل .

فالعمل خارج البيت للمرأة ليس ترفا ولا مهنة . وإنما حاجة وضرورة فإذا استغنت المرأة بمال أبيها أو زوجها وكسبه كان قيامها

بمهمتها الأولى تربية الإنسان . وهى مهمتها وهى حاجتها . وهى كل أملها ووظيفتها .

وللنظر فى واقعنا . وكيف خلا البيت من الأب والأم بانشغالهما . وكيف صار حال الأولاد فى التعليم والأخلاق . وكيف اختلط عليهم أمور الحياة حيث تخلى عنهم الرقيب الموجه . ولنقارن بين كسب المال دون ضرورة أو حاجة . وخسارة الأولاد . وانتقاص تربيتهم بتركهم فى فراغ مفسد . وبين قرناء يجرونهم إلى ما لا تحمد عقباه . والحوادث المنشورة فى هذا أشهر من أن تحصى أو تذكر والمستور منها أكثر .

إن على كل أسرة أن تراجع موقفها . وأن تعرف أن صناعة الإنسان (الأولاد) أعلى وأغلى صناعة وأن الأم ألزم وأقدر . وأنه إذا لم يكن بالأُسرة ضرورة أو حاجة لكسبها من عملها فأولى بها ثم أولى أن ترعى زرعها لتنعم . وتقر عينا بثماره . ليست هذه دعوة للتخلى - بوجه عام - عن العمل . وإنما هى دعوة للمراجعة والمفاضلة بين الكسب والخسارة ككل تجارة . إذ يقبل كل تاجر على البضاعة الرابحة وليس أربح من أن تتاجر الأُم وتنمى جزءها أولادها أكبادها تمشى على الأرض .

الإسلام أنصف المرأة الإنصاف كله

وبعد أن أصاب المرأة ما أصابها من الظلم والبغى والاستعباد جاء الإسلام . فأنصفها الإنصاف كله . وأزال عنها ما لحقها من ظلم . وحررها من العبودية . وعاملها معاملة كلها إنسانية. ورفع مكانتها .

وأعلى منزلتها . وأعطاها حقوقها كاملة لا نقص فيها ودافع عن حياتها وحريتها وكرامتها . وعوملت بالعدل والقسطاس المستقيم كما يعامل الإنسان الحر الكريم . فى أرقى العصور مدنية وحضارة .

فالإسلام أنقذ المرأة من كل المظالم . وعاملها معاملة كلها إنصاف . واحترام ومكانة وإجلال . ولم تُعطَ المرأة حقوقها . وهى بنت أو زوجة أو أم إلا فى الإسلام . فأعطيت الحق فى الحياة . والحق فى الميراث . والحق فى التملك . والحق فى التعليم . منذ أربعة عشر قرنا تقريبا .

ولم يعترف الغرب بحقوق المرأة إلا فى القرن التاسع وعشر بعد جهاد طويل مرير .

وقد كان نصيب المرأة العربية من الحرية فى الجاهلية أكثر منه لدى الإغريق قال (بيِرّن) : «لم تكن النساء فى الجاهلية تعسات ، فكن يرافقن المحاربين إلى ميدان القتال . كى يُثِرْنَ فيهم الحميَّة والشجاعة والبطولة وكان الفرسان ينزلون ميدان الوغى . وهم يتغنون بذكر أخواتهم . وزوجاتهم ومحبوباتهم . وكان أعجاب محبوباتهم بهم خير مكافأة يطمعون فيها . وكان كرم الخلق والشجاعة من أسمى مكارم الرجل . كما كان العفاف أحسن حلية تتزين بها المرأة».

وقد رُوى أن عبد الله بن مروان كان جالسا على المائدة . فعلم أن فتاة عربية تشكو ذل الأسر عند الرومان . وتقول «النجدة ياعبد الملك» فأقسم ألا يقرب لذائذ الحياة حتى ينقذ الفتاة من أسرها . وقد بَرَّ بيمينه .

الرد على المتعصبين الذين يدَّعون أن الإسلام لم ينصف المرأة :

وعجيب جدا أن يدَّعى المرجفون والمتعصبون وذوو الأهواء أن الإسلام ظلم المرأة ولم ينصفها . وسلبها حقوقها . ولم يضعها فى الدرجة التى تليق بها . ولو نظر هؤلاء بعين الحق والعدالة البعيدة عن الأغراض . إلى ما ورد فى القرآن الكريم. والأحاديث النبوية . وسيرة الخلفاء الراشدين . والسلف الصالح من المسلمين . لأقروا وأعترفوا بغير تردد أن الإسلام قد أنصف المرأة الإنصاف كله . وأعطاها حقوقها كاملة . وجعلها فى مكانة عالية . ومنزلة سامية ، بعد أن كانت تباع وتشترى وتملك فى أوروبة . وتعد رجسا من عمل الشيطان عند الإغريق القدماء ومتاعا يورث فى الجاهلية عند العرب . ولا يعرف لها قدرٌ بين الفرس . وتحتقر فى مصر أيام الفراعنة . وتحبس فى الصين قديما ، وتجعل خادما عند اليهود . وفى سنة ٥٨٦ ميلادية قد عقد اجتماع فى فرنسا لبحث هذا الموضوع :

هل المرأة تعد إنسانا أو غير إنسان ؟

وبعد نقاش طويل . وجدال عنيف . قرر المجتمعون أنها إنسان . ولكنها خلقت لشىء واحد وهو أن تخدم الرجل فحسب . وبهذا القرار جعلوها بمثابة خادم . فى حين أن الإسلام قد منح المرأة حقوقها . ووضح لها واجباتها . وكلفها القيام بها . وجعلها مساوية للرجل فى

المجتمع الإنسانى وفى المعاملات المالية . وفى طلب العلم . ورفع منزلتها ، ودافع عنها . وطالب بإنصافها .

ورأفة بها . وتقديرا لمكانتها كلف الرجل أن ينفق عليها . ويقوم بمطالبها . ويحافظ عليها ويدفع لها مهراً حينما يتزوجها .

قال رسول الله ﷺ : «أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى اليها حقها . خدَعها فمات . ولم يؤد حقَّها. لقى الله يوم القيامة وهو زان» فالإسلام قد أنصف المرأة . وأعطاها حقوقها . وعمل على صيانة شرفها . والمحافظة على كرامتها وإذا كان للوالدين أبناء وبنات فالإسلام يوجب على الأب الإنفاق على أولاده ولا يكلف الأم شيئا من النفقة . مهما تكن غنية .

وللمرأة المسلمة المتزوجة الحرية فى أن تتصرف فى ثروتها – كما تريد – فى حدود القانون فلها الحق فى أن تبيع ما تشاء . وتشترى ما تريد . وتودع ما لها فى المصرف الذى تختاره باسمها . وتحتفظ بما لها ودخلها لنفسها . ولا دخل لزوجها فى ثروتها المالية . وإذا توفى زوجها كان لها نصيب فى تركته.

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ [النساء : ١٢].

وللزوجة الحرية فى أن تتعاقد مع من تريد . دون تدخل من أبيها أو زوجها . وقد أجاز الدين الإسلامى للمرأة أن تتملك . وتكون وكيلة من غيرها . وتطلب رزقها . وتوظف فى العمل الذى تختاره لنفسها .

وتتصرف فى ثروتها . كما يتصرف أخوها وأبوها وزوجها قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء : ١٢٤] .

نقيرا : هو الموضع المنخفض فى ظهر نواة التمرة .

وقال جل شأنه فى كتابه الكريم : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل : ٩٧] .

وقال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

(بعضكم من بعض) أى أن الذكر والأُنثى من جنس واحد ، فلا تفاضل بينهما إلا بالتقوى والعمل الصالح .

من هذا كله يتضح كل الوضوح أن الإسلام قد أنصف المرأة كل الإنصاف . ورأف بها كل الرأفة . وعطف عليها كل العطف. ولم يهضمها حقا من حقوقها . سواء كانت بنتا أم كانت زوجة . أم كانت أُما .

هذا ما نادى به الإسلام ، فى حين أن القانون الرومانى قد ورد فيه:

«المرأة ليست أهلا للتصرف مدة حياتها كالطفل . ويجب أن يوكل أمرها لرب الأسرة» فهى تعد فى نظر القانون كالقاصر طوال حياتها .

وجاء في القانون الفرنسي أن «المرأة ليست أهلا للتعاقد بدون رضا زوجها وإجازته» أي موافقته .

فالمرأة فى القوانين الوضعية لا تملك التصرف لنفسها . فى حين أن الإسلام يعطيها حق التصرف فيما تملك بالبيع والشراء والرهن كالرجل .

لقد أنصف الإسلام المرأة . وأعطاها حقوقها كاملة . وحافظ على كرامتها . وأنزلها المنزلة الكريمة اللائقة بها ، ووقف بجانبها . ودافع عنها . وأزال كل ما لحقها من ظلم وقسوة فأبدت المرأة الدعوة إلى الإسلام بكل ما فى وسعها وطاقتها . واشتركت مع الرجال فى الغزوات بسيفها وقوسها . وشجعت المحاربين . وعالجت الجرحى . وضمدت جراحهم وواست المرضى . وقدمت لهم الطعام والشراب .

انظر إلى ما فعلته أحدى المسلمات من بنى دينار . وقد قتل أبوها وأخوها وزوجها فى غزوة أحد . وبلغها الخبر . فلم تفكر إذ ذاك إلا فى السؤال عن الرسول ﷺ . وقالت ماذا فعل رسول الله ؟

قالوا خيرا . هو بحمد الله كما تريدين .

فقالت : أرونى رسول الله كى أنظر إليه . وأطمئن عليه . فلما رأته حمدت الله حمدا كثيرا .

وقالت : كل مصيبة بعدك جلل يارسول الله .

جلل : أى صغيرة هينة .

فالإسلام أكرم المرأة وعاملها معاملة عزيزة كريمة . ومنحها الحقوق والواجبات ما منح الرجل . منحها حقوقا لم تمنحها من قبل فى أى دين من الديانات . أو أى دولة من الدول . وأباح لها الجهاد والعمل . وكسب العيش . ومساعدة الزوج . وكل ما ينادى به الإسلام هو أن تحافظ على نفسها . ولا تتبرج فى ملابسها . حتى تكون معززة وقورة. كريمة مصونة.

الفصل الثالث

مكانة الأمهات ومنزلتهن في الإسلام

لقد أشاد الإسلام بحقوق الأُمهات . فقال المصطفى ﷺ : «الجنة تحت أقدام الأُمهات» .

وقد روى أَنس رضى الله عنه . أن شاباً على عهد رسول الله يسمى علقمة ، مرض واشتد مرضه . فقيل له . قل لا إله إلا الله . فلم ينطق لسانه . فأخبر بذلك النبى ﷺ فقال : هل له أبوان ؟

فقيل : مات أبوه ، وله أم كبيرة .

فأرسل إليها الرسول . فجاءت . فسألها عن حال ابنها . فقالت : كان يصلى كذا وكذا وكان يصوم كذا وكذا . وكان يتصدق بجملة دراهم ما ندرى وزنها ولاعددها .

قال الرسول . فما حالك وحاله ؟

قالت : أنا عليه ساخطة واجدة (غاضبة) .

قال لها المصطفى : ولم ذلك ؟

قالت : كان يؤثر عليَّ (يفضَّل) امرأته . ويطيعها فى كل شىء.

فقال رسول الله ﷺ . «سخط أمه فحجب لسانه عن شهادة لا إله إلا الله» ثم قال لبلال . «انطلق واجمع حطباً كثيراً حتى أحرقه بالنار».

فقالت : يارسول الله . ابنى وثمرة فؤادى تحرقه بالنار بين يديَّ . وكيف يحتمل قلبى ذلك ؟

فقال الرسول ﷺ : «يسرُّكِ أن يغفر الله له فارضى عنه . فوالذى نفس بيده. لا ينتفع بصلاته . ولا بصدقته . ولا بصومه . ما دمت عليه ساخطة» .

فرفعت يدها وقالت : أُشهد الله تعالى فى سمائه . وأنت يارسول الله . ومن حضر . أنى قد رضيت عنه .

فقال الرسول ﷺ «انطلق يابلال . فانظر . هل يستطيع علقمة أن يقول لا إله إلا الله ؟

فلعل أُمه تكلمت بما ليس فى قلبها . حياء من رسول الله .

فانطلق بلال . فلما انتهى إلى الباب سمع علقمة يقول . لا إله إلا الله .

ومات من يومه .

فانظر كيف أثر فيها المصطفى ﷺ ، بعلمه النفسى الإلَهى. وحكمته الصائبة ، حتى جعلها راضية عنه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ .

فقال : يارسول الله . من أحق الناس بحسن صحابتى ؟
قال أُمُّك ؟
قال ثم من ؟ قال أُمُّك ؟
قال ثم من ؟ قال أُمُّك ؟

قال ثم من ؟ قال أَبُوك ؟ . رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(اللؤلؤ والمرجان جـ٣ ١٦٥٢) ومن هذا الحديث الشريف يمكننا أن نستدل على أن الأُم فى الإسلام مفضلة على الأَب .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت أُمى وهى مشركة فى عهد قريش ومدتهم ؛ إذ عاهدوا النبى ﷺ مع أَبيها .

فاستفتيت النبى ﷺ . فقلت : إن أُمى قدمت . وهى راغبة أفأصلها؟

قال ﷺ : «نعم صلى أُمَّكِ» متفق عليه عن أسماء . اللؤلؤ والمرجان (٥٨٧) فالرسول ﷺ . رسول الرحمة . يأمرها أن تصل أمها . مع أن الأم مشركة لا تدين بالإسلام .

ويؤخذ من الحديث مشروعية صلة الوالد المشرك .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على بر الوالدين . والإحسان إليهما والعطف عليهما وحسن معاملتهما . واحترامهما . وتبجيلهما . والإنفاق عليهما . ثم تخص الأم بالاعتزاز والتكريم . يذكرها مرة أخرى فى بعض الآيات . لما تحملته من مشقة الحمل . وألم الوضع وتعب الرضاع والفطام. وسهر الليالى فى العناية بأولادها . وتمريضهم وتربيتهم وتغذيتهم . والتفكير فيهم ليلاً ونهاراً والتضحية بصحتها فى سبيلهم . وحرمان نفسها من أجلهم .

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ

أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [**الأحقاف** : ١٥] .

(حملته أُمه كرها) حملته أُمه حملا فيه مشقة وتعب .

(ووضعته كرها) وضعته وضعا فيه مشقة وآلام .

(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهرا ثم يفطم .

(بلغ أشدهُ) بلغ غاية القوة الجسمية والعقلية .

(أوزعني) رغبنى وألهمنى .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [**لقمان** : ١٤] .

﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ ضعفا يزداد على ضعف كلما تقدم الحمل.

(وفصاله) وفطامه من الرضاع .

(أن اشكر لى) أى ألهمناه أن الشكر واجب .

(إلىَّ المصير) إليَّ المرجع .

فالله يوصى الإنسان بوالديه عامة . وأمهُ خاصة . ويأمره بشكره وشكر والديه . ويحذره بأن مصيره ومرجعه إليه جل شأنه .

ويبين الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

(وقضي) حكم وأمر .

(أُف) كلمة تضجر .

(ولا تنهرهما) ولا تزجرهما مطلقا .

(واخفض لهما جناح الذل) تواضع كل التواضع فى معاملتهما .

وقال جل شأنه : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

فبعد الأمر بالعبادة . والنهى عن الشرك بالله . أمر الله بالإحسان إلى الوالدين وبرهما ، أى عمل كل وسيلة لراحتهما . وتحقيق رغبتهما . وإجابة مطالبهما . والعمل على رضائهما .

وقال رسول الله ﷺ : (إن الله حرم عليكم عقوق الأُمهات . ووأد البنات . ومنع وهات . وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال).

(عقوق الأُمهات) إيذاؤهن وعدم القيام بحقوقهن.

(ووأد البنات) دفنهن وهن على قيد الحياة .

(ومنع وهات) منع ما أمر الله بإعطائه . وطلب ما لا يستحقه ومعنى هذا الحديث أن الله حرم على المسلمين :

١- عقوق الأُمهات ، وعدم القيام بما يجب لهن من الحقوق والطاعة . والمعونة والنفقة والقول الجميل . والبعد عما يؤلمهن أو يغضبهن أو يضايقهن . أو يكون سببا فى سخطهن فكثيرا ما قاست الأم فى سبيل ابنها . وكثيراً ما سهرت لينام. وتعبت ليستريح . وشقيت ليكون سعيدا . وجاعت لتطعمه . وآثرته وفضلته على نفسها . وإن أسعد وقت لديها هو الوقت الذى تراه مبتسما مسرورا . صحيح الجسم . ذكى العقل . حسن الخلق . فصيح اللسان ناجحا فى دراسته. موفقا فى حياته . وهى دائما على إستعداد لأن تغذيه بكل ما تملكه من غال ورخيص . وهى دائما تتألم إذا بكى . وتحزن إذا مرض . وتقلق إذا شكا . وتسر اذا فاز فى عمله . فهل ينسى الابن حسن صنيعها ؟ وهل يجحد جميلها أو ينكر معروفها ؟ .

٢- وحرم وأد البنات . وهن متمتعات بالحياة . وقد كان العرب فى الجاهلية يفعلون ذلك خوفا من الفقر حينا . وخشية من جلب العار عليهم فى يوم من الأيام .

٣- وحرم منع وهات . والمقصود بهما البخلُ بالمال عما أوجبته الشريعة الإسلامية من الزكاة والصدقة ومساعدة المحتاجين . وإغاثة المستغيثين وطمعَ الإنسان فيما لا يستحقه ؛ كأن يطلب أجراً لشىء لم يعمله . أو زيادة فى مال لا يستحقه .

٤- وحرم قيل وقال . أى حرم تتبع أخبار الناس . والتحدث بها . وإظهار أسرارها فتنشأ العداوة والبغضاء . وينتشر الأذى والفساد .

٥- وحرم كثرة السؤال . ومد اليد . وإراقة ماء الوجه . وإذلال النفس .

٦- وإضاعة المال فى إنفاقه فى أشياء محرمة تغضب الله. كالإنفاق فى شرب الخمر والملاذ والرياء . والملق والمظاهر الكاذبة .

فالإسلام أمر ببر الوالدين . واعترف بفضل الآباء والأُمهات فى تربية أَولادهم . والعمل للنهوض بهم . ولكنه جعل للأُم المنزلة الأولى . وللأب المنزلة الثانية . لهذا يجب أن نعنى بتربية البنات أكثر من العناية بتربية الأبناء . فنحن إذا ربينا البنات استطعن أن ينشئن شعبا مثاليا نبيلا فى خُلقه . قويا فى جسمه ، سديداً فى تفكيره . صادقا فى قوله . أمينا فى عمله ، محبا لوطنه . ومخلصا لبلاده ، شجاعاً فى الحق . متمسكا بالفضيلة ، مجتنبا للرذيلة .

ولله در شاعر النيل المرحوم حافظ ابراهيم حيث قال :

الأُمُّ مدرسةٌ اذا أعَددْتَها   أعددتَ شعباً طيِّبَ الأَعراقِ

والحق الذى لا شك فيه أن الإسلام قد دافع عن الأم دفاعاً مجيداً. ورفع شأنها . وأعطاها كل حقوقها . وجعلها فى موضع الإجلال والتقدير . والتبجيل والتوقير بين أعضاء الأسرة المسلمة .

فللأم مكانة كبيرة . ومنزلة عظيمة فى الإسلام .

وفى الشريعة الإسلامية ترث الأم ابنها إذا مات . كى تأمن الحاجة وهى كبيرة السن . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم: ﴿ ولأبويه لِكُلِّ واحدٍ منْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإن لَّمْ

يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ .

[النساء: ١١]

فالإسلام قد أعطى للمرأة حقوقها . وهى بنت أو زوجة أو أم . ووضعها فى المنزلة الكريمة اللائقة بها . ولا أبالغ إذا قلت إنها لن تعطى حقوقها كاملة إلا فى الإسلام . دين الله . دين رب العالمين . دين الرحمن الرحيم . وفى الخطبة الأولى للرسول ﷺ فى التاسع من ذى الحجة فى السنة العاشرة من الهجرة . والثامن من مارس ٦٢٢ ميلادية قال رسول الله ﷺ :

«أَيُّها الناسُ . إنَّ لنسائكمُ عليكم حقاً . ولكم عليهن حق : أَلاَّ يُوطِئْنَ فُرشَكم غيرَكُمْ . ولا يُدْخِلْنَ أَحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . ولاَ يأتِينَ بفَاحشةٍ فإنَ فَعَلْنَ فإنَّ الله قد أَذنَ لكم أن تَعضُلوهُن وَتهجُروهُنَّ فى المضَاجعِ ، وتضربُوهنَّ ضرباً غَير مُبَرّح . فإن انتهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فعليكم رزقُهنَ وكِسَوتُهنَّ بالمعروف، إنما النساء عندكم عوان لا يَمْلِكْنَ لأَنْفُسهنَّ شيئاً . أخذتَموهُنَّ بأمانَةِ الله . واستحللتم فروجهَنَّ بكلمةِ الله . فاتَّقُوا الله فى النساء واستَوصُوا بهِنَّ خَيراً» .

فمن حقوق الرجال على النساء ألا يسمحن بأن ينام غيركم فى فراشكم . ولا يدخلن أحداً من أعدائكم بيوتكم . ولا يأتين بعمل قبيح تكرهونه . فإن فعلن فان الله قد سمح لكم أن تمنعوهن من الزواج . وتهجروهن أثناء النوم بإعطاء ظهوركم لهن وتضربوهن بسواك ونحوه ضربا خفيفا بعيدا عن الوجه. بعد الوعظ والنصح ثم الهجر فإن

انتهين وأطعنكم ووافقنكم . وجب الإنفاق عليهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء ضعيفات لا يملكن لأنفسهن شيئا . وقد أؤتمنتم عليهن بالزواج فأحسنوا معاملتهن . واخشوا الله وخافوه . واحذروا عقابه اذا أساءتم إليهن . وما أجمل قول الرسول ﷺ :

(فاتقوا الله فى النساء . واستوصوا بهن خيراً) .

ويروى البزَّار أن رجلا كان بالطواف حاملاً أُمه يطوف بها . فسأل النبى ﷺ : هل أديت حقها قال : «لا ولا بزفرة واحدة» .. أى من زفرات الطلق والوضع نحوها . رواه البزار جـ٢ رقم ١٨٧٢ . وقال لا نعلمه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

وبرَّها يعنى : إحسان عشرتها . وتوقيرها . وخفض الجناح لها . وطاعتها فى غير المعصية . والتماس رضاها فى كل أمر. حتى الجهاد . إذا كان فرض كفاية لا يجوز إلا بإذنها . فإن برها ضرب من الجهاد جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال . يارسول الله . أردت أن أغزو . وقد جئت أستشيرك .

فقال : «هل لك من أم» ؟ قال : نعم . قال : «فالزمها فإن الجنَّة عند رجليها» . رواه النسائي : ٦/ ١١ . وابن ماجه ٢٧٨/١ . والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ١٥١/٤ عن معاوية .

وكانت بعض الشرائع تهمل قرابة الأُم . ولا تجعل لها اعتباراً . فجاء الإسلام يوصى بالأخوال والخالات كما أوصى بالأعمام والعمات.

أتى النبى ﷺ رجل فقال : إنى أذنبت . فَهل لى من توبة ؟ فقال :

«هل لك من أُم» ؟ قال : لا . قال : «فهل لك من خالة» ؟ قال : نعم . قال : «فبرَّها»؟

رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٥) . وابن حبان في الإحسان (٤٣٥) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ٥٥/٤ كلهم عن ابن عمر .

ومن عجيب ما جاء به فى الإسلام أنه أمر ببر الأُم وإن كانت مشركة .

ومن رعاية الإسلام للأمومة وحقها وعواطفها أنه جعل الأُم المطلقة أحق بحضانة أولادها . وأولى بهم من الأَب .

روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن امرأة قالت : يارسول الله . إنَّ ابنى هذا كان بطنى له وعاءً وثدى له سقاء . وحجرى له حِواء . وإن أباه طلقنى . وأراد أن ينتزعه منى . فقال لها النبى ﷺ : «أنتِ أحق به ما لم تنكحي» رواه أحمد فى المسند (٦٧٠٧) إسناده صحيح .

وقرابة الأم أولى من قرابة الأب فى باب الحضانة . والأُم التى عنى بها الإسلام كل هذه العناية . وقرر لها كل هذه الحقوق عليها واجب أن تحسن تربية أبنائها فتغرس فيهم الفضائل . وتبغضهم فى الرذائل . وتعودهم طاعة الله . وتشجعهم على نصرة الحق . ولا تثبطهم عن الجهاد . استجابة لعاطفة الأمومة فى صدرها . بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة ، ولقد رأينا أما مؤمنة كالخنساء . فى معركة القادسية تحرض بنيها الأربعة . وتوصيهم بالإقدام والثبات فى كلمات

بليغة رائعة . وما أن انتهت المعركة حتى نُعُوا إليها جميعا . فما ولولت ولا صاحت بل قالت فى رضاً ويقين : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى سبيله ...

أُمهات خالدات

ومن توجيهات القرآن : أنه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة فارغة لأُمهات صالحات كان لهنَّ أثر ومكان فى تاريخ الإيمان .

فأم موسى تستجيب إلى وحى الله وإلهامه . وتلقى ولدها وفلذة كبدها فى اليمِّ ، مطمئنة إلى وعد ربها : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص : ٧] .

وأم مريم التى نذرت ما فى بطنها محرراً لله ، خالصا من كل شرك أو عبودية لغيره ، داعية الله أن يتقبل منها نذرها ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

فلما كان المولود أنثى . على غير ما كانت تتوقع . لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها . سائلة الله أن يحفظها من كل سوء ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى . جعلها القرآن آية فى الطهر والقنوت لله . والتصديق بكلماته ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم : ١٢] .

المرأة زوجة

كـانت بعض الديانات والمذاهب تعـتـبـر المرأة رجسـا من عـمل الشيطان. يجب الفرار منه واللجوءُ إلى حياة التبتل والرهبنة.

وبعضها الآخر كان يعتبرها الزوجة مجرد آلة متاع للرجل أو طاهٍ لطعامه . أو خادم لمنزله . فجاء الإسلام ليعلن بطلان الرهبانية وينهى عن التبتل ، ويحث على الزواج . ويعتبر الزوجية آية من آيات الله فى الكون : قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم: ٢١].

وحين أراد جماعة من الصحابة أن يتبتلوا وينقطعوا للعبادة: صائمين النهار قائمين الليل . معتزلين للنساء . أنكر عليهم النبى ﷺ ذلك قائلا :

«أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى لأخشاكم لله . وأتقاكم له. لكن أصوم وأفطر . وأقوم وأرقد وأتزوج النساء . فمن رغب عن سُنَّتى فليس مني» رواه البخارى ومسلم عن أنس .

وجعل الإسلام الزوجة الصالحة للرجل أفضل ثروة يكتنزها من دنياه . بعد الإيمان بالله وتقواه. وعدَّها أحد أسباب السعادة . وفى الحديث : أن النبى ﷺ قال لعمر : «ألا أخبرك بخير ما يكتنز المرء ؟ المرأة الصالحة . إذا نظر إليها سرَّته . واذا أمرها أطاعته . وإذا غاب عنها حفظته» رواه أبو داود عن ابن عباس فى الزكاة جـ٢/١٦٦٤ .

وقال عليه الصلاة والسلام : «الدنيا متاعٌ . وخير متاعها المرأة الصالحة» رواه مسلم عن عبد الله بن عمر وقال ﷺ : «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه . فليتق الله فى الشطر الثاني» رواه الحاكم وصححه عن أنس .

وقال ﷺ : «من سعادة ابن آدم ثلاثة ، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة . من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة . والمسكن الصالح . والمركبُ الصالح. ومن شقوة ابن آدم : المرأة السوء . والمسكن السوء . والمركب السوء» رواه الحاكم وصححه عن أنس .

وقال : «أربع من أُعطيهن فقد أُعطى خير الدنيا والآخرة . قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابراً . وزوجة لا تبغيه خوناً فى نفسها ولا ماله».

رواه الطبرانى جـ١١ رقم ١١٢٧٥ فى الكبير والأوسط عن بن عباس .

ومعنى خونا : أى خيانة . وفى رواية حوبا ، أى إثما .

ورفع الإسلام من قيمة المرأة باعتبارها زوجة . وجعل قيامها بحقوق الزوج جهاداً فى سبيل الله . رواه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت يارسول الله؛ إنى رسول النساء إليك . وما منهن امرأة . علمت أم لم تعلم . إلا وهى تهوى مخرجى إليك . ثم عرضت قضيتها فقالت : الله رب الرجال والنساء وإلهُهُن . وأنت رسول الله إلى الرجال والنساء . كتب الله

الجهاد على الرجال فإن أصابوا أُجروا . وأن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون . فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ قال : «طاعة أزواجهن والقيام بحقوقهم . وقليل منكنَّ من يفعله» رواه الطبراني .

وقرر الإسلام للزوجة حقوقها على زوجها . ولم يجعلها مجرد حبر على ورق . بل جعل عليها أكثر من حافظ ورقيب : من إيمان المسلم وتقواه أولا . ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانيا . ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثا .

وأول هذه الحقوق هو «الصداق» الذى أوجبه الإسلام للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها وإرادته لها . قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۝٤﴾ [النساء: ٤] .

ومعنى نحلة : أى عطية وهدية . وليست ثمنا أو مقابلا للاستمتاع بالمرأة . كما يشيع بعض الناس . فأين هذا من المرأة التى نجدها فى مدنيات أُخرى : تدفع هى للرجل بعض مالها : مع أن فِطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة ؟

وثانى هذه الحقوق : هو النفقة . فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته بما يتناسب مع بيئته وزمنه وحاله . على الموسع قدره . وعلى المقتر قدره . قال ﷺ فى بيان حقوق النساء.

«ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : ٧] .

وثالث الحقوق : هو : «المعاشرة بالمعروف» قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] .

وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة فى كل علاقة بين المرء وزوجه . من حُسْن الخُلُق . ولين الجانب . وطيب الكلام. وبشاشة الوجه . وتطييب نفسها بالممازحة والترفيه عنها . يقول الرسول ﷺ : «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلُقا وألطفهم بأهله» رواه الترمذى وحسَّنه عن أبى هريرة برقم ١١٦٢ وروى ابن حبان عن عائشة أنه ﷺ قال : «خيركم خيركم لأهله . وأنا خيركم لأهلي» رواه ابن حِبَّان «الإحسان» جـ٩ رقم ٤١٧٧ .

وقد أثبتت السيرة النبوية العملية لطفه. عليه الصلاة والسلام . بأهله . وحُسْن خُلُقه مع أزواجه ، حتى إنه كان يساعدهن فى أعمال البيت أحيانا . وبلغ مع ملاطفته لهن أنه سابق عائشة مرتين . فسبقته مرة وسبقها أُخرى . فقال لها :«هذه بتلك» رواه بن ماجة عن عائشة وفى مقابل هذه الحقوق أوجب عليها طاعة الزوج . فى غير معصية طبعاً . والمحافظة على ماله . فلا تنفق منه إلا بإذنه . وعلى بيته . فلا تدخل فيه أحَداً إلا برضاه . ولو كان من أهلها .وهذه الواجبات ليست

كثيرة ولا ظالمة فى مقابل ما على الرجل من حقوق . فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب . ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدها . ولا على الرجل وحده . بل قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

فللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات .

ومن جميل ما يُروى أن ابن عباس وقف أمام المرآة يصلح من هيئته. ويعدل من زينته . فلما سُئِل فى ذلك قال : أَتزينُ لامرأتى كما تتزين لى امرأتى . ثم تلا قول الحق فى كتابه الكريم : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا من أظهر الأدلة على عميق فقه الصحابة رضى الله عنهم للقرآن الكريم.

استقلال الزوجة

لم يهدر الإسلام شخصية المرأة بزواجها . ولم يذبها فى شخصية زوجها . كما هو الشأن فى التقاليد الغربية . التى تجعل المرأة تابعة لرجلها . فلا تُعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلى . بل بأنها زوجة فلان .

أما الإسلام . فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة. ولهذا عرفنا زوجات الرسول بأسمائهن . وأنسابهن .. خديجة بنت خويلد . وعائشة بنت أبى بكر . وحفصة بنت عمر . وميمونة بنت الحارث . وصفية بنت حُيَى ، وكان أبوها يهوديا محاربا للرسول ﷺ .

كما أن شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج ولا تفقد أهليتها للعقود

والمعاملات وسائر التصرفات . فلها أن تبيع وتشترى . وتؤجر أملاكها وتستأجر . وتهب من مالها وتتصدق . وتوكل وتخاصم .

وهذا أمر لم تصل إليه المرأة الغربية إلا حديثا . ولا زالت فى بعض البلاد مقيَّدة الى حدٍّ ما بإرادة الزوج .

كيف يصلح الإسلام المرأة والرجل فى حالة النشوز ؟

إن الكمال لله وحده . والإنسان لا يخلو من عيوب أو نقائص . والعصمه للأنبياء وإن من يطلع على ما جاء به الإسلام من الوسائل لإصلاح المرأة والرجل فى حالة نشوزها وبعدهما عن الآداب الإسلامية. يجد أن الإسلام حكيم كل الحكمة فى معاملتهما . وطرق تهذيبهما . وإصلاحهما . لتجنب الطلاق والإخفاق فى الحياة الزوجية.

فلإصلاح المرأة الناشز :

يقول الخبير العليم بالسرائر وما تخفى الصدور : فى كتابه الكريم: ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء : ٣٤، ٣٥] .

«النشوز» هو العصيان . والترفع عن طاعة الزوج .

«واهجروهن فى المضاجع» : اعتزلوهن إلى فراش آخر . وهذا عقاب نفسى أو أديروا ظهوركم لهن فى أثناء النوم .

«واضربوهن» ضربا خفيفا إن لم تُجدِ العظة والنصيحة . ولم يثمر البعد والهجر .

«فلا تبغوا عليهن سبيلا» فلا تتعرضوا لهن بالأَذى .

«إن الله كان عليا كبيرا» فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن .

«شقاق بينهما» شقاقا وخلافا بين الزوجين .

فلتفاوت النساء فى الطباع والميول والعادات والأخلاق . لاختلافهن فى الوراثة والتربية والبيئة . يجب أن تعامل كل إمرأة بما يصلح لها . وما يناسبها . فهناك من يصلحها النصح والإرشاد والعتاب بهدوء على انفراد . وهناك رقيقة الإحساس التى يكفيها الكلمة المهذبة لإصلاحها. وهناك من يصلحها الهجر والاجتناب وعدم التحدث معها وهناك من يقوِّمها العقاب البدنى الخفيف البعيد عن الوجه . فلكل زوجة علاج يلائمها . ومن الممكن علاج الخلافات الأُسرية «العائلية» والمشكلات الزوجية كلها بحكمة وسهولة . كما ذكر الله العلى العظيم . من غير التجاء العنف . أو فراق أو شقاق . فإذا تعذر الإصلاح . واشتد النزاع والخلاف . فابعثوا حكما عادلا من أهله وحكما عادلا من أهلها ؛ للتحكيم بينهما . والعمل على إصلاح حالهما ، والتوفيق بينهما حتى تعود المودة والمحبة والسعادة كما كانت . ويعيش الزوجان عيشة هادئة فى سعادة وهناءة ووفاق .

ويجب أن نحافظ على بناء الأُسرة . ونعمل على بقائها متعاونة متآلفة . يرفرف عليها الوفاء والإخلاص . وتبادل الحب . وألا نلجأ إلى الطلاق إلا اذا انقطع كل أمل وكل رجاء، وكل وسيلة فى التوفيق

بين الزوجين . واستحالت المعيشة بينهما . وفى هاتين الآيتين الكريمتين كل الوسائل الحكيمة . لإصلاح الأُسرة . واجتناب الطلاق . وهو أبغض الحلال عند الله . وهى وسائل وضعها العلى الكبير . الحكيم الخبير . وفيها تدرج منطقى . وعلاج نفسانى ربَّانى . ولا وجه لاعتراض من يعترض على الضرب . ولكنها الحكمة التى تؤخذ من قول الرسول : «ضع سوطك حيث يراه أهلك» .

ولإصلاح الرجل الناشز :

يجوز للمرأة أن تطلب التحكيم للإصلاح بينها وبين زوجها . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ١٢٨] .

(بعلها) زوجها .
(نشوزا) معاملة سيئة كالاستعلاء عليها ، والتقصير فى النفقة .
(إعراضا) عدم محادثتها كالمعتاد .
(فلا جناح) فلا لوم .
(والصلح خير) من الفرقة والإعراض والتجنب والعصيان .

وإن نظرة واحدة إلى التشريع الإسلامى تبين لنا أن الإسلام كامل فى تشريعاته حكيم فى نظراته . ممثل للحياة الواقعية فى آرائه وأحكامه ، ولا عجب . فهى من لدن العليم الخبير . العلى الحكيم . جل شأنه .

الإسلام والطلاق

الإسلام ليس أَول من أَباح الطلاق :

يعيب علينا المتعصبون من المبشرين المحترفين أن الإسلام يبيح الطلاق والتفرقة بين الزوجين ، مع أن الإسلام كان مثلا للإنسانية والعدالة حينما أجاز الطلاق عند استمرار النزاع . واشتداد الشقاق والخلاف . واستحالة إيجاد حياة سعيدة هادئة موفقة بين الزوج وزوجه .

ولو وازنوا بين الديانات لأدركوا أن قوانين الطلاق فى الإسلام أعطت المرأة حقها أكثر من أى دين آخر . وخاصة من ناحيتى الإنسانية والعدالة ولو درسوا تاريخ الأُمم والأَديان لعلموا أن الإسلام لم يكن أول من أباح الطلاق . فقد كان منتشرا لدى العرب قبل الإسلام . شائعا عند الرومانيين والأَثينيين . مباحا لدى إليهود فى ديانة موسى عليه السلام مباحا لدى المسيحيين إذا ثبت الزنى .

الطلاق قبل الإسلام بين العرب :

واذا نظرنا إلى العرب قبل الإسلام وجدنا أن الرجل العربى كان له سلطة لا حدَّ لها فى الطلاق . ورأينا أن العرب فى معاملة زوجاتهم لم يفكروا فى ناحية إنسانية أو عدالة ولا عجب ؛ فقد كانوا قبل الإسلام غير مثقفين ، وأنصاف متوحشين . ولكن الإسلام هذبهم ونهض بهم . ورفع مستواهم. وطالبهم بالعدالة ومراعاة النواحى الإنسانية فى

معاملاتهم لنسائهم . وأعلن بينهم أن لا شئ يغضب الله أكثر من الطلاق .

وإن من ينظر إلى أحوال المجتمع العربى وعادات العرب وتقاليدهم عندما بعث الرسول الحكيم ﷺ يجد أنه كان من المستحيل أن يلغى سيدنا رسول الله ﷺ عادة الطلاق إلغاء تاما . لهذا حدَّ من السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الأزواج فى الطلاق .

وقال : «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وقيده بقيود تتمثل فيها الحكمة الإنسانية والعدالة وبُعد النظر . لأن الطلاق يؤدى إلى شقاء الأُسرة . ويحول دون سعادتها . ويقضى على تربية الأطفال وقد أعطى المرأة حقها فى الحصول على الطلاق . إذا وُجِدَت أسباب معقوله تبررة.

لماذا شرع الإسلام الطلاق ؟

ليس كل طلاق محموداً فى الإسلام فمن الطلاق ما يكرهه بل يُحرِّمه . لما فيه من هدم الأُسرة التى يحرص الإسلام على بنائها وتكوينها . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاقُ» رواه أبو داود عن ابن عمر ، ولا غَرْو أن اعتبر القرآن الكريم التفريق بين المرء وزوجه من أعمال السحرة الكفرة كما قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

إنما الطلاق الذى شرعه الإسلام هو أشبه ما يكون بالعملية الجراحية المؤلمة . التى يتحمل الإنسان العاقل فيها آلام جرحه . بل بُتِرَ عضو منه . حفاظا على بقية الجسد ودفعا لضرر أكبر .

فإذا استحكم النفور بين الزوجين . ولم تنجح كل وسائل الإصلاح ومحاولات المصلحين فى التوفيق بينهما . فإن الطلاق فى هذه الحالة . هو الدواءُ المر . الذى لا دواء غيره . ولهذا قيل : إن لم يكن وفاق ففراق .

وقال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ﴾ [النساء : ١٣٠] .

وما شرعه الإسلام هنا هو الذى يفرضه العقل والحكمة والمصلحة. فإنَّ من أَبعد الأُمور عن المنطق السديد والفطرة السليمة . أن تُفَرض بقوة القانون شركة مؤبَّدة على شريكين . لا يرتاح أحدهما للآخر ولا يثق به . بل ينفر منه . أو يبغضه ولا يطيق معايشته .

إن فرض هذه الحياة بسلطان القانون عقوبة قاسية . لا يستحقها الإنسان إلا بجريمة كبيرة . إنها شر من السجن المؤبَّد . بل هى الجحيم الذى لا يُطاق .

وقديما قال الحكماء : «إنَّ من أعظم البلايا معاشرة من لا يوافقك ولا يفارقك» وقال أبو الطيب المتنبى :

ومن نَكَدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى   عدُواً له ما من صداقته بُدُّ

وإذا قيل هذا فى الصاحب الذى يلقاه الإنسان يوما أو حتى أياما فى الأُسبوع أو ساعة أو حتى ساعات فى اليوم . فكيف بالزوجة التى هى قعيدة بيته . وصاحبة جنبه . وشريكة عمره ؟

وقد أباح الإسلام الطلاق فى أحوال خاصة . وبشروط محددة . وقيود عادلة . إذا كانت هناك ضرورة ملحة تستدعيه .

قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ إلى قوله عز وجل ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ [البقرة : ٢٢٦ - ٢٣٢] .

بيان معانى الكلمات :

يؤلون : أى يحلفون ألا يجامعوهن .

تربص : انتظار .

فاءوا : رجعوا عن اليمين إلى الوطء .

عزموا : صمموا عليه .

قروء : جمع قرء بفتح القاف وضمها وهو : الطهر أو الحيض . وهذا فى الزوجات التى دخل بهن . أما غيرهن فلا عدة عليهن . وعدة الفتاة الآيسة والصغيرة ثلاثة أشهر . وعدة الحوامل التى يضعن حملهن .

فى أرحامهن : من الولد أو الحيض .

وبعولتهن : أزواجهن أحق بمراجعتهن فى زمن الانتظار .

ولهن : على الأزواج مثل الذى لهم عليهن من الحقوق .

وللرجال عليهن درجة : وللرجال عليهن فضيلة فى الحق من وجوب طاعتهن لهم لما دفعوا من المهر والإنفاق .

فإمساك بمعروف : فعليكم إمساكهن بعد الطلاق بأن تراجعوهن من غير إضرار أو إرسال لهن بإحسان .

مما آتيتموهن : أى ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا من المهور شيئا إذا طلقتموهن .

فيما افتدت به : فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا حرج على الزوج ولا حرج على الزوجة فى بذل المال ليطلقها .

فإن طلقها : أى فإن طلقها الزوج بعد اثنتين فلا تحل له بعد الطلقة الثالثة حتى تتزوج زوجاً غيره ويطأها .

حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها : فإن طلقها الزوج الثانى فلا جناح على الزوجة والزوج الأول أن يتراجعا إلى النكاح بعد انقضاء العدة ...

وقد جعلت الشريعة الإسلامية الطلاق مرتين كى يُعطى الزوجان وسيلة للتروى والتفاهم . والإتفاق والتحكيم والصلح. والرجوع إلى الحياة الزوجية السعيدة .

«الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» .

الإسلام يبغض الطلاق كل البغض

الإسلام يبغض الطلاق كل البغض ولا يشجع عليه مطلقا . قال رسول الله ﷺ «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق» لأن الطلاق يهدم بناء الأُسرة . ويقضى على مستقبل الأبناء والبنات . وتربية الأولاد وقد منح الإسلام الحق فى أن تطلب الطلاق لأسباب قهرية يجيزها الشرع.

إن الإسلام قد وضع جملة من المبادئ والتعاليم والأحكام . لو أحسن الناس اتباعها والعمل بها لقللت الحاجة إلى الطلاق. ولضيَّقت من نطاقه إلى حد بعيد .

ومن ذلك

١- حسن أختيار الزوجة . وتوجيه العناية إلى الدين والخُلُق . قبل المال والجاه . يقول النبى ﷺ «تنكح المرأة لأربع: لمالها . ولحسبها . ولجمالها. ولدينها .. فاظفر بذات الدين تربت يداك» متفق عليه عن أبى هريرة . واللؤلؤ والمرجان (٩٢٨) .

٢- النظر إلى المخطوبة قبل العقد ، ليطمئن على مبلغ حسنها فى نظره وموقعها من قلبه . ولأن هذا النظر المبكر رسول الأُلفة والمودَّة .

ولهذا قال الرسول ﷺ . لمن خطب امرأة «اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» رواه أحمد وابن ماجة والدارقطنى عن أنس .

أى يحصل الائتدام والتآلف . وهذا الأمر النبوى . «أنظر إليها» ان لم يدل على الوجوب . فهو دال على الاستحباب . وقد تكررت الأحاديث فى هذا المعنى ، وقال جابر فى المرأة التى تزوجها : كنت أتخبأ لها تحت شجرة حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها .

وهناك للأسف من المسلمين . وخصوصا فى منطقة الخليج . من يرون رؤية الخاطب لمخطوبته عيبا . ولذا لا يراها إلا ليلة الزفاف . مع أنها تكون طالبة فى المدرسة أو الجامعة . وتذهب إلى السوق . وإلى الخارج ويراها كل الناس إلا خاطبها .

وفى مقابل هؤلاء . من يبيحون للخاطب أن يخلو بمخطوبته. وأن يخرج معها وحدهما . ويسهر فى السينمات وغيرها . وهكذا ضاع الحق بين الإفراط والتفريط .

٣- اهتمام المرأة وأوليائها باختيار الزوج . وإيثار من يرضى دينه وخُلُقه . وقد ذكرنا من قبل حديث «إذا أتاكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوجوه» وقال السَّلف : اذا زوجت ابنتك فزوجها ذا دين . إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها» .

٤- اشتراط رضا المرأة بالزوج ممن يتقدم لها . ولا يجوز ابدا

إجبارها على من لا ترغب فيه . وقد رد النبى ﷺ من تزوجت وهى كارهة .

٥-اعتبار رضا ولى المرأة وموافقته وجوبا أو استحبابا . حتى لا تتزوج المرأة وأهلها كارهون لزواجها . غاضبون عليها . فتنفصل عنهم . وينفصلون عنها . وقد ينعكس ذلك على حياتها الزوجية . ويؤثر فيها تأثيرا سيئا .

٦- الأمر بمشاورة الأُمهات فى زواج بناتهن ، ليقوم الزواج على أَساس مكين من رضا الأطراف كلها . فقد روى عنه ﷺ «آمروا النساء فى بناتهن» وقد تقدم الحديث وكلام الإمام الخاطبى فى بيانه .

٧- إيجاب المعاشرة بالمعروف . وتفصيل الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين . وإيقاظ الضمائر المؤمنة بالتزام حدود الله فيهما . وتقوى الله فى مراعاتها . فكل من الزوجين عليه واجبات وله فى مقابلهما حقوق . والمفروض فى الإسلام أن يؤدى واجباته قبل أن يطالب بحقوقه والله تعالى يقول فى كتابه الكريم : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

٨- ترغيب الزوج فى أن يكون واقعيا . بحيث لا ينشد الكمال فى زوجه بل ينظر إلى ما فيها من محاسن . إلى جوار ما يكون بها من عيوب فإن سخط منها خصلة رضى منها أخرى . وفى الحديث . قال رسول الله ﷺ «لا يفركنَّ (أى لا يبغض) مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلقا رضى منها غيره» رواه أحمد و مسلم عن أبى هريرة .

٩- دعـوة الزوج إلى تحكيم العـقل والمصلحــة إذا أحس ببـاعث الكراهية نحو زوجته . فلا يسارع بالاستجابة إلى عاطفته . راجيا أن يغير الله الحال إلى ما هو خير . قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء : ١٩] .

١٠- أمر الزوج أن يعالج الزوجة الناشزة العاصية بالحكمة والتدرج. من اللين فى غير ضعف ، إلى الشدة فى غير العنف.

قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء : ٣٤].

١١- أمر المجتمع بالتدخل عند وقوع الشقاق بين الزوجين. وذلك بتشكيل «مجلس عائلي» من ثقات أهله وأهلها لمحاولة الإصلاح والتوفيق وحل الأزمة القائمة بالحُسْنى .

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء : ٣٥] .

هذه هى تعاليم الإسلام . ولو أن المسلمين اتبعوها ورعوها حق رعايتها لانحصر الطلاق فى أضيق نطاق .

والحق أن الإسلام لا عيب فيه . اللوم كل اللوم يجب أن يقع على المسلم الذى لا يدرك الحكمة التى قصدتها الشريعة الإسلامية حينما أباحت الطلاق بقيود . ويجب ألا يطلق الرجل زوجته ويهدم حياته

الزوجيـة . لسـبب تافـه لا يـذكـر . وأن يكون حـكيـمـا فى تصـرفـاته . صـبوراً فى معـامـلاتـه . مـفكراً فى شـريكتـه فى حـيـاتـه . ذاكرا أبناءه . عاملا على تقوية الرابطة . حتى تعيش الأسرة كلها فى سعادة تامة .

فالإسـلام يطالب بحسن العشـرة . والصبـر فى الحيـاة الزوجيـة . وإزالة مـا بين الزوجين من خـلاف وشقـاق . حتى تكون الحياة الزوجيـة هانئة سعيدة موفقة . وقد أعطى الإسـلام المرأة حقوقها كاملة . ولكننا لم ندرك تلك الحـقوق فى العصـور المظلمـة . ونظر إليـها نظرة عـادلة . ورعاها وحافظ عليها . ودافع عنها قبل الزواج وبعده .

ومع إباحـة الطلاق فى الإسـلام عنـد اشتـداد الشقـاق بين الزوجين . واسـتحـالة التوفيق بينهـمـا قـال الرسـول ﷺ «إن أبغض الحـلال إلى الله الطلاق» كمـا قلنا من قبل . كى لا يشـجـع المتـزوجين علـى الإقدام على هذا الحـلال الممقوت . وبإباحـة الطلاق عند الضـرورة القصـوى حـافظ الإسـلام على التمسك بالفضيلة . واجتناب الـرذيلة . وارتكاب الزنى . ولهذا قلَّ اللقطاء . والأطفـال غيـر الشـرعيين فـى البـلاد الإسـلاميـة . وكثـروا فى البـلاد الأخرى . حـتى وصلت نسبتهم إلى خمسين فى المائة من الأطفال فى أوروبة وأمريكا ..

وقـال ﷺ : «ومـا زال جـبـريل يوُصـينى بالنسـاء حـتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن».

متى وكيف يقع الطلاق ؟

على أن الإسـلام لم يشـرع الطلاق فى كل وقت ولا فى كل حـال . إن

الطلاق المشروع الذى جاء به القرآن الكريم والسُنة المطهرة :

أن يتأنى الرجل ويتخير الوقت المناسب . فلا يطلق امرأته فى حيض . ولا فى طهر جامعها فيه . فإن فعل كان طلاقه طلاقا بدعيا محرَّما .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا يقع . لأنه أوقعه على غير ما أمره الرسول ﷺ وفى الحديث الصحيح : «من عمل عملا ليس من عليه أمرنا فهو رد» أى مردود على صاحبه . رواه مسلم عن عائشة .

ويجب أن يكون المطلق فى حالة وعى . واتزان واختيار .

فإذا كان فاقد الوعى . أو مُكْرَهاً . أو غضبان غضباً أغلق عليه قصده وتصوره فتفوَّه بما لم يكن يريد . فهذا لا يقع على الصحيح . للحديث الشريف قال رسول الله ﷺ «لا طلاق فى إغلاق».

رواه أبو داود وبن ماجه عن عائشة .

فسره أبو داود بالغضب . وفسره غيره بالإكراه . وكلاهما صحيح .

ويجب أن يكون قاصداً للطلاق والانفصال عن زوجته بالفعل . أما أن يجعل من الطلاق يمينا يحلف به . أو يهدد به ويتوعَّد . فلا يقع على الصحيح كما قال بذلك بعض علماء السَّلَف . ورجحه العلاَّمة ابن القيم . وشيخه ابن تيمية .

وإذا كانت هذه الأنواع من الطلاق لا تقع . فقد بقى الطلاق المنوى المقصود الذى يفكر فيه الزوج . ويدرسه قبل أن يقدم عليه . ويرد

العلاج الفذ . للخلاص من حياة لا يطيق صبرا عليها . فهذا هو الذى قال فيه ابن عباس عن رسول الله ﷺ «إنما الطلاق عن وطر» رواه البخارى عن ابن عباس .

ما بعد الطلاق

على أن وقوع الطلاق لا يقطع حبل الزوجية قطعا باتا . لا سبيل لإصلاحه . كلا فالطلاق . كما جاء فى كتاب الله عز وجل . يعطى لكل مطلق فرصتين للمراجعة وتدارك الأمر . فلابد أن يكون الطلاق مرة بعد مرة . فإذا لم تُجْدِ المرتان كانت الثالثة هى الباتة القاطعة . فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره . ولهذا كان جمع الثلاث فى لفظة واحدة ضد ما شرعه الله تبارك وتعالى . وهذا ما بينه واستدل له شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم . وأخذت به المحاكم الشرعية فى كثير من البلاد العربية .

وعلى كل حال فالطلاق لا يحرم المرأة من نفقتها . طوال مدة العدة. ولا يبيح للزوج إخراجها من بيت الزوجية . بل يفرض عليه أن تبقى فى بيتها قريبة منه . لعل الحنين يعود . والقلوب تصفو . والبواعث تتجدد. قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ [الطلاق : ١].

والطلاق لا يبيح للرجل أن يأكل على المرأة مهرها . أو يسترد منها ما أعطى من قبل. قال تعالى فى كتابه الكريم ؛ ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

كما أن لها الحق فى المتعة بما يقرره العرف .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤١] .

وهذا عام لكل مطلقة جبرا لخاطرها . وتعويضا لها .

كما لا يحق للمطلق أن يشنع على زوجته . أو يشيع عنها السوء أو يؤذيها فى نفسها أو أهليها بعد فراقها .

قال تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] .

هذا هو الطلاق كما شرعه الإسلام .

إنه العلاج الذى ينبغى . فى الوقت الذى ينبغى . وبالقدر الذى ينبغى . وبالأسلوب الذى ينبغى . للهدف الذى ينبغى .

ولقد حرمت المسيحية الطلاق تحريما باتا عند الكاثوليك وباستثناء علة الذنى عند الأورثوذكس .

وحجتهم فى ذلك ، أن ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان .

أما المسلمون فعندهم أن الله هو الذى جمع . وهو الذى فرق . بأحكام شرعه فهو يُشَرِّعْ لعباده ما يصلح لهم . وهو أعلم بهم . فكانت النتيجة أن خرج الكثيرون من المسيحيين على هذا التحريم .

مما اضطر معظم الدول المسيحية إلى سن قوانين وضعية تبيح لهم الطلاق بغير قيود الإسلام والتزامه وآدابه . فلا عجب أن صاروا يطلقون لأتفه الأسباب . وإن صارت حياتهم الزوجية عرضة للانحلال والانهيار .

لماذا جعل الطلاق بيد الرجل ؟

ويقولون : إن الرجل هو رب الأسرة وعائلها . والمسؤول الأول عنها . وهو الذى دفع المهر . وما بعد المهر . حتى قام بناء الأُسرة على كاهله . ومن كان ذلك كان عزيزًا عليه أن يتحطم بناءُ الأُسرة الا لدوافع غلابة. وضرورات قاهرة . تجعله يضحى بكل تلك النفقات والخسائر من أجلها .

ثم إن الرجل أبصر بالعواقب . وأكثر تريثا . وأقل تأثرا من المرأة . فهو أولى أن تكون العقدة فى يده . أما المرأة فهى سريعة التأثر . شديدة الانفعال . حارة العاطفة فلو كان بيدها الطلاق لأسرعت به لأتفه الأسباب . وكلما نشب خلاف صغير . كما أنه ليس من المصلحة أن يُفوض الطلاق إلى المحكمة . فليس كل أسباب الطلاق مما يجوز أن يُذاع فى المحاكم . يتناقله المحامون والكُتاب ويصبح مضغة فى الأفواه على أن الغربيين قد جعلوا الطلاق عن طريق المحكمة فما قَلَّ الطلاق عندهم ولا وقفت المحكمة فى سبيل رجل أو امرأة يرغب فى الطلاق .

كيف تتخلص الزوجة الكارهة من زوجها ؟

وهناك سؤال يعن لكثير من الناس . إذا كان الطلاق بيد الرجل . كما عرفنا من أسباب ومبررات . فما الذى جعله الشرع بيد المرأة ؟

وما سبيلها إلى التخلص من نَيّر الزوج إذا كرهت الحياة معه لغلظ طبعه . أو سوء خُلُقه . أو لتقصيره فى حقوقها تقصيرا ظاهرا . أو

لعجزه البدنى أو المالى عن الوفاء بهذه الحقوق . أو لغير ذلك من الأسباب ؟

والجواب أن الشارع الحكيم جعل للمرأة عدة مخارج تستطيع بأحدها التخلص من ورطتها :

١- اشتراطها فى العقد أن يكون الطلاق بيدها . فهذا جائز عند أبى حنيفه وأحمد . وفى الصحيح : «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج» متفق عليه من حديث عقبة بن عامر .

٢- الخلع : فللمرأة الكارهة لزوجها أن تفدى نفسها منه بأن ترد عليه ما أخذت من صداق ونحوه . إذ ليس من العدل أن تكون هى الراغبة فى الفراق وهدم عش الزوجية ويكون الرجل هو الغارم وحده . قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وفى السنة أن امرأة ثابت بن قيس شكت إلى الرسول ﷺ شدة بغضها له فقال لها الرسول ﷺ : «أتردين عليه حديقته»؟ وكانت هى مهرها . فقالت نعم . فأمر الرسول ثابت أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد» . رواه البخارى عن ابن عباس جـ٦ .

٣- تفريق الحكمين عند الشقاق . فقد قال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء : ٣٥] .

وتسمية القرآن لهذا المجلس العائلى بـ «الحكمين» يدل على أن لهما حق الحكم والفصل وقد قال بعض الصحابة للحكمين : إن شئتما أن تجمعا فاجمعا وان شئتما أن تفرقا ففرقا» .

٤- التفريق للعيوب الجنسية . فإذا كان الرجل فيه عيب يعجزه عن الاتصال الجنسى . فللمرأة أن ترفع أمرها إلى القضاء فيحكم بالتفريق بينهما دفعا للضرر عنها إذ لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام .

٥- التطليق لمضارة الزوجة .. إذا ضار الزوج زوجته وآذاها وضيَّق عليها ظلماً كأن امتنع من الإنفاق عليها ، فللمرأة أن تطلب من القاضى تطليقها ، فيطلق عليها جبراً . ليرفع الضرر والظلم عنهما .

قال تعالى : ﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

ومن مضارتها : ضربها بغير حق .

بل لقد ذهب بعض الأئمة إلى جواز التفريق بين المرأة وزوجها المعسر إذا عجز عن النفقة . وطلبت هى ذلك . لأن الشرع لم يكلفها الصبر على الجوع مع زوج فقير . ما لم تقبل هى ذلك من باب الوفاء ومكارم الأخلاق . وبهذه المخارج فتح الإسلام للمرأة أبوابا عدة للتحرر من قسوة بعض الأزواج . وتسلطهم بغير حق .

إن القوانين التى يضعها الرجال لا يبعد أن تجور على حقوق النساء. أما القانون الذى يضعه خالق الرجل والمرأة وربهما فلا جَوْر فيه ولا محاباة . إنه العدل كل العدل .

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٥٠] .

إساءة استخدام الطلاق

بقى أن نقول : إن كثيرًا من المسلمين أساؤوا استخدام الطلاق ووضعوه فى غير موضعه وشهروه سيفا مصلتا على عنق الزوجة . واستعملوه يمينا يُحلف به على ما عظم وما هان من الأشياء . وتوسَّع كثير من الفقهاء فى إيقاع الطلاق . حتى طلاق السكران والغضبان . بل المكره . مع أن الحديث يقول : «لا طلاق فى إغلاق» .

وابن عباس يقول : «إنما الطلاق عن وطر» حتى أوقعوا طلاق الثلاث بلفظة واحدة فى حالة غضب أُريد به التهديد فى شجار خارج البيت . وهو مع زوجته فى غاية السعادة والتوفيق .

ولكن الذى تدل عليه النصوص ومقاصد الشريعة السمحة فى بناء الأسرة والمحافظة عليها هو التضييق فى إيقاع الطلاق . فلا يقع إلا بلفظ معيَّن . فى وقت معيَّن . بنية معيَّنة وهو الذى ندين لله به . وهو ما اتجه إليه الإمام البخارى . وبعض السَّلَف . وأيَّده ابن تيمية وابن القيم ومن وافقهما . وهو الذى يُعبِّر عن روح الإسلام .

أما سوء الفهم أو سوء التنفيذ لأحكام الإسلام فهو مسؤولية المسلمين وليست مسؤولية الإسلام .

الفصل الرابع
الإسلام وتعدد الزوجات

قبل أن نتكلم عن تعدد الزوجات . نذكر كلمة عن الزواج والغرض منه . فنقول :

الزواج والغرض منه

إن الزواج أمر طبيعى تستدعيه الحياة للمحافظة على النوع الإنسانى . والمعيشة فى عش هادئ تسوده المودة المتبادلة بين الزوجين. والعطف الدائم بينهما ، والإخلاص المستمر . حتى يكوِّنا أُسرة هانئة سعيدة ، آمنة فى عيشها ، تتغلب على ما يعرضها من الصعوبات والمشقات فى الحياة . بالتعاون والمحبة ، والعطف والمشاركة فى الشعور والوجدان . والغنى والفقر . والصحة والمرض والسعادة والشقاء. قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١]

لتسكنوا إليها : لتستريح نفوسكم بالميل إليها .

مودة : محبة .

رحمة : شفقة من أن يصيب أحدهما سوء .

فالبيت السعيد يتطلب من الزوجين تبادل المودة والحب . وتبادل

الرحمة والبر . والتفكير فى تربية الأبناء والبنات تربية كاملة . تربية دينية وروحية . ووطنية وخلقية واجتماعية . وجسمية وعقلية . وعلمية وعملية .

ومن الزوجين تتكون الأُسرة . ومن مجموع الأُسر تتكون الأُمة . وكما تكون الأُسرة تكون الأُمة . وكما يكون الفرد يكون المجتمع . والمجتمع مجموع أفراد . فإذا تمسك كل فرد بالمبادئ والمثل العليا كان المجتمع مثاليا . واستطاعت الأُمة الإسلامية أن تستعيد مجدها السالف . وعظمتها فى العصور الأُولى .

وقد منح الإسلام المرأة الرشيدة الحق فى اختيار زوجها . وفى هذا اعتراف بكرامتها وتكريم لها . قال ﷺ : «لا تنكح الأَيمُ حتى تستأمر . ولا البكر حتى تستأذن» .

الأيم : معناها : التى لا زوج لها .

تستأمر : تستشار ويؤخذ رأيها فى اختيار زوجها .

وقال رسول الله ﷺ « إن الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر . وإذنها سكوتها» .

قالت أم المؤمنين عاشة رضى الله عنها : «إن فتاة دخلت عليها ، فقالت . إن أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع بى خسيسته وأنا كارهة فقالت اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ. فجاء ﷺ . فأخبرته . فأرسل إلى أَبيها فدعاه . فجعل الأمر إليها . فقالت : «يارسول الله قد

أجـزت مـا صنع أبى . ولكن أردت أن أُعلم النسـاء أن ليس للآباء من الأَمر شىء» .

ففى الإسـلام لا إكـراه للمـرأة فى الزواج . وقد قيل أن جارية بكراً أتت النبى ﷺ . فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة . فخيرها رسـول الله وأعطاها الحق فى اختيار زوجها كى تكون الحياة الزوجية موفقة سعيدة . أساسها المودة والتعاون والوفاء والإخلاص والرحمة .

وللمحـافظة على كرامة المرأة وشعورها ومنزلتها فى بيتهـا يقول سيد المرسلين موبخا وزاجـراً الرجل الذى يهين زوجته ويضربها بغير مبرر : «أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العَير» .

العَير بفتح العين معناها : الحمار .

وبكسر العين : الإبل التى تحمل الميرة . والميرة : الطعام .

الزواج والغريزة الجنسية :

إن الغريزة من أشد الغرائز تعقدا . إذ أنها تشمل جميع الوجدانات والأعمـال التى لهـا عـلاقـة بالاختـلاط الجنسى . أى باتصـال الذكـر بالأنثى .

والعنصر الوجدانى لهذه الغريزة هو انفعال حبى يشعـر به كل من الذكر والأنثى نحو الآخر . والغاية الحيوية منها هى الاحتفاظ بالنوع . ولذا ترى الرجل والمرأة يعنيان بأطفالهما عناية كل منهما بالآخر .

وأن الغريزة الجنسية متصلة بغريزة الأُبوة أو الأُمومة اتصالا تاما .

ولذا يستحسن أن تسمى هاتان الغريزتان الغريزة التناسلية . إذ أَن الغريزة الجنسية تمثل الدور الأول للغريزة التناسلية . وغريزة الأُبوة تمثل الدور الثانى لها . والغاية منهما واحدة . وهى التناسل والاحتفاظ بالنوع .

ومن هنا نرى الحكمة فى حث الدين الإسلامى على الزواج. وتفضيل التبكير على التأخر فيه ؛ لأن فى إرضاء هذه الغريزة بالطرق المشروعة حفظا للأخلاق والآداب وتقوية النسل . وحثا على السعى فى طلب الرزق أما كبتها فيؤدى إلى اضطراب عصبى . وأمراض عقلية . وتكوين عادات سيئة قد يصعب التخلص منها .

فلدى الإنسان بفطرته غريزة جنسية . وميل طبيعى إلى الزواج . حتى تصان النفوس الإنسانية . وتحفظ من الموبقات الخلقية . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن فى الزواج راحة للنفس. وترويحا للقلب . وانصرافا عن الزنى وتفرغاً للعمل وكسب الرزق . وتكوين الأُسرة . وتربية الأَطفال والعناية بهم . وهنا تظهر الحكمة فى التشريع الإسلامى الذى يقضى بأن لا رهبانية فى الإسلام إلا لعذر شرعى .

التفكير فى الوراثة قبل الزواج

لقد ثبت فى علم النفس أن الصفات الجنسية والعقلية يرثها الأولاد عن الآباء والأُمهات والأَجداد القريبين والبعيدين . لذلك يجب على كل من الخطيب والخطيبة قبل الإقدام على الزواج التفكير فى الوراثة وأثرها فى الأبناء والبنات .

وقد أمر الرسول ﷺ بحسن التخير عند التزوج . لأن أثر الوراثة أمر محقق لا شك فيه قال عليه الصلاة والسلام .

«تخيروا لنطفكم . فإن العرق دساس» أى فكروا فى سلامة الجسم. وسلامة العقل وكرم الأَصل . وكمال الخلق والمخافة على الدين . قبل التزوج . لأن العرق دساس ... وقال ﷺ «تخيروا لنطفكم الأكفاء» وقال عليه الصلاة والسلام:

«اياكم وخضراء الدمن . فقيل وما خضراء الدِّمنِ ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء» .

وقال الشاعر العربى :

ورثنا المجد عن آباء صدق ... ونورثه إذا متنا بنينا

وكثير ما يغتر الشباب عند الزواج بالمال أو الجمال . أو الحسب والجاه ، وينسون الناحية الدينية أو الخلقية . أو الوراثة الجسمية والعقلية . فيضلون فى الإختيار وما فائدة الثروة والجمال والنسب إذا كان هناك نقص خلقى . أو عيب جسمى أو ضعف عقلى ؟

قال المصطفى ﷺ : «إن المرأة تنكح لأربع . لمالها . ولحسبها . ولجمالها . ولدينها . فاظفر بذات الدين تَرِبتْ يداك» فالرسول يذكر الأَغراض التى يفكر فيها الشاب عند التفكير فى الزواج . ثَم ينصح باختيار الفتاة المتمسكة بدينها . الكريمة الأخلاق . وترك المستهترة فى دينها . ولو أوتيت المال والحسب . والجمال والنسب . قال ﷺ .

«ألا أُخبركم بخير ما يكتنز المرء ؟ المرأة الصالحة ؛ إذا نظر إليها سرته . وإذا غاب عنها حفظته . وإذا أمرها أطاعته» .

فالمرأة الصالحة جسمياً وعقلياً وخلقياً هى خير زوجة تختارها . لتكون شريكة لك فى حياتك .

الإسلام يشجع على تكوين الأُسرة

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء : ٣] .

ما طاب : أى ما حل . وهذا يدل على نظر الزوج إلى زوجته .

وقال أصدق القائلين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد : ٣٨] .

ولم يتزوج عيسى عليه السلام . لأنه لم يتيسر له الجمع بين النكاح والتخلى والتفرغ للعبادة فاحتاط لنفسه .

وقال عز وجل : ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [النور : ٣٢] .

واسع عليم : أى واسع الفضل عالم بكل شىء .

وقال ﷺ «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج . فإنه أغض للبصر . وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

معانى بعض الكلمات :

الباءة : التزوج . من المباءة : المنزل . لأن من تزوج امرأة انذلها منزلا .

الصوم وجاء : قاطع لثورة الشهوة . ومضعف لها .

وقال ﷺ : « **النكاح من سنتى . فمن لم يعمل بسنتى فليس مني**» .

وقال ﷺ : « **تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأُمم . ولا تكونوا كرهبانية النصاري**» .

وقال ﷺ : « **من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه . فليتق الله فى الشطر الباقي**» فلا يأكل إلا طعام الحلال . ولا يكسب رزقه إلا من الأعمال التى أحلها الله . وشطر الدين نصفه .

وقال ﷺ : «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . صدقة جارية . أو علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له**» .

وقال ﷺ : «**ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا . ولسانا ذاكراً . وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته**» أى تقويه على العمل لها . ولهذا ينبغى أن تكون الزوجة ذات دين وحسب وعلم وأدب . وغير ذات قرابة قريبة . لئلا تكون الذرية ضعيفة . وفيها حمق . قال رسول الله ﷺ «تنكح المرأة لأربع : لمالها . ولحسبها .. ولجمالها . ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

معانى بعض الكلمات :

لمالها : أى لا تكلفه فى الإنفاق فوق طاقته .

لحسبها : أى شرفها .

تَرِبَتْ : أى افتقرتا إن خالفت ما أمرتك به . أو عليك بذات الدين يغنك الله.

لقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور : ٣٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **خير نساء أُمتى أصبحهن وجها . وأقلهن مهراً** » .

فالإسلام يدعو إلى عدم المغالاة فى المهر حتى لا يضطر الزوج إلى الاستدانة .

وقال ﷺ «تخيروا لنطفكم . فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن» وقد ثبت فى علم النفس أن الوراثة فى الصفات الجسمية والعقلية محققة لا ريب فيها . أما الصفات الخلقية فتكتسب بالتربية والبيئة . فى البيت والمدرسة والمجتمع .

وقال عليه الصلاة والسلام : «**تزوجوا الولود الودود . فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**» وتعرف الولود بأقاربها ويجوز للرجل قبل الخطبة أن ينظر إلى وجه الفتاة التى يريد أن يتزوجها . وينظر إلى كفيها . ويجوز للمرأة أن ترى الرجل الذى يرغب فى خطبتها ؛ حتى تدوم المودة والأُلفة . وتكون السعادة الزوجية . ولكى تصفو الحياة

للزوجين وتحسن العشرة بينهما يجب أن يجتهد كل منهما فى إسعاد الأَخر . حتى يكونا سعيدين هانئين فى حياتهما .

الإسلام ليس أَول دين أَباح تعدد الزوجات

إن كثيرين من المتعصبين ضدَّ الإسلام والذين لا يفهمون روح الإسلام يعتقدون أن الإسلام هو أَول دين أَباح تعدد الزوجات وهذا اعتقاد كله خطأ يدل على الجهل بالتاريخ . وبالديانات الأُخرى . فالإسلام ليس أول من أتى بتعدد الزوجات . ولكنه أول دين نظم شئون الزواج . وحدَّد تعدد الزوجات بقيود شديدة وشروط قاسية .

فالأَصل الغالب فى زواج المسلم : أن يتزوج الرجل بامرأة واحدة تكون سكن نفسه وأُنس قلبه . وربة بيته . وموضع سره. وبذلك ترفرف عليهما السكينة . والمودة والرحمة . التى هى أركان الحياة الزوجية فى نظر القرآن .

ومن تعريض نفسه للمحرَّم . قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣] .

وقال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء : ١٢٩]

يؤخذ من هذا البيان أن العدالة بين الزوجات من النساء غير ممكنة . وليست فى استطاعة الإنسان . ولو حرص على أن يكون

عادلا . ثم نهاه عن أن يميل كل الميل إلى واحدة دون أُخرى . فالإسلام أَباح أن يتزوج الرجل اثنتين أو ثلاثة أو أربع زوجات إذا وجدت مبررات للتعدد . كأن تكون الزوجة عاقراً لا تلد . أو مريضة مرضاً معديا . أو مزمنا لا يرجى علاجه وشفاؤه .

ولكنه طالب بالعدل فى المعاملة . والمساواة التامة فى الميل والمحبة والمعاملة والاكتفاء بواحدة إن خاف الرجل ألا يعدل . ثم بين أن العدالة بين الزوجات بعيدة المنال . ولو حرص الرجل على تحقيقها . فكأن الإسلام أَباح أن يتزوج الرجل زوجاً واحدة . بعد أن كان التعدد مباحاً فلا حصر قبل الإسلام . وقال النبى ﷺ « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما . جاء يوم القيامة وشقه مائل» رواه أبو داود والترمذى . والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة أما من كان عاجزا عن الإنفاق على الزوجة الثانية . أو كان يخشى من نفسه ألا يعدل بين زوجتيه فحرام عليه أن يقدم على الزواج من أُخرى .

وإذا كان الأَفضل فى الزواج أن يقتصر المرء على واحدة . اتقاءً للمزالق وخشية من المتاعب فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة . فإن هناك اعتبارات انسانية . فردية أو اجتماعية (سنذكرها) جعلت الإسلام يبيح للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة . لأنه الدين الذى يوافق الفطرة السليمة . ويعالج الواقع والماثل . دون هرب ولا شطط ولا إغراق فى الخيال .

فالإسلام أباح تعدد الزوجات . عند وجود مبرر للتعدد . بشرط

القدرة الصحية والمالية . والعدالة المطلقة بين الزوجات . فإن خاف الإسلام الظلم وعدم العدالة وجب عليه أن يكتفى بزوج واحدة .

وقد دل الإحصاء فى معظم أنحاء العالم على أن عدد النساء أكثر من الرجال . فخوفا من العار والفساد أباح للرجال تعدد الزوجات بشرط العدالة المطلقة والقدرة على النفقة وقد بين الفقهاء العدالة . فقالوا : يجب أن يسوى بينهما فى النفقة والكسوة والمبيت . ويحرم عليه أن يدخل فى ليلة إحداهن إلى غيرها إلا لضرورة كمرض شديد مخوف . كما يحرم الدخول فى نهارها إلا لحاجة . كعيادة فى مرض غير مخوف . وسؤال عن أمر يحتاج إليه . فإن لم يمكث فلا قضاء عليه لأنه يسير . وان مكث أو قضى شهوته منها لزمه القضاء. بأن يدخل على المظلومة فى ليلة أخرى فيمكث عندها بقدر ما مكث عند تلك . هذا ما قرره الفقهاء بيانا لمدلول العدل المفروض .

تعدد الزوجات قبل الإسلام بغير تحديد

وإن من يقرأ التاريخ القديم للعالم يجد أن المشركين قبل الإسلام كانوا يعددون الزوجات بغير نظام أو تحديد . فكان الرجل منهم يتزوج عشرين أو ثلاثين . أو أكثر بدون حصر . وكانوا يمثلون الإباحية الخلقية فى أقبح مظاهرها . ويستعبدون الإنسانية . ويبيحون الرق والعبودية والزنى .

وكان تعدد الزوجات منتشرا بين العرب قبل ظهور الإسلام. وكان للرجل الحق فى أن يتزوج من يشاء . بدون قيود . وكان للزوجات

والسـرارى أن يلد من يلدن مـن الأطفـال . وكـانت النسـاء فى الجـاهليـة الأولى يتبـرجن ويبـدين زينتـهن لغيـر أزواجـهن . على الرغم من شـدة الغيرة عند العرب . كما كان الغزل شائعا بينهم .

وكانت المرأة فى القرن السابع الميلادى تعد عند الروم متاعًا للرجل مملوكة له . يتصرف فيها كما يشاء .

ويتحدث بعض الناس عن تعدد الزوجات وكان الإسـلام هو أول من شـرعـه . وهو جهل منهم أو تجاهـل للتاريخ . فقد كان كثيـر من الأُمم والمِلَل قبل الإسـلام يبيحـون التـزوج دون اشـتـراط لشـرط . ولا تقيـد بقيد . وقد ذكر «العهد القديم» أن داود كان عنده ثلاثمائة امـرأة . وأن سليمان كان عنده سبعمائة ما بين زوجة وسُرِّيَة .

فلما جاء الإسلام وضع لتعدد الزوجات قيداً أو شرطاً .

فأما القيد فجعل الحد الأقصى للزوجات أربعا . وقد أسلم غيلان ابن سلمة وتحته عشر نسوة . فقال له النبى ﷺ .

«اختر منهن أربعا وفارق سائرهن» رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عمـر وكذلك من أسلم عن ثمـان أو خمس أمـره الرسـول ﷺ ألا يمسك منهن الا أربعا .

أمـا زواج الرسول ﷺ بتسع فكان هذا شيئا خصَّه الله به . لحاجة الدعوة فى حياته . وحاجة الأُمة إليهن بعد وفاته . وقد عاش كل حياته مع زوجة واحدة هى خديجة بنت خويلد رضى الله عنها . وكان هذا

تكريما من الله تعالى لنسائه اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة. ولذا حرَّم عليه أن يتزوج غيرهن أو يبدل إحداهن بأخرى كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

العدل شرط إباحة التعدد

وأما الشرط الذى اشترطه الإسلام لتعدد الزوجات ، فهو ثقة المسلم فى نفسه . أن يعدل بين زوجتيه . فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمبيت والنفقة . فمن لم يثق فى نفسه فى القدرة على هذه الحقوق . بالعدل والسوية . حرم عليه أن يتزوج بأكثر من واحدة . قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : ٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «**من كانت له امراتان يميل لإحداهما على الأُخرى جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطا . أو مائِلا**» رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة.

والميل الذى حَذَّر منه هذا الحديث . هو الجور على حقوقها . لا مجرد الميل القلبى . فإن هذا داخل فى العدل الذى لا يُستطاع . والذى عفا الله عنه وسامح فى شأنه . قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ .

[النساء : ١٢٩]

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول : «**اللهُمَّ هذا قسمى**

فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد عن عائشة رضى الله عنها .

يعنى بما لا يملكه . أمر القلب والميل العاطفى إلى إحداهن خاصة .

وكان إذا أراد سفراً حكَّم بينهنَّ القرعة . فأيتهن خرج سهمها سافر بها .

وانما فعل ذلك دفعا لوغر الصدور . وترضية المجتمع .

الحكمة فى إباحة التعدد

إن الإسلام هو كلمة الله الأخيرة التى ختم بها الرسالات . لهذا جاءت بشريعة عامة خالدة . تتسع للأقطار كلها . وللأعصار قاطبة . وللناس جميعا .

إنه لا يشرع للحضرى ويغفل البدوى . ولا للأقاليم الباردة وينسى الحارة . أو العكس ولا لعصر خاص مهملاً بقية العصور والأجيال .

إنه يقدر ضرورة الأفراد . وضرورة الجماعات .

فمن الناس من يكون قوى الرغبة فى النسل . ولكنه رُزِق بزوجة لا تنجب . لعقم أو مرض أو غيره . أفلا يكون أكرم لها . وأفضل لها . أن يتزوج عليها من تحقق له رغبته . مع بقاء الأولى وضمان حقوقها ؟

ومن الرجال من يكون قوى الغريزة . ثائر الشهوة . ولكنه رزق بزوجة قليلة الرغبة فى الرجال . أو ذات مرض . أو تطول عندها فترة الحيض عندها أو نحو ذلك ، فهى لا تشبع نهم غريزته .

ولا تملأ عينه المتطلعة إلى هذه وتلك . والرجل لا يستطيع الصبر كثيراً عن النساء أفلا يباح له أن يتزوج بأخرى . بدلا من أن يبحث عنها خليلة ؟

أو بدلا من أن يُطلِّق الأُولى ؟

وقد يكون عدد النساء الصالحات للزواج أكثر من عدد الرجال القادرين عليه . وخاصة فى أعقاب الحروب التى تلتهم صفوة الرجال والشباب . وهناك تكون مصلحة المجتمع. ومصلحة النساء أنفسهن فى أن يكنَّ ضرائر ، بدلا من أن يعشن العمر كله عوانس محرومات من الحياة الزوجية . وما فيها من سكون ومودة وإحصان . ومن نعمة الأمومة . ونداء الفطرة فى ثناياهن يدعو إليها .

إنها إحدى طرائق ثلاثة : أمام هؤلاء الزائدات عن عدد الرجال القادرين على الزواج . لا طريقة غيرهن .

١- فإما أن يقضين العمر كله فى مرارة الحرمان من حياة الزوجية والأَمومة وهى عقوبة قاسية لهؤلاء . وهن لم يقترفن جُرْما .

٢- وإما أن يُرخَى لهن العنان . ليركضن وراء شهواتهن ويرضين أن يكن أدوات لهو لعبث الرجال المفسدين . الذين يأكلونهنَ لحما ويرمونهنَّ عظماً . بعد أن تذهب نضرتهن وشبابهن . ناهيك بما قد يترتب على ذلك من إيتانهن بأطفال (غير شرعيين) (أولاد حرام) . وكثرة عدد اللُّقطاء المحرومين من الحقوق المادية والمعنوية . ليكونوا عالة على المجتمع . وأَداة هدم فيه وإفساد .

٣- وإما أن يباح لهن الزواج برجل متزوج قادر على النفقة والإحصان . واثق من نفسه بالعدل . كما أمر الله تعالى .

ولا ريب أن هذه الطريقة الأخيرة هى الحل العادل الأمثل . والبلسم الشافى . وذلك هو ما حكم به الإسلام .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾ [المائدة : ٥٠]

التعدد نظام أخلاقى إنسانى

إن نظام التعدد . كما شرعه الإسلام . نظام أَخلاقى إنسانى. أما إنه أَخلاقى .. فلأنه لا يسمح للرجل أن يتصل بأى امرأة شاء . وفى أى وقت شاء . إنه لا يجوز له أن يتصل بأكثر من ثلاث نساء زيادة عن زوجته . ولا يجوز له أن يتصل بواحدة منهن سراً . بل لابد من إجراء العقد وإعلانه ولو بين نفر محدود . ولابد من أن يعلم أولياء المرأة بهذا الاتصال المشروع . ويوافقوا عليه . أو أن لا يُبدوا عليه اعتراضاً . ولابد من تسجيله . بحسب التنظيم الحديث فى محكمة مخصصة لعقود الزواج . ويستحب أن يولم الرجل عليه . وأن يدعوا لذلك أصدقاء وأن يضرب له الدفوف (الموسيقى) مبالغه فى الفرح والإكرام .

وأما أنه إنسانى . فلانه يخفف الرجل به من أَعباء المجتمع بإيواء امرأة لا زوج لها ونقلها إلى مصاف الزوجات المصونات المحصنات .

ولأنه يدفع الثمن اتصاله الجنسى مهراً وأثاثا ونفقات تعادل فائدته الاجتماعية من بناء خلية اجتماعية تنتج للأمة نسلا عاملاً .

ولأنه لا يخلى بين المرأة التى اتصل بها وبين متاعب الحمل وأعبائه. تحتمله وحدها بل يتحمل قسطا من ذلك بما يُنفقه عليها أثناء حملها وولادتها . ولأنه يعترف بالأولاد الذين أنجبهم هذا الاتصال الجنسى . ويقدمهم للمجتمع ثمرة من ثمرات الحب الشريف الكريم يعتز هو بهم. وتعتز أُمته فى المستقبل بهم .

إن نظام التعدد كما قال الدكتور مصطفى السباعى ـ رحمة الله ـ يعدد الإنسان فيه شهوته إلى قدر محدود . ولكنه يضاعف أَعباءهُ ومتاعبه ومسؤولياته إلى قدر غير محدود لا جرم أن كان نظاماً أخلاقيا يحفظ الأخلاق . إنسانيا يشرف الإنسان .

تعدد الغربيين لا أخلاقى ولا إنساني

وأين هذا من التعدد الواقع فى حياة الغربيين . حتى تحدَّاهم أحد كُتَّابهم أن يكون أحدهم وهو على فراش الموت يدلى باعترافاته للكاهن. تحدّاهم أن يكون فيهم واحد لا يعترف للكاهن بانه أتصل بامرأة ولو مرة واحدة فى حياته .

إن هذا التعدد عند الغربيين واقع من غير قانون . بل واقع تحت سمع القانون إنه لا يقع باسم الزوجات . ولكنه يقع باسم الصديقات والخليلات .

إنه ليس مقتصراً على زريعة فحسب . بل هو إلى ما لا نهاية له من العدد أنه لا يقع علنا تفرح به الأُسرة . ولكنه سراً لا يعرف به أحد .

إنه لا يلزم صاحبه بأية مسؤولية مالية نحو النساء اللاتى يتصل بهن. بل حسبه أنه يلوث شرفهن . ثم يتركهن للخزى والعار . والفاقة وتحمل آلام الحمل والولادة غير المشروعة .

إنه لا يُلزم صاحبه بالاعتراف بما نتج عن هذا الاتصال من أولاد . بل يعتبرون غير شرعيين ، يحملون على جباههم خزى السفاح ما عاشوا . ولا يملكون أن يرفعوا بذلك رأسا .

إنه تعدد قانونى من غير أن يسمى تعدد الزوجات . خال من كل تصرف أخلاقى أو يقظة وجدانية . أو شعور إنسانى .

إنه تعدد تبعث عليه الشهوة والأنانية . ويفر من تحمل كل مسؤولية فأى النظامين ألصق بالأخلاق . وأكبح للشّهوة . وأكرم للمرأة . وأدل على الرقى وأبر بالإنسانية ؟

إساءة استخدام رخصة التعدد

ولا ننكر أن كثيرا من المسلمين أساؤوا استخدام رُخصة التعدد الذى شرعه الله لهم . كما رأيناهم أساؤوا استخدام رخصة الطلاق . والعيبَ ليس عيب الحكم الشرعى . بل عيب التطبيق له . الناشئ عن سوء الفهم . أو سوء الخُلُق والدين.

لقد رأينا منهم من يُعدِّد وهو غير واثق من نفسه بالعدل الذى شرطه الله للزواج بأخرى . ومنهم من يعدد وهو غير قادر على النفقة اللازمة لزوجتين . وما قد يتبع ذلك من أولاد ومسؤوليات وبعضهم يكون قادراً على الإنفاق . ولكنه غير قادر على الإحصان .

وكثير ما أدى سوء استعمال هذا الحق إلى عواقب ضارة بالأسرة . نتيجة تدليل الزوجة الجديدة وظلم الزوجة القديمة . التى ينتهى بها ميل الزوج عليها كل الميل . إلى أن يذرها كالمعلقة . التى هى لا مزوجة ولا مطلقة . وكثيرا ما أدى ذلك إلى تحاسد الأولاد . وهم أبناء أب واحد . لأنه لم يعدل بينهم فى الحقوق . ولم يسوِّ بينهم فى التعامل المادى والأدبى .

ومهما يكن من انحراف البعض فى هذا المجال . فلن يبلغ السوء الذى هبط إليه الغربيون بتحريم التعدد الأخلاقى . وإباحة التعدد غير الأخلاقى .

الإسلام قد قضى على الرذائل التى كانت منتشرة قبله

وقد قضى الإسلام على جميع الرذائل المنتشرة فى البلاد التى دخل فيها نوره وترك المسلمون عاداتهم القبيحة التى اعتادوها قبل الإسلام. انظر إلى الآداب الإسلامية التى تؤخذ من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠، ٣١] .

تجد أن الإسلام كان مثالياً فى آدابه وأخلاقه وأحكامه . فقد شجع كل فضيلة . وقضى على كل رذيلة وبين الحلال والحرام . والحَسن والقبيح ، ومنح كل إنسان حقه . ودافع عن الحرية الإنسانية . وغرس الخلق الكريم فى النفوس البشرية.

وإن من ينظر إلى الحياة الاجتماعية والتطور الاجتماعى . ويفكر تفكيرا منطقيا يمكنه أن يسمح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة عند الضرورة المُلِحَّة التى لا يمكن الفرار منها .

وإذا نظرنا إلى حالة العرب قبل الإسلام وجدنا أن الحروب كانت كثيرة بين القبائل . قد تحدُث لأَتفه الأسباب . وقد أدت هذه الحروب إلى قتل كثير من المحاربين من الرجال . ونقص الآن فى البلاد العربية. وزيادة عدد النساء . وقلة عدد الرجال . فهل نعجب إذا أباح الإسلام تعدد الزوجات ثم حدد العدد بقيود شديدة تتمثل فيها الإنسانية والعدالة والإنصاف؟

رأى السيد أمير على فى تعدد الزوجات

وقد بين المرحوم السيد أمير على القاضى الهندى فى كتابه الثمين: «روح الإسلام» أن تعدد الزوجات كان منتشراً فى الشعوب الشرقية القديمة . وكان الملوك يمنحون أنفسهم الحق فى أن يتزوجوا أكثر من واحدة . بلا قيود ولا شرط . وذكر أن الهنود فى قديم الزمان كانوا يتزوجون أكثر من امرأة. وأن المرأة الهندية كان لها الحق فى أن تتزوج أكثر من رجل وكانت هذه العادة منتشرة قديما فى الهند ولدى البابليين والأَشوريين وقدامى الفرس . ولم يكن هناك حصر لعدد الزوجات اللاتى يباح للرجل أن يتزوجهن . وللبراهمة فى الهند . حتى الوقت الحاضر الحق فى أن يتزوجوا من يريدون من النساء من غير تحديد العدد .

الفوضى فى الزواج قبل الإسلام

فالزواج قبل الإسلام كان فوضى . ولكن الإسلام قد حدد كل شىء. وبيَّن الحلال والحرام فى التزويج ونظم شئون الزواج . وراعى قواعد اللياقة والذوق والصحة والمنطق . ونصح للرجل أن يكتفى بزوج واحد حتى تتحقق السعادة فى الحياة الزوجية . وتتم العدالة وحدد التعدد بأربع زوجات بشرط القدرة والعدالة حتى فى الميل القلبى . وهذا شرط لا يمكن تحقيقه مطلقا . وكان قبل الإسلام التعدد فيه مباحا من غير حصر ولا عدد . ولكى تتحقق العدالة نزل قوله تعالى: ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ أى فتزوجوا واحدة . والعدل بين الزوجات محال . وتؤخذ الاستحالة من قوله جل شأنه :

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: ١٢٩] .

ولن للنفى والتأبيد . وهى تفيد العدالة . أو المساواة بين النساء غير ممكنة . ولو حرصتم على تحقيق العدالة . فلا تميلوا كل الميل إلى من تحبونها . فتتركوا الأخرى كالمعلقة التى لا هى أيم أى (التى لا زوج لها) ولا ذات بعل . وأن تصلحوا بالعدل . وتتقوا الجور والظلم فإن الله كان غفوراً رحيما . فالتعدد أبيح إذا وجدت ظروف استثنائية تقتضيه . وفى هذا حكمة لا يفقهها إلا ذو عقل سليم غير متعصب وقد لمسنا فى أوروبة أن القانون المدنى لا يسمح إلا بزواج امرأة واحدة . ولهذا كثيرا

ما يترك الرجل زوجته وأولاده وأُسرته ليعيش مع خليلة أخرى أو أكثر بغير زواج . فكثر اللقطاء والأبناء غير الشرعيين فى معظم البلاد الأوروبية ولكى تتحقق سعادة الأُسرة الإسلامية وتكون مترابطة متعاونة متحابة ينبغى أن يكتفى الرجل المسلم بزوج واحدة . وإذا وجدت الضرورة القصوى التى لا مفر منها فلا مانع من التعدد بشرط القدرة والعدالة المطلقة والمساواة التامة بين الزوجين كما أمر الإسلام .

تشريعات الإسلام فى الزواج هى أحسن التشريعات

فتشريعات الإسلام فى الزواج وتحديد عدد الزوجات وشروط الزواج . تُعدُّ أحسن التشريعات . لأنها تتفق مع العقل السليم . والمنطق الإنسانى ، والحياة الاجتماعية والنفوس البشرية . فى كل زمان ومكان. فالرجل الذى منح قبل الإسلام الحق فى أن يتخذ من الزوجات من يشاء . ومن الجوارى من يريد من غير حصر . لا يمكنك أن تقول له : تتزوج إلا زوجا واحدة . بل يجب أن تتدرج معه . وهذا ما حدث فى الإسلام . فقد نظم قوانين الزواج بطريقة لا مثيل لها فى ديانة من الديانات . فعدالة الإسلام لا جدال فيها . ولا ينكرها إلا الجاهلون بالديانات والتاريخ . والمبشرون المتعصبون المحترفون . الذين يعيشون على مهنة التبشير بأجر معين .

الإسلام قد نظم الصلة الزوجية

وإن من يقرأ عادات الأُمم والشعوب القديمة يجد أن قدماء المصرين كانوا يجيزون أن يتزوج الرجل أمه وبنته وأُخته . وأن أهل

مدين . والهنود والأثيوبيين والأشوريين كانوا يبيحون ما كان يبيحه هؤلاء وأولئك . وكان اليونان والرومان يمقتون هذا النوع من الزواج . وكان أهل أثينا وأهل أسبرطة يسمحون بتزوج الأخت غير الشقيقة . أما الأُخت الشقيقة فكانوا يحرمون تزوجها . وكانوا يترددون فى زواج بنات العم . أما العرب قبل الإسلام فلم يسمحوا بزواج الأم أو البنت أو العمة. ولم يبيحوا أن يتزوج الإنسان أختين فى وقت واحد ولكن الإسلام قد نظم الصلة الزوجية . وبين من يحل زواجها ومن يحرم .

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء : ٢٣] .

معانى بعض الكلمات :

وربائبكم : بنات زوجاتكم من رجل آخر. فبنت الزوجة محرمة مطلقا.

«وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم» زوجات أبنائكم الذين من أصلابكم . لا زوجة الابن المتبنى .

(سلف) : مضى : فإنه لا يعاقب على الماضى . بشرط ترك واحدة

منهن. والمحرمات من النساء فى القرآن الكريم محرمات فى العهد القديم إلا بنت الأخ وبنت الأُخت فقد سمح فى العهد القديم بتزوجهما. ولكنهما محرمتان فى الإسلام .

فالإسلام قد حرم أن يتزوج الإنسان أمه (وتشمل الأم الجدة من قبل الأَب أو الأم) وبنته . وأخته من جهة الأب أو الأم . وعمته . وخالته. وبنت أخيه . وبنت أخته وأمه من الرضاع التى أَرضعته قبل استكمال الحولين خمس رضعات . وأخته من الرضاعة وأم امرأته . وربيبته وهى بنت الزوجة ـ من غيره ـ التى دخل بها . وزوجة الابن والجمع بين الأُختين من نسب أو رضاع . وزوجة الأب .

قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢]

فالله قد نهى عن نكاح زوجة الأب . وحرمه . وعفا عما كان من ذلك الزواج قبل الإسلام . لأَنه أمر قبيح ممقوت مبغض عند الله .

كيف تتحقق السعادة الزوجية ؟

ولكى تتحقق السعادة الزوجية يجب ألا يحوم شبح الطلاق حول الزوجة . يجب أن تحترم حقوق المرأة فى الإسلام . وينظر إليها نظرة إسلامية عادلة . وتشعر أنها الشريكة الواحدة مدى الحياة . يجب ألا تزول تلك الرابطة الزوجية المقدسة لأسباب تافهة . وأن نحاول المحافظة عليها وإصلاحها بكل وسيلة .

يجب أن يكون هناك تفاهم بين الزوجين حتى يزول كل سبب يدعو إلى التعب المنزلى . يجب ألا يكون الطلاق هو الحل الوحيد للراحة بين الزوجين . يجب أن يتحمل كلاهما الآخر حتى يعيشا فى سعادة . وتكون الثقة متبادلة بينهما . بحيث يثق الزوج بزوجته وتثق الزوجة بزوجها . وإذا لم تكن هناك ثقة فلا راحة . ولا سعادة فى الحياة . يجب أن تكون ميولهما متفقة . والمحبة بينهما محققة . والإخلاص كاملا . وأن يعمل كل منهما لإرضاء شريكه ، وينكر نفسه . ولا يحب ذاته ، حتى تكمل السعادة المنزلية والزوجية.

ما أجمل هذا الشعور النبيل بين الزوجين . حين يقترح الزوج على زوجته أن يشترى لها بعض الملابس الضرورية فتقول له : إنك أكثر حاجة إليها منى .

ما أجمل الحياة الزوجية حينما تربطها المحبة والسعادة والإخلاص. والمشاركة فى الشعور والتعاون والتفاهم . والثقة المتبادلة . ونسيان الذات .

قد تطلب الزوج الطلاق لحاجة مالية . أو لفقر زوجها أو لمرضه . ولكن يجب أن تتذكر أنه يجب عليها أن تشارك زوجها فى السراء والضراء . والغنى والفقر . والصحة والمرض . والسعادة والشقاء . وتحتمل معه كل صعوبة . وتسافر معه إلى أى جهة . حتى يتغلبا معا على مشكلات الدهر . وينالا السعادة المرجوة فى الحياة .

فإذا لم ينجح الزوج اليوم فى عمله فلتساعده زوجه حتى ينجح فيه

فإن النجاح يأتى بالتدريج . بعد التعب والمشقة . وهنا يكون له لذة وحينما ينجح الزوج يجب أن يدع زوجته تشاركه هذا النجاح . وتتمتع به معه وتقاسمه السعادة .

ولكى تتحقق السعادة الزوجية يجب أن يخلص الزوج لزوجته . والزوجة لزوجها الإخلاص كله . ويقدر كل منهما الآخر . فلا يتهكم الزوج بزوجته . ولا تهزأ الزوجة بزوجها بل يجب أن يكون كل منهما موضع احترام للأخر . ويكون رقيقا فى إجابته ، وتكون لطيفة فى إجابتها . ويجب أن يتذكر الزوج أن لزوجته شخصية يجب أن تحترم . فلا يتدخل فى كل شأن من شئونها . ولا يَعُدُّهَا آلة مهملة . بل يَعُدُّها عضوا عاملا فى بيته . مسئُولا عن إدارته . يجب أن يضحى الرجل بكل شىء فى سبيل راحة زوجه . وتضحى هى بكل ما تملك فى سبيل راحة زوجها . يجب أن يتبادلا الأفكار والآراء فى شئون حياتهما . ومستقبل أولادهما . حتى يشعر الجميع بالسعادة وأن الشعور المتبادل بين الزوجين أساس للسعادة الزوجية .

حق الزوج على زوجته

كما جاء فى نص الحديث الشريف الذى ندور حوله . والذى بدأ بحق الزوج على زوجته قبل حق الزوجة على زوجها . إشارة إلى هذه الحقيقة التى يجب على الزوجة بصفة خاصة أن تلاحظها وحسبها ما روى من الأحاديث الشريفة.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ. قالت

أنا فلانة بنت فلان . قال . قد عرفتك فما حاجتك ؟ قالت . حاجتى إلى ابن عمى فلان العابد . قال : قد عرفته . قالت . يخطبنى فأخبرنى ما حق الزوج على زوجته ؟ فإن كان شيئا أطيقه تزوجته قال: من حقه أن لو سال منخراه دما وقيحا فلحسته بلسانها ما أدت حقه. لو كان ينبغى لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها إذا دخل عليها لما فضله الله عليها . قالت والذى بعثك بالحق لا أتزوج ما بقيت الدنيا» (رواه البذارى . والحاكم كلاهما عن سليمان بن داود اليمامى عن القاسم بن الحكم وقال صحيح الإسناد) .

قوله ﷺ(لما فضله الله عليها) اللام فى قوله «لما» للتعليل وما مصدرية والتقدير : من أجل تفضيل الله إياه عليها بقوله سبحانه وتعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جثعم أتت رسول الله ﷺ . فقالت يارسول الله . أخبرنى ما حق الزوج على الزوجة فإني امرأة أيم . فإن استطعت . وإلا جلست أيما. قال «فإن حق الزوج على زوجته : إن سألها نفسها وهى على ظهر قتب أن لا تمنعه نفسها . ومن حق الزوج على الزوجة أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه . فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء . وملائكة الرحمة . وملائكة العذاب حتى ترجع قالت لا جرم . لا أتزوج أبدا» (رواه الطبراني).

الأيم : هى التى فقدت زوجها .

«على ظهر قتب»أى هى راكبة على بعيرها .

«أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه» أى وهو حاضر فى بيته .

«لا يقبل منها» أى لا ثواب لها عليه .

«حتى ترجع» تظل تدعو عليها باللعنة والطرد والإبعاد من رحمة الله إلى أن تعود إلى بيتها .

«لاجرم» أى لا شك . وقيل معناه . قطعا . أو حقا .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(المرأة لا تؤدى حق الله عليها حتى تؤدى حق زوجها كله . ولو سألها وهو على ظهر قتب لم تمنعه نفسها) رواه الطبرى بإسناد جيد» .

وأول هذه الحقوق التى على الزوجة لزوجها ـ كما نص الحديث الأول الذى نتحدث عنه «أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون» .

قال ابن جرير : معناه أن لا يمكن من أنفسهن أحدًا سواكم» ورد هذا بأنه لا معنى حينئذ لاشتراط الكراهية : لأن الزنى حرام على الوجوه كلها . وأجاب بعضهم عن هذا الإعتراض بأن الكراهية فى جماعهن تشمل عادة الكل سوى الزوج .

وقال الخطابى «معناه أن لا يأذن لأحد من الرجال فيتحدث إليهن . وكان الحديث من الرجال إلى النساء من عادات العرب لا يرون ذلك عيبا ولا يعدونه ريبة . فلما نزلت آية الحجاب وصارت النساء مقصورات نهى عن محادثتهن والقعود إليهن» وقيل : المختار منعهن عن

إذن أحد فى الدخول والجلوس فى المنازل حتى ولو كان محرما أو امرأه إلا برضاء الزوج .

ومعنى هذا : أن يشعر الزوج بدوره فى بيته . وأن يحس بمكانته داخل أُسرته . حتى لا يختل الأمر ويفلت الزمام .

فروح التمرد والعصيان لا يصلح بها شأن ولا يستقيم معها عمل ولا تسعد بها حياة وأى ضير فى أن تطيع المرأة من يشقى لإسعادها ومن يبذل لراحتها . إن ذلك حق طبيعى لذلك الكادح المتعب . والمجاهد الدائب . الذى يعظم حقه وتجب طاعته فى الخير والمعروف . وقد أراد الرسول صلوات ربى وسلامه عليه أن يقرر تأكد حق الزوج ووجوب تقديره . فصوره بهذا الأُسلوب الرائع الذى يورث المهابة والتقديس قال: لو كنت آمرا أحدًا أن يسجد لأحد . لأمرت الزوجة أن تسجد لزوْجها» (رواه أبو داود والحاكم) .

إنها سجدة عرفان وتقدير . تلك التى تسجدها الزوجة لو كان لأحد من العباد أن يسجد لآخر . أما ولا سبيل إلى السجود . فليكن شعور الحمد والشكر أن يفعم قلب الزوجة ويمتلكها . إن الزوج أمير . وراع عامل . ومن النصفة أن يطاع الأمير فى حدود الطاعة .

أما أن تشق عليه العصا وتعلن الثورة بلا جريرة ولا وزر . فذلك هو الجحد والكفران ولعل أول وأجبات على المرأة نحو زوجها طاعته فيما ليس معصية . ولا مفضيا إلى مضرة . فإنه لا ضرر ولا ضرار . ولا

طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. وطاعة المرأة لزوجها فى هذا الإطار أمر له كبير الأثر فى صفاء الجو العائلى . ولهذا عظم ثواب الزوجة المطيعة . حتى ساوى أمر المجاهد فى سبيل الله.

وقد أخرج البزار والطبرانى من حديث ابن عباس أن امرأة قالت يارسول الله : أنا وافدة النساء إليك . ثم ذكرت ما للرجال من الجهاد والأجر والغنيمة . ثم قالت . فما لنا من ذلك ؟

فقال ﷺ «أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج . واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن يفعله» .

فلتكن أختنا المسلمة ، قارئة هذا الكتاب . مطيعة لزوجها . ومعترفة بحقه عليها حتى تكون من المجاهدات . وحتى تكون كذلك من المنتفعات بتوجيهات الرسول ﷺ . التى هى أساس سعادتها الزوجية والأُسرية . والتى هى من أهلها كما عرفت وقرأت فى نص الحديث : «أن لا يطأ فراش زوجك من يكرهه. وقد شرحت ذلك المعنى المراد من هذا وخلاصته هو أنه لا يجوز لك شرعا ولا وفاء : التحدث مع أى إنسان يكرهه زوجك فضلا عن السماح له بدخول بيته . وفى خلوة قد تكون سببا كبيرا فى غرس بذور الشك فى داخل هذا البيت بصورة قد تؤدى. وهذا هو ما يحدث غالبا - إلى هدم هذا البيت هدما معنويا بل وحسيا - يكون سببا فى ضياعك وضياع زوجك وضياع أولادكما .

وذلك لأن الشيطان لا ينجح غالبا إلا إذا استعمل سلاح المرأة فى مكائده .

وقد قرأت فى كتاب «تلبيس إبليس» أن إبليس قال للمرأة «أنت نصف جندي» ولهذا فقد حذر الرسول ﷺ من الخلوة بالنساء . فقال فى حديث روى عن أبى أُمامة رضى الله عنه «إياك والخلوة بالنساء. والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما . ولأن يزحم رجل خنزيرا متلطخا بطين . أو حماة خير له من أن يزحم منكبه امرأة لا تحل له» حديث غريب رواه الطبرانى .

فعلى الزوجة الصالحة أن تلاحظ هذا . فلا تمكن شياطين الإنس والجن منها . وتحافظ على سمعتها وكرامتها حتى من مجرد الشبهة .

ففى الحديث الشريف «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» وعلى الرجل العاقل الذى لا يريد خراب البيوت . والذى يدرك تماما خطورة الخلوة بالزوجة . بصفة خاصة ، حتى ولو كان حسن النية أن لا يدخل بيتا فى غياب صاحبه بعدا عن الشبهة . وحرصا على عمار هذا البيت .

اللهم إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا على شريطة أن يكون هناك محرم بينها وبينه كما قرأنا فى نص الحديث السابق . الذى يقول فيه الرسول ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينها وبينه محرم» .

وذلك لأنه كما وضح الرسول ﷺ فى حديث آخر حيث يقول «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» .

وكيف يقبل رجل عاقل . وهو يكره أن يحدث هذا من جانب زوجته فى بيته .؟

إنه إن قبل هذا .. فهو ديوث يقر الخبث فى أهله .

إن مثل هذا «المجرم» فى حق نفسه . وفى حق غيره . والذى حرم عليه الجنة . كما جاء فى الحديث الشريف الذى يقول قيه الرسول ﷺ «ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر : والعاق لوالديه . والديوث الذى يقر فى أهله الخبث» رواه أحمد وقال صحيح الإسناد.

إن مثل هذا لا يجوز له أبدا أن يدخل بيوت الشرفاء . حتى لا يكون سببا فى خرابها وتلويثها وعلى الزوج العاقل أولا والمؤمن ثانيا أن يلاحظ كل هذا . خاصة وأن النبى ﷺ قد أوصاه بهذا فقال «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي» .

فمعلوم أن الطعام عادة يؤكل فى البيت .

إنه أيضا إذا سمح لغير التقى بدخول بيته فى حضوره أو عدم حضوره . أو إذا رضى من زوجته هذا : سيكون «ديوثا» يقر الخبث فى أهله . وخصوصا إذا كان من الصنف الذى يسمح لزوجته بمخالطة الرجال والخلوة بهم واللعب معهم . فعليه أن يمنع هذا حتى لا يدفع الثمن الذى يشير إليه الشاعر فى قوله:

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
ان الزنا دين فان سلفته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
من يزن بامرأة بألفى درهم فى بيته يزنى بغير الدرهم

لو كنت حــرا من ســلالة طاهر   مـا كنت هتـاكـا لحـرمـة مـسلم

الحق الثـانـى من حـقــوق الزوج على الزوجــة هو « ولا يـأذن فى بيوتكم لمن تكرهون» وهذا الحق أيضا مرتبط بالحق السابق .

وخلاصته كذلك . أنه لا يجوز للزوجة العاقلة المؤمنة أن تأذن لأى إنسان حتى ولو كان محرما أو امرأة بدخول بيتها ـ بيت الزوجية ـ ما دام زوجها يكره ذلك .

هناك أسباب «جوهرية» لهذه الكره . يرى الزوج بسببها الصلة بهذا الإنسان أو تلك الإنسانة : إبقاء على سعادته الزوجية .

فقد تكون هذه المرأة بصفة خاصة من المفسدات للعلاقات الزوجية. وقد يكون الرجل المحرم كذلك من النوع الذى ينقل أسرار البيوت فيوغر صدر الزوجة على زوجها . بصورة قد تكون سببا فى عدم استقرار هذا البيت الذى ترفرف فوقه راية المحبة أو حمامة السلام .

ولهذا كان من الحكمة تنفيذ رغبة الزوج فى عدم الإذن بدخول مثل هؤلاء المفسدين بيته . حتى ولو كانوا محارم أو أقارب من ناحيته أو من ناحية زوجته وخصوصا عدم حضوره .

فللبيوت ـ كما قرأت فى كتاب الدين والأدب ـ قداسة وحرمة . وللمنازل شرف وسمعة ولخلوتنا فى بيوتنا ستر وحصانة لا يجرؤ على خرقها إلا ذو خيانة.

فى بيوتنا أسرار وأسرار لا يحب الدين أن تقع عليها الأنظار . وفى

منازلنا أعراض لا ينبغى أن تخدش أو تمس . وخفا مستورة لا تكشف ولا تجس . دورنا موضع أسرارنا وحاجتنا وملتقى زوجاتنا ومرتع أبنائنا وبناتنا . فمن الحرام هتك أسرارنا . وهتك حاجبها والاطلاع على أسرارها . فقد تعرض لنا فى منازلنا حالات غير مرضيات نكون فيها متبذلين وتكون السيدات متبذلات . ونكره أن يطلع عليها غريب أو يراها بعينه قريب . بل نكون فى صفة نكشف فيها العورات وتكون فيها السيدات عاريات أو شبه عاريات لذلك شرع الإسلام . بصفة عامة . آداب الاستئذان : حبا فى الاحتياط والسلامة والاطمئنان ومنعا للأنظار أن تتطلع إلى ما وراء الحجب والأستار إرشادا لذوى الأبصار أن يغضوا أبصارهم عن الأسرار .

جاءت امرأة من الأنصار وقالت : يارسول الله إنى أكون فى منزلى على حال لا أحب أن يرانى أحد عليها من والد أو ولد ولا يزال يدخل على رجال من أهلى وأنا على تلك الحال التى أكره أن يعلمها الناس فهل من أدب يمنع تحصينا للعرض وتكريما للمرء حتى لا يدخل علينا الا بإذن ؟ .. فنزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور: ٢٧].

وتستأنسوا : أى تستأذنوا

وظاهر الآية واضح الدلالة على المعنى الذى ترمى إليه وهو النهى عن الدخول إلى البيوت من غير استئذان . وقد أشبع المفسرون من السلف الصالح هذا التفسير بحثا فقالوا أن المراد منه وضع الآداب

دقيقة عالية لنظام الاستئذان فقد ورد فى الأحاديث وأقوال الأئمة . إن الرجل لا يجوز له أن يدخل بيتا غير بيته إلا بعد أن يستأذن أهله فى الدخول . فإن أذن له بدأهم بالسلام قبل كل شىء . أى قبل الكلام.

ومن آداب الاستئذان كما ورد فى الأحاديث أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طرقا . وفى رواية ليلا يتخونهم «يعنى لا يتهجم حتى على أهل بيته لئلا يلقاهم على حالة يكره أن يراهم فيها . أو يكرهون أن يكونوا عليها» .

وكذلك وجب الاستئذان فى الدخول على الأُمهات والأخوات لئلا يكن فى عورة ساعة الدخول .

ولقد قيد الله عباده بهذه الآداب الأخلاقية لأن فى اتباعها الوصول إلى السعادة التامة . وتجنب كل سبيل شائك من سبل المضرات الاجتماعية المؤذية التى قد تؤذن والعياذ بالله بالدمار وخراب البيوت وتقويض الأسر والعائلات والمعروف عقلا أن الرجل فى خلوته والمرأة فى خلوتها قد يجنحان إلى ما تقتضيه هذه الخلوة من الاستراحة المطلقة . فإذا بُوغت أحدهما وهو على هذه الحالة بغريب متهجم قد تقع من الحوادث ما لا تحمد عقباها علاوة على ما فى ذلك من المنافاة للآداب والأَخلاق .

فالقرآن الكريم قد حل هذه المعضلة حلا عادلا كريما بما أمر به من الاستئذان . حيث دفع به مضرة وحقق منفعة . فليتدبر المفكرون هذه الآراء الحكيمة السديدة . نفعنا الله بفهمها والعمل بها .

لذا كان رسول الله ﷺ يشدد فى أمر الاستئذان . فإذا وجد رجلا لا يحسن الاستئذان رده وأرجعه وعلمه كيف يستأذن .

وقفت نسوة بباب عائشة وأردن أن يدخلن عليها فمنعتهن وأرجعتهن وقالت لصاحبة لها : قومى إليهن . وعلميهن كيف يستأذن . فلما دخلن عليها قالت لهن . كان رسول الله ﷺ إذا أتى القوم لا يستقبل الباب من تلقاء وجهه . ولكن كان يقف من ركنه الأيمن أو ركنه الأيسر . ثم يقول . السلام عليكم . فالسلام قبل الكلام .

وكانت المرأة المسلمة فى العصر الإسلامى الأول أعمق إحساسا بالفضائل وأطهر ثوبا من تلك المسلمة الحالية . فهذه السيدة الأنصارية التى أنفت أن يراها أبوها أو أخوها وهى فى ثياب متبذلة وطلبت إلى رسول الله ﷺ وضع آداب لذلك. فاستجاب الله لرغبتها وحقق طلبتها وأنزل الله آية الاستئذان. ثم جاءت امرأة مسلمة فاضلة كملت ذلك الفضل إذ رأت فى بيتها شيئا تكرهه لا تقره كرامتها . وهى أسماء بنت مرثد . فذهبت إلى رسول الله ﷺ . شاكية وقالت : يارسول الله . إن غلماننا وخدمنا وأولادنا يدخلون ونحن فى حال لا نحب أن يطلعوا عليها وفى وقت نكره الدخول فيه. وهم لا غنى لهم عنا . ولا غنى لنا عنهم .

فنزل قول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ

عوْرَات لَّكُمْ لَيْس عَلَيْكُمْ ولا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طوَّافُون عَلَيْكُم بعضُكُمْ علَىٰ بَعْضٍ كَذَلك يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وإذا بلَغ الأطْفَالُ منكُمُ الْحُلُم فَلْيَسْتَأْذنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذين من قَبْلِهِمْ كَذَلك يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياته وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور: ٥٨، ٥٩] .

فكانت تلك الآيات نورا على نور . فقد تممت الآداب وشرحت الصدور واستوحت النبل وزينت الدور . والفضل فى ذلك يرجع إلى عفة المرأة المسلمة السابقة . وإلى كرامة السيدة المسلمة السالفة التى أعطاها النبى ﷺ سلطة . أو حرية التصرف مع الرجل الذى يدخل عليها بغير إذن فيقول المصطفى ﷺ فى حديث رواه مسلم عن أبى هريرة قال . قال أبو القاسم ﷺ :

لو امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته ـ أى رميته بحصاة ـ ففقأت عينه . لم يكن عليك جناح» أى إثم .

فلنستفد جميعا بهذه الأحكام الهامة ولتستفيد الزوجة الصالحة بصفة خاصة.

بكل هذا حتى لا تسمح لأحد أيا كان بدخول بيتها إلا بإذن زوجها . وخصوصا من يكرهه . طاعة لزوجها . وحفاظا على سعادتها وسعادة أبنائها .

وإذا كنا قد تعرضنا لموضوع الاستئذان فهناك آداب أخرى ذكرها أبو حامد الغزالى فى كتاب أدب الدنيا والدين . أرى من الخير كذلك أن أذكر بها . وهى . المشى بجانب الجدار . ولا يقابل الباب .

والتسبيح والتحميد قبل الدق والسلام بعده وترك السمع إلى من فى المنزل . واستئذان بعد السلام فإن أذن له . أى أذن له رب البيت بالدخول . وإلا رجع ولم يقف . ولا يقول : أنا . بل يقول فلان إذا استفهم . أى يسمى نفسه . وإذا كان الرسول ﷺ . قد ركز على هذين الحقين المرتبطين ببعضهما البعض واللذين هما حق للزوج على زوجته كما عرفنا فى نص الحديث .

فهناك حقوق أخرى للزوج على زوجته ، منها :

أن لا تخرج من بيته إلا بإذنه . فقد روى البيهقى بسنده عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : **«ولا تخرج من بيته إلا بإذنه . فإن فعلت لعنتها الملائكة . ملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى تتوب أو ترجع قيل : وان كان ظلما ؟ قال وأن كان ظلما..»** الحديث وأن تعطى شيئا من بيته إلا بإذنه .

وأن لا تصوم يوما واحدًا تطوعا إلا بإذنه .

وأن لا تمنعه نفسها .

فَعَن أبى هريرة رضي الله عنه . عن النبى ﷺ قال : **«لا يحل للمرأة ان تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه . ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه وما أنفقت من نفقة من غير أَمره . فإنه يؤدى إليها شطره»** رواه الحاكم فى المستدرك وصححه وأقره الذهبى .

فمعنى «أن تصوم وزوجها شاهد» أى لا يحل لها أن تصوم وزوجها

حاضر غير مسافر إلا أن يأذن لها هو فى الصيام . والمراد صوم التطوع وأما صوم الفرض أو النذر فلا يحتاج إلى إذن منه لأنه واجب حتم . فلا يتوقف على إذن أحد .

وقد حرم عليها الصوم مع حضور زوجها لأنه ربما تاقت نفسه إليها فدعاها إلى نفسه فوجدها صائمة . ولا شك أن أداء حق الزوج أهم من صوم التطوع. وعن طلق بن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وان كانت على التنور**» رواه الترمذى وقال : حديث حسن والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه . أى إذا دعاها لقضاء حاجته معها وجب عليها أن تجيبه مهما كان العمل الذى تباشره وان كانت تخبز على التنور وهو ما يخبز فيه وذلك مشروط بعد خوفها التلف فإنه إضاعة مال .

ومن حق الزوج على زوجته :

أن تسرى عنه . وتخفف من أعباء حياته .

وتشيع روح التفاؤل والبهجة والأمل فى نفسه .

ومؤازرته والوقوف بجانبه فى بأساء الحياة وسرائها .

وتفتح أمامه آفاق الأمل فى مشاريعه وأعماله .

وتهيئ له مناخ الاستقرار الذى ينشط فيه للعمل الصالح المثمر .

وحين ترى بعض آماله عسيرة التحقيق بالنسبة إلى إمكانياته المحدودة . ففى استطاعتها أن تعينه على الوصول إلى الأهداف

القريبة والتى تدخل فى امكانه دون أن تلقى فى روعه أنه شخص مغرور . أو أن تحقيق أمله ضرب من الخطأ . أو نوع من المحال .

وإذا كانت تملك مالا خاصا بها . فإنها تستطيع كذلك أن تقف بجواره به . تأكيدًا لحبها له وتعاونها معه .

حق الزوجة على زوجها

والخطاب للأزواج بصفة عامة . كما فى الحديث الأول : «**أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن**» .

وفى الحديث الثانى ، وهو إجابة على سؤال السائل . «**أن تطعمها إذا طعمت . وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه. ولا تقبح . ولا تهجر إلا فى البيت**» فمعنى أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن : أى فيما يلزمهن من كسوة وطعام بالمعروف . ومعنى أن تطعمهما إذا طعمت : أى من طعامك الذى تأكل منه ، فليس المراد أنه لا يجوز أن تأكل حتى تأكل معه . بل المراد الحث على المبادرة إلى إطعامها وكسوتها كما يفعل ذلك عادة فى نفسه .

وكل هذا واجب عليه كزوج مسئول مسئولية كاملة عن زوجته وكل ما تحتاج إليه من متطلبات معيشته . وفى حدود طاقته . قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق : ٧] .

وليس من المروءة والرجولة أن ينفق الزوج على نفسه بسعة. وعلى

زوجته وبنيه ببخل وتقتير .. وقد روى عن وهب بن جابر. قال ، مولى لعبد الله بن عمر قال له : إنى أريد أن أَقيم هذا الشهر ههنا ببيت المقدس ؟ فقال له . تركت لأهلك ما يقوتهم هذا ؟ قال . لا . قال . فارجع إلى أهلك فاترك لهم ما يقوتهم . فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «**كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت**» رواه أحمد فى مسنده وذكر محققة أن إسناده صحيح» .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ «**دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة . ودينار أنفقته على أهلك . ودينار تصدقت به على مسكين . أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك**» رواه مسلم .

فمعنى أنفقته فى سبيل الله . أى فيما يلزم الجهاد لإعلاء كلمة الله عز وجل.

وفى رقبة : أى فى تحرير رقبة مؤمنة وتخليصها من الرق.

وعلى مسكين : أى الذى لا يجد ما يكفيه من القوت .

وعلى أهلك : أى على من تعولهم من زوجات وأولاد .

وأعظم أجرا : أى أن أعظم هذه الدنانير أجرًا أو أكثرها ثواباً هو الذى تنفقه على عيالك .

وعن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : «**أول ما يوضع فى ميزان العبد نفقته على أهله**» رواه الطبرانى فى الأوسط .

إن أول مـا يوضع من الحسنات فى ميزان العبد يوم القيامة هو مـا أنفقه على أهله وعياله» أى على من تلزمه نفقته ومئونته من نحو زوجة وأصل وفروع وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال سمعت رسو الله ﷺ يقـول : «**إن الرجل إذا سقى امـرأته من الماء أجـر**» . قـال . فـأتيـتـهـا فسقيتها وحدثتها بما سمعت من رسول الله ﷺ» رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط .

وأجر : أى أثيب على حمله الماء إليها .

والنفقة واجبة على الزوج ولو كانت زوجته موسرة . على أن النفقة على الزوجة والأبناء لن تذهب بددا . ومـا دام يتـوخى بذلك أن يقـوم بواجبه الدينى والاجتماعى ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

فعن ابن مسعود الأنصارى . عن النبى ﷺ قال : «**إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة**» رواه البخارى ومسلم .

وقد وضع الإسلام مسئولية الرجل فى الإنفاق على بيته فى المقام الأول واعتبر ذلك الإنفاق عند الموازنة هو الأمثل والأفضل .

فعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله . ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله . ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله**» قال أبو قلابة. وبدأ بالعيال . ثم قال وأى رجل أعظم أجرًا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به أو يغنيهم . (رواه مسلم وأبو داود. والترمذى . والبيهقي) .

وقد قرر الإسلام فضل هذا البذل المشكور . فجعله من أسباب قوامة الرجل على المرأة قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] .

والنفقة واجبة للزوجة مادامت تؤدى تكاليفها وتلتزم حدها. فإن تمردت على الفطرة وحادت عن النهج . وتنكبت عن الطريق . ففوتت على الزوج مقصود الحياة الزوجية فليس لها هذا الحق .

ويتمثل نشوز الزوجة الذى يحرمها من حق النفقة فى التصرفات التى تحول بين الزوج وبين الانتفاع بالزوجة بالوجه المعقول . كأن تضارهُ بالامتناع عن المباشرة بغير ما تعذر . أو تهجر بيته متجنية أو تنفق أوقاتها خارج البيت بغير إذنه لأن النفقة إنما وجبت للزوجة ببذلها نفسها ووقفها وقتها . وجهدها على راحة الزوج وإسعاده ومنحه ثمار الحياة الزوجية. فإذا فاته هذا عنداً . فلم يلتزم بالإنفاق ؟ إنما يحمل عبء الصراع والكدح خارج البيت مقابل أن تهيئ له زوجه السعادة والأَمن داخل البيت .

أما إذا قصر الرجل فى كفاية زوجه المستقيمة واعالتها وهو واجد قادر . قال رسول الله ﷺ : «أفضل الصدقة عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول تقول المرأة لزوجها . إما أن تطعمنى وإما أن تطلقنى . ويقول العبد : اطعمنى استعملنى . ويقول الابن أطعمنى إلى من تدعني..» ؟ رواه البخارى والحديث . كما يقول صاحب كتاب الأَسرة فى الإسلام

بعد ذلك . تصويرًا لوجوب النفقة وتأكيدًا ثم يقول : وقد استدل بعض العلماء بقوله : «تقول المرأة أما أن تطعمنى وأما أن تطلقني» على أنه يفرق بين الرجل وزوجته . إذا أعسر بالنفقة. واختارت فراقه . وقد رأى بعضهم انه إذا أعسر بالنفقة تؤمر الزوجة بالاستدانه عليه ويلزمها الصبر . وتتعلق بذمته .

- لقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] .

وهذا يتفق مع حقيقة الزوجية . إذ هى عهد على التعاون وميثاق على المصابرة فى مواجهة الحياة .

وليس من العدل أن تستمتع المرأة بخير الرجل . حتى إذا أعسر وأقتر انصرفت عنه وولت الأدبار مؤثرة الفرار . بل عليها أن تشاركه صعاب الحياة وأن تؤمل الخير فى فضل الله.

قال الله تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق : ٧] .

ونفقة المرأة تشمل الطعام والشراب والكسوة وما تستلزمه الحياة الطبيعية اللائقة بالزوجين دون إسراف ولا تقتير ...

والإسلام يجنح دائما إلى الوسط ولا يوصى بالتعليق بالترف أو الحرص على التنعم بل يؤثر عنصر المجاهدة والتحمل على الاستماتة وتكلف ألوان المتاع . فقد جاءت فاطمة ابنة الرسول ﷺ تطلب من أبيها خادما يعينها على عمل البيت . فنصحها بالإكثار من الذكر والتسبيح والتيقظ للعبادة فذلك خير لها . القصة فى البخارى .

وليس هناك بأس فى اتخاذ الخادم . ولكن الأولى بذل الطاقة الممكنة . بدلا من العبث وصرف الجهد فيما لا يفيد .

ومن حق الزوجة على زوجها حسن المعاشرة .

ان حياة يسودها العدل والتسامح والرحمة لا تترك منفذا للشقاء والرجل فى نظر الإسلام راع . وكذلك هو فى فطرة الحياة والناس . فعلى الراعى أن يحسن القيادة . وأن يرتفع عن الضغينة والشر فلا يستبد ولا يتعنت ولا يظن أنه سيد أَمام رقيق .

ذلك أولى بالرجل . كى يسعد زوجته . وكى يسعد هو . وكى تؤتى حياتهما معا ثمارها المرجوة وتؤدى دورها المنشود . وهذا معنى تكرار الوصية بالنساء فى الكتاب والسنة .

وفى خطبة الوداع قال النبى ﷺ «استوصوا بالنساء خيرا . فإنهن عوان عندكم . لستم تملكون منهن شيئا غير ذلك . إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا لهن سبيلا» .

لقد ذكر الحديث بأن الزوجة تحبس نفسها على راحة الزوج وإسعاده حتى تكون لديه كالأسير . لذا يجب أن ينظر إليها بعين ملؤها الحب والعطف .

وبين أن عقوبة المرأة إذا جنت تكون بقدر الذنب ، تأديبا لا انتقاما . ووضع عنها البغى وحرم العدوان .

وقد رأينا فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

أن الإسلام يوصى بالإعفاء والمسامحة والإعراض عن الهفوات وترك تتبع العثرات قال الإمام الغزالى :

وللمرأة على زوجها أن يعاشرها بالمعروف وأن يحسن خلقه معها» قال : وليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها . بل احتمال الأذى منها. والحلم عن طيشها وغضبها . اقتداء برسول الله ﷺ . فقد كان أزواجه يراجعنه الكلام وتهجره إحداهن إلى الليل .

قال : وأعلى من ذلك أن الرجل يزيد عمل احتمال الاذى بالمداعبة فهى التى تطيب قلوب النساء . فقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق حتى روى أنه كان يسابق عائشة فى الجرى . فسبقته يوما فقال لها : «هذه بتلك» .

والإسلام ما فرض للمرأة احسان العشرة وكرم المخالطة إلا ليستقيم نظام البيت ويصلح أمره فلن يفيد معها البطش والانتقام ولن يصلحها الإيذاء والضرر قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] .

ثم لفت إلى سعة الأُفق الذى ينبغى أن ينظر منه الرجل إلى امرأته. فلا يحصر نظره فى عيب يعلمه فيها . أو خلق يكرهه منها . بل يقدرها جملة بما فيها من مزايا وعيوب . ويتهم نفسه فى تقدير العيب. فلعله متحامل عليها سيئ الظن بها . ولعل فيها من الخير ما لم يلتفت إليه .

قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩] . وطول الصحبة قد يحدث الملل . فيذهد المرء فيما لدى زوجته. ويبخسها قدرها . والعلاج أن يتذكر الزوج ما فيها من فضل وأن يستعرض ما تمتاز به من مواهب. فربما أصلح ذلك الشأن وجدد العهد .

قال ﷺ «لا يفرك مؤمن مؤمنة . إن كره منها خلقا رضى منها آخر» رواه الشيخان .

إن ذلك أجدى وأيسر . ومهما نقب الإنسان فلن يجد بريئة من الشوائب خالية من العيوب . قال الشاعر :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقد حمى الإسلام الزوجة من كل ألوان الغدر . وحرم تناولها بشىء من الأذى بغير حق . حتى مما تقتضيه طبيعة الرجل وهو الغيرة . فنهى عن ظن السوء بها ودفع عنها الريبة والاتهام وهذا داعية أمن وسلام . وإسهام فى حفظ الكرامة . وإحسان الظن .

والإسلام جملة يريد البيت جنة وارفة الظلال . وافرة البركات . بالسكينة والحب والمودة . ولذا أوصى بإكرام الزوجة وإحسان السلوك معها . فهو الطريق إلى اجتناء ثمارها ونيل النفع منها .

ولما كان إحسان السلوك هو السبيل كما عرفت إلى اجتناء ثمار الزوجة ونيل النفع منها ، فقد رأيت الا وبعد هذا التمهيد الهام عن

حسن المعاشرة .. ان أَسواق بعض النماذج السلوكية من حياة الرسول ﷺ مع زوجاته . أمهات المؤمنين . عليهن رضوان الله .

ذلك حتى نقتدى بالمثل الأعلى والزواج الكامل لصلوات الله وسلامه عليه فى معاملة زوجاتنا . فقد كان الرسول ﷺ مثال الرقة واللطف مع أزواجه . يداعبهن ويدخل السرور عليهن تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانوا الحبش يلعبون بحرابهم . فسترنى رسول الله ﷺ . وأنا أَنظر . فما زلت أنظر حتى كنت أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو . رواه البخارى .

وتقول رضى الله عنها : كنت ألعب بالبنات «لعب الأطفال» عند النبى ﷺ . وكان لى صواحب يلعبن معى فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه «يهربن» فيسربهن إلى فيلعبن معى «متفق عليه» .

وكان ﷺ فى غاية السماحة مع أَزواجه . فيصفح عنهن ويوسع صدره قال لعائشة «إنى لأعلم إن كنت عنى راضية . وإذا كنت على غضبى» . قالت . فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال أما إذا كنت راضية فإنك تقولين . لا ورب محمد . وإذا كنت على غضبى قلت لا ورب إبراهيم . قالت : قلت أجل والله يارسول الله ما أهجر إلا اسمك» رواه البخارى .

وبعث الرسول ﷺ إلى نسائه فى مرضه . فاجتمعن . فقال. «إنى لا أستطيع أن أَمُر عليكن فإن رأيتن أن تأذن لى فأكون عند عائشة فعلتن؟ فأذن له» رواه أبو داود .

وروت كتب السنة النبوية أن النبى ﷺ كان إذا فرغ كان فى خدمة أهله . أى يساعدهم فى أعمال البيت .

ولما تزوج ﷺ صفية بين حيى ـ بعد غزوة خيبر . وعاد إلى المدينة . وتسامعت نساء الأنصار بها . جئن ينظرن إليها . وكان فيمن خرج عائشة . ولمحها ﷺ منتقبة على حذر . وانتظر حتى رأت صفية . فسألها ضاحكاً : كيف رأيت يا شقيراء ؟ فأجابت ـ وقد وجدت من الغيرة ما وجدت ... رأيت يهودية . فرد عليها بهدوء لطيف قائلا لها : لا تقولى ذلك . فإنها أسلمت وحسن إسلامها . (كتاب الإصابة جـ٨/١٢٧) .

وجاءته ﷺ أم المؤمنين صفية رضى الله عنها تشتكى إليه حفصة وعائشة إذ فاخرتاها بأنهما القريشتان القريبتان . وهى وحدها الأجنبية الدخيلة . لم ينفعل ﷺ ولم يرى فى الغضب علاجا للموقف ولكنه فكر فيما يبدل غضبها رضا . ويعيد إليها مكانتها بينهن .

وفى وقار حكيم لفت نظرها إلى ناحية هامة ترفع من قدرها وتجعل رأسها فى السماء . فقال لها . ألا قلت . وكيف تكونان خيرا منى . وزوجى محمد . وأبى هارون وعمى موسى ؟ (المستدرك جـ٤/٢٩) .

وروى أنس رضي الله عنه قال :

كان النبى ﷺ عند بعض نسائه . فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام . فضربت التى فى بيتها النبى ﷺ يد الخادم فسقطت الصحفة . فانفلقت . فجمع النبى ﷺ فلق الصحفة . ثم

جعل تجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة ويقول . غارتْ أُمكم . ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها . فدفع الصحفة الصحيحة التى كسرت صحفتها . وأمسك المكسورة فى بيت التى كسرت فيه» .

(البخارى ٢٠/٣٠٩) .

وكانت الغيراء هى عائشة رضى الله عنها . والتى بعثت بإنائها هى صفية . وقيل . وكان النبى ﷺ لا يسمح لزوجة من أُمهات المؤمنين بأن تقول عن الأخرى من زوجاته كلمة نقص فى مجلسه .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت . قلت للنبى ﷺ :

«حسبك من صفية كذا وكذا . قال بعض الرواة : تعنى قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته . قالت : وحكيت له إنسانا فقال : ما أحب أنى حكيت إنسانا وإن لى كذا وكذا» (رواه أبو داود والترمذى وقال هو حديث حسن صحيح) .

ومعنى مزجته : أى خالطته .

بل وحسبك أن تعلم كذلك بأن النبى ﷺ قد أوصانا بهذا : فقال «استوصوا بالنساء خيرا . فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه . فإن ذهبت تقيمه كسرته . وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

وفى رواية فى الصحيحين «المرأة كالضلع . إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج» .

وفى رواية لمسلم «أن المرأة خلقت من ضلع ولن تستقيم لك على طريقة . فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج . وإن ذهبت تقيمه كسرتها وكسرها طلاقها» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا . وخياركم خياركم لنسائهم**» . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وليكن شعورك نحوها شعور عمر بن الخطاب رضى الله عنه . عندما ذهب الرجل إليه ليشكو إليه زوجته . واليك مضمون القصة :

كان أعرابى يعاقب زوجته . فعلا صوتها صوته . فساءه ذلك منها . وأنكره عليها . ثم قال . والله لأشكونك إلى أمير المؤمنين . وما إن كان بباب أمير المؤمنين ينتظر خروجه . حتى سمع امرأته تستطيل عليه . وتقول : اتق الله ياعمر فيما ولاك . وهو ساكت لا يتكلم . فقال الرجل فى نفسه وهو يهم بالانصراف : إذا كان هذا هو حال أمير المؤمنين فكيف حالى؟ وفيما هو كذلك . خرج عمر . ولما رآه . قال له . ما حاجتك يا أخا العرب ؟ فقال الأعرابى : يا أمير المؤمنين . جئت إليك أشكو خلق زوجتى . واستطالتها على . فرأيت عندك ما زهدنى . اذ كان عندك أكثر مما عندى . فهممت بالرجوع . وأنا أقول :إذا كان هذا هو حال أمير المؤمنين مع زوجته . فكيف حالى . فتبسم عمر رضي الله عنه وقال : (ياأخا الإسلام . إنى احتملتها لحقوق لها على

إنها طباخة لطعامى

خبازة لخبزى

مرضعة لأولادى

غاسلة لثيابى

وبقدر صبرى عليها يكون ثوابى) .

هذا بالإضافة إلى أنها أختك فى الإنسانية وأختك فى الإسلام . وشريكة حياتك وأم أولادك . وهى أيضا خير متاع لك إن كانت صالحة.

وإذا كنا نطالب الزوج بهذا . فلابد أن تعينه الزوجة الصالحة على تحقيق هذا الفهم الصحيح لجوهر الزوجة ومعدنها الأصيل . وذلك بمثل أن تنفذ مثل هذه الوصية التى أوصت بها أم عربية ابنتها فى ليلة عرسها وهى :

«أى بنية .. أن الوصية لو تركت لعقل وأدب . أو مكرمة فى حسب لتركت ذلك منك ولزويته عنك . ولكن الوصية تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل .

أى بنية .. إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس عن الزوج . ولكن للرجال خلق النساء كما لهن خلق الرجال.

أى بنية .. إنك قد فارقت البيت الذى منه درجت . إلى وكر لم تعرفيه . وقرين لم تألفيه . فأصبح بملكه عليك ملكا . فكونى له أَمة يكن لك عبدا . واحفظى عن خلالا عشرا تكن لك دركا وذكرا ..

فأما الأولى والثانية . فالمعاشرة له بالقناعة . وحسن السمع

والطاعة . فإن القناعة راحة القلب . وحسن السمع والطاعة رأفة الرب .

وأما الثالثة والرابعة . فلا تقع عيناه منك على قبيح . ولا يشم منك إلا طيب الريح واعلمى . أى بنية . أن الماء أطيب الطيب المفقود . وأن الكحل أحسن الحسن الموجود .

وأما الخامسة والسادسة . فالتعهد لوقت طعامه . والهدوء عند منامه فإن حرارة الجوع ملهبة . وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة . فالاحتفاظ بماله . والرعاية على حشمه . أى ذوى قرباه . وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير ، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة . فلا تفشى له سراً . ولا تعصى له أمراً . فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره . وإن عصيت أمره وغرت صدره. واتقى الفرح لديه إن كان حزينا والاكتئاب عنده إذا كان فرحا . فإن الأولى من التقصير . والثانية من التكدير . واعلمى أنك لن تصلى إلى ذلك منه حتى تؤثرى هواه على هواك . ورضاه على رضاك فيما أحببت وكرهت» .

ومن حق الزوجة على زوجها .

كما يقول صاحب كتاب الأُسرة فى الإسلام . أن يحافظ على دينها ويراعى سلوكها ويهتم بتوجيهها إلى الخير والفلاح . فلا يدعها تستمرئ الاعوجاج أو تنحرف إلى المهالك .

وكما يهتم بسلامة جسمها . فعليه أن يهتم بسلامة دينها وخلقها وصحة اتجاهها ويكون رائدا بصيرا وناصحا واعيا .

وليس من الأمانة ألا يعبأ الرجل بفراغ زوجته من الدين وجهلها وانحرافها عنه ولا يعنيه إلا أستيفاء حقوقه الحسية وتوفير الراحة والمتاع لنفسه .

إن ذلك لا يستقيم فى نظر المسلم . فإنه قد أمر أن يحتجز أُسرته من العذاب . وأن يقيها شقاء الدنيا والآخرة . بأن يلفتها إلى دينها ويلحظ قيامها بفرائضه . وانتهاءها من مناهيه .. وبين الحق فى سورة التحريم : قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم : ٦] .

ولن يقى أهله من النار إلا بإحسان التوجيه ووعى الرقابة . والإسلام يفترض أساسا أن بين المؤمنين والمؤمنات ولاية الإيمان ونصحه . وأن بعضهم يوصى بعضا بالمعروف وينهاه عن المنكر ... فما بالك بزوجين مؤمنين ؟...

إن ذلك يؤكد الولاية والعهد . ويقوى عزائم الخير والرشد .

قال الله تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة : ٧١] .

فإذا تواصى الزوجان بالحق وتعاونا على عبادته ومرضاته. أورثهما ذلك سبقا إلى الخير وبلوغا إلى مدارج الطريق . فيعرفان بعد الفريضة النافلة .

وتقوى لديهم رغبة الطاعة وتهون عليهما مشقتها .

ولننظر فى قول الرسول ﷺ «رحم الله رجلا قام الليل فصلى وأيقظ امرأته . فإن أبت نضح فى وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت فى الليل فصلت وأيقظت زوجها . فأبى نضحت فى وجهه الماء» رواه أبو داود والترمذى إنها صورة رائعة لزوجين يتذوقان حلاوة الإيمان حلاوة الطاعة ولذة الإقبال على طاعة الواحد الديان . وهى صورة تعرض على الأنظار توجيها ولفتا إلى أن هذا حرى بالزوجين .

وفى عصرنا اختلت الموازين . فلم يصبح للدين قيمة بين الزوجين . وأصبح الاهتمام مقصورا على اللذات والشهوات . والجهد مصروفا إلى بلوغ مدارج الجاه والترف . ولم يعد أحد ـ الا القليل ـ ينظر إلى الدين والخلق نظرته إلى قيمة لا بد أن تصان أما إن كان الزوج مؤمنا أكتفى بنفسه . وكأنه يرى أنه لا تكليف على أهله. وقد كان لهذا الخلل أثر فى زعزعة الأُسرة ووهن قواها . إذ ضعف وازع الدين . فضاع الحق الواجب . ولم يدرك كل ما له وما عليه .

ولأمر ما أوصى الإسلام فى اختيار الزوجة بالحرص على ذات الدين . فإن الإيمان والاستقامة فى البيت ضرورة لراحة الزوجين وأمنهما .

إن الرجل راع وكل راع مسئول عن رعيته .

ومن حق الزوجة على زوجها أن يتزين لها كما تتزين له . وحتى يتأكد لك قيمة ذلك إليك هذين الخبرين .

أتت امـرأة بزوج لهـا أشـعث أغبـر . إلى أمـيـر المؤمنين عـمـر بن الخطـاب رضى الله عنه وقـالـت : يا أمـيــر المؤمنين . لا أنـا ولا هذا . خلصنى منه . فنظر إليه عـمـر . وعـرف مـا كـرهت منه . فـأشـار إلى الرجل . وقال له : اذهب بهذا وحـممه . وقلم أظافره . وخذ من شعره وآتنى به . فذهب وفعل ذلك . ثم أتاه. فأومأ إليه عمر . أَن خذ بيدها وهى لا تعـرفـه . فـقـالـت . ياعـبـد الله سـبـحـان الله . أبين يدى أَمـيـر المؤمنين . تفعل هذا ؟ فلما عـرفتـه ذهبت معـه . فـقـال عـمـر . هكذا فاصنعوا لهن . إنهن يحببن أَن تتزينوا لهن . كما تحبون أن يتزين لكم .

وروى أن شيخـا أشيب رأى امرأة أعجبه حسنها . فسـألها لك بعل ؟ قالت لا . فقال لها فإنى أخطبك . قالت . لمن تخطبنى . قال : أخطبك لنفسى . قالت . ولكن فى شيئا قد لا يعجبك . قـال .. ما هو؟ قالت : شيب فى رأسى . فأعـرض عنها . وهـم أن يفر . فقالت له : مهلا أيها الشيخ . فوالله ما فى رأسى شعرة واحدة بيضاء . وإنى لبنت عشرين . فـقـال لهـا . ولما تكذبين ؟ قـالـت . لأعلمك أننا مـعـشـر الـنسـاء نـكره من الرجال ما يكرهون منا . ونحب فيهم ما يحبون فينا .

فخجل الرجل وانصرف .

وقـد أعـجـبنى تعليق على هذين الخـبـرين للأسـتـاذ عـبـد الرحـمن الضبع فى كتابه الأَنابيش (جـ١) يقول فيه :

فقد كـرهـت المرأة من زوجها . إرسـال شعـره . وطول أظافره. وقذارة جسمه . حتى بدا إلى الحيوان أَقرب . ولهذا. فقد عـافت العشـرة فى ظلاله . وكـرهـت العيش فى كنفه . وقـد فطن إلـى ذلك سـيـدنا عـمـر .

وأمر فغيرت هيئته . ورد إلى ما يليق بالآدميين . ذكوراً كانوا أو إناثا من حسن التجمل . وكمال الهيئة . ونظافة البدن . وليس ذلك بدعا ولا مما ينكر. وإنما هو ما كان يفعله الرسول ﷺ . إذ كان يقول إذا لبس جديدا : «الحمد لله الذى كسانى ما أتجمل به فى الناس» .

ورأى عليه السلام رجلا أرسل شعره فقال له : «احلق فإنه يزيد فى جمالك» واحتبس الوحى مرة . فقيل للرسول . احتبس الوحى عنك يارسول الله فقال وكيف لا يحتبس وأنتم لا تقلمون أظافركم ولا تتقون رائحتكم» «أو ليس هو القائل : «النظافة من الإيمان» وكان عليه السلام مع ما هو من طيب رائحته . يحب الطيب ويكثر منه ويحث عليه ويكره الشعث .

ورأى عن سيدنا على أنه قال «ان الله يكره من عباده القاذورة».

وقال ابن عباس «إنى ألبس وأتجمل . فإن الله جميل يحب الجمال».

وقال أبو الحسن «هيئة الرجل للمرأة . مما يزيد فى عفتها» .

فليتصف الرجل . وليكن من زوجته . كما يحب أن تكون منه حسن الهيئة . وجمال منظر ونظافة بدن . فإن ذلك أدوم للعشرة . وأجلب للألفة . وأدعى لزيادة المحبة وطيب العيش .

ومن حق الزوجة على زوجها . ألا يزهد فيها . ويهجر مضجعها تبتلا أو بدون سبب شرعى فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما

أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم : أما أنا فإنى أُصلى الليل أبداً .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أُفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله ﷺ . فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى لا أَخشاكم لله وأتقاكم له . لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد . وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس مني» حديث صحيح .

فلنفهم المغزى الكبير من هذا الحديث الشريف الذى يوضح لنا أن النبى ﷺ لم يكن يعتزل نساءه . مع كونه سيد العابدين وإمام المتقين .

وفى زاد المعاد صح عنه النبى ﷺ من حديث أَنس أنه قال «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب . وجعلت قرة عينى فى الصلاة» .

وكان يطوف علي نسائه في الليلة الواحدة . وكان يقسم بينهن في المبيت والإيواء والنفقة . وأما المحبة فكان يقول «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك» وقد روي أن امرأة أتت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقالت . يا أمير المؤمنين . إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل .. وأنا أكره أن أشكوه . وهو يعمل لطاعة الله عز وجل . فقال لها . نعم الزوج زوجك . فجعلت تكرر عليه القول ويكرر عليها الجواب. فقال له كعب الأسدى : يا أمير المؤمنين . هذه المرأة تشكو زوجها من مباعدته إياها عن فراشه . فقال عمر : كما فهمت كلامها ،

فاقض بينهما . أى احكم بينهما . ما دمت قد فهمت القضية . فقال كعب. على بزوجها . فأتى به فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك . قال: أفى طعام أو شراب ؟ قال لا. فقالت المرأة .

يا أيها القاضى الحكيم رشده ألهى خليلى عن فراشه مسجده
زهدى فى مضجعى تعبده فاقضى القضا كعب ولا تردده
نهاره وليله ما يرقده فلست فى أمر النساء أحمده

فقال زوجها :

زهدنى فى فراشها وفى الحجل إنى أمرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النحل وفى السبع الطول وفى كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب :

ان لها حق عليك يارجل نصيبها فى أربعة لمن عقل
فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال : إن الله عز وجل . قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع . فلك ثلاث أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك . أى ولها الليلة الرابعة. فقال عمر . والله لا أدرى من أى أمريك أعجب ؟ أمن فهمك أمرهما . أم من حكمك بينهما ؟ اذهب فقد وليتك قضاء البصرة .

ومن المعلوم فطرة أن المرأة تستحى أن تطلب الرجل ، لأن الله جل شأنه خلقها مطلوبة . فأصبح لزاما عليه أن يراعى حاجتها بدون أن

يعنتها . وكل رجل حصيف يدرك بالإشارة أو بغير إشارة رغبة زوجته . ولم يحدد الشرع عدد المرات التى يجامع الرجل فيها ... وان كانت هناك آراء للأئمة فى هذا .

ورأى الإمام بن حزم .: عدة ذلك مرة فى كل طهر . ان قدر على ذلك . وإلا فهو عاصى لله تعالى . وبرهان ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

معنى الحجل : بيت يزين للعروس بالثياب والأَسرة .

وإذا كان هذا حق الزوج على زوجها . فهو كذلك حق للزوج على زوجته.

فللرجل أن يستمتع بزوجته . ومن واجبها أن تمكنه من نفسها فى كل ما أحل الله وللمرأة كذلك أن تستمتع بزوجها . وعلى الرجل أن يعطيها حقها . ولا يحل له أن يهجرها إلا كما شرع الله . (فى المضاجع) كما عرفت قبل هذا.

ومن حق الزوجة على زوجها :

أن يرشدها إلى طريق الحق ويبعدها عن مواطن الشر .

لقوله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ ﴾

[التحريم : ٦] .

وأن يأمرها بأن تصون نفسها وتستر عورتها .

لقوله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] .

وأن يذكرها بحديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه لأسماء رضى الله عنها عندما دخلت عليه فى ثياب رقاق . وبعد أن أعرض عنها :

«يا أسماء .. إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا . وأشار إلى وجهه وكفيه» .

وأن يذكرها بأنه إذا كان من واجبات الزوجة نحو زوجها أن تتزين له حتى تعفه عن النظر إلى غيرها . فقد أباحت الشريعة ذلك ولكن بقيود تمنع الإسراف . وتحتفظ للمرأة بجوهرها الحقيقى الذى فطرها الله عليه .

فعن جابر رضى الله عنه . قال «كنا مع النبى ﷺ فى غزوة فلما قدمنا ذهبنا لندخل . فقال . أمهلونا حتى ندخل ليلا . لكى تمشط الشعثة . وتستحد المغيبة» الحديث متفق عليه .

ومعنى الشعثة : أى منكوشة الشعر .

ومعنى تستحد : أى تستعمل الحديدة فى إزالة الشعر من تحت الإبط وغيره .

ومعنى المغيبة : أى التى غاب عنها زوجها .

والحديث يأمر الرجل بترك فرصة للنساء حتى يتزين . وذلك من أعظم توجيهاته صلوات الله وسلامه عليه توطيداً للمحبة بين الزوجين.

وفى الحديث الشريف :

«لعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال» رواه البخارى . وهو أمر للنساء بالتزين حتى لا يتشبهن بالرجال فى الخشونة والشدة. وتقول عائشة رضى الله عنها :

كانت امرأة عثمان بن مظعون تختضب وتتطيب . وقالت لعائشة . عثمان لا يريد الدنيا ولا يريد النساء . فأخبرت رسول الله ﷺ . فقال لعثمان . تؤمن بما نؤمن به ؟ قال : نعم. فقال ﷺ . أُسوة لك بنا» رواه أحمد .

ولكن الشريعة . كما قلت . قد وضعت قيودا لتلك الزينة .

قال رسول الله ﷺ ..

لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى» متفق عليه .

ومعنى أُسوة لك بنا : أى فى إعطاء الزوجة حقها من المتعة وحسن المعاشرة .

ومعنى : المتمصات : أى ناتفات الشعر من الوجه والحاجبين .

ومعنى : المتفلجات : أى من يحدثن فواصل بين الأسنان .

ولعن رسول الله ﷺ . (الواصلة والمستوصلة) متفق عليه .

المستوصلة : من تزيد شعرًا فى شعرها . ومن تلبس «الباروكة» كما يحدث الآن. ولعن رسول الله ﷺ «الواشرة» رواه أحمد . .

الواشرة : هى من تحدد أسنانها وتسوى أطرافها .

وكان النبى ﷺ «يلعن القاشرة والمقشورة» .

المقشورة : أى من تدهن وجهها بالمساحيق وغيرها .

وخلاصة القول :

أن رسول الله ﷺ نهى عن الوشم ونتف الوجه ودهانه وتفليج الأسنان وتسويتها وتحديدها ووصل الشعر .

قال فى الدين الخالص جـ ١ :.... بيان فى نتف الوجه . فقال .وهو حرام إذا نبت للمرأة لحية أو شارب فلا تحرم الإزالة بل تستحب أو تجب .

وبالقياس عقلا وشرعا وذوقا : هى نظافة الجسم والملابس والتطيب فى بيتها لزوجها بالروائح الذكية . ودهان الشعر بالزيوت النقية . وارتداء زاهر الثياب كالحرير وغيره . والتحلى بالمجوهرات . وتأثيث البيت بأفخر الرياش .

وعلى الزوج كذلك أن يكون غيورا على زوجته ليحميها من الدنس

فيوجهها إلى ما يحفظ عليها شرفها وشرفه . وليس ذلك معناه أن يشتط الزوج فى الغيرة حتى تنقلب إلى شك قاتل وريبة مدمرة . وانما يعتدل فى غيرته ففى الحديث الشريف يقول صلوت الله وسلامه عليه:

«من الغيرة ما يحب الله . ومنها ما يكره الله . فأما ما يحب الله . فالغيرة فى الريبة أى الشك . وأما ما يكره الله فالغيرة فى غير الريبة» رواه بن ماجه

وعليه أن يكون قدوة لها فى السلوك السليم بحيث يشعر من تصرفاته أنه يحترم مشاعرها ويخاف عليها . وذلك لا يكون إلا ببعده عن الاختلاط بالأجنبيات ـ غير المحارم ـ حتى لا تعامله الزوجة بالمثل عندما تفقد الثقة فيه ... «ان كانت غير صالحة» وعليه كذلك أن يأمرها دائما وأبدا بالمحافظة على أداء الفرائض ولا سيما الصلاة تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

[طه : ١٣٢] .

وذلك لأن الصلاة بصفة خاصة هى : الحصن الحصين والفلاح المبين . وهى الأساس فى جميع العبادات بعد الشهادتين . فعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته . فإن صلحت فقد أفلح وأنجح . وإن فسدت فقد خاب وخسر . فإن انتقص من فريضته شىء قال الله

عز وجل : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم تكون سائر أعماله» رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وإذا أهمل الزوج هذا الجانب الإرشادى والتذكيرى لها بالنسبة للصلاة وجميع ما أمر الله به ونهى عنه . فإنه سيسئل عن كل هذا أمام الله سبحانه وتعالى . بل وورد أن الزوجة ستتعلق يوم القيامة برقبة زوجها هذا وهى تقول . يارب .. خذ لى حقى من زوجى لأنه كان يرانى أفعل كذا من الموبقات فلم ينهنى . وكان يرانى أبتعد عن فعل كذا من الخيرات وأداء الصلوات فلم يأمرني.

وعلى الزوج كذلك أن يفقهها فى دينها . ويكون قدوة لها فى حفظ القرآن الكريم والإنصات إلى تلاوته . فهذا من أهم الحقوق الواجبة عليه نحوها . وخصوصا لأحكام الطهارة . وما يتعلق بالحيض والنفاس... وإلا فإنها ستكون جاهلة بأهم أمور دينها . ولقد كانت المرأة المسلمة فى العصر الأول تذهب إلى رسول الله ﷺ وتطلب منه أن يعلمها وأن يفقهها فى الدين . فقد ورد أن نساء الصحابة رضى الله عنهن قلن . يارسول الله ... ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك نأتك فيه تعلمنا مما علمك الله . قال :

«اجتمعن يوم كذا وكذا فى موضع كذا» فاجتمعن فأتاهن النبى ﷺ فعملهن مما علمه الله .

وكان ﷺ يرغب فى تعليم النساء . وسيدتنا حفصة رضى الله عنها . وهى من أُمهات المؤمنين : كانت تجيد الكتابة والقراءة . وهى

تلميذة لأم عبد الرحمن الشفاء بنت عبد الله والحافظ بن عساكر يروى الحديث عن أكثر من ثمانين امرأة. ولقد كانت المرأة على جانب كبير ودراية بالعلم فيما ينفعها فى دينها ويحفظ عليها سمعتها ونقاءها. وبما يهيؤها للحياة الزوجية الكريمة . وكانت تتعرف على تاريخ أُمتها كما أنها كانت قوية الصلة بالقرآن الكريم . والسنة المطهرة وكان لها دور قيادى لم ينكره الإسلام عليها . وهناك أمثلة على هذا . ولله در شوقى أمير الشعراء . فلقد قال مشيرا إلى تلك الحقيقة التى يجب علينا أن نتعرف بها :

هذا رسول الله لم   ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة   لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسيا   سة والشئون الأُخريات
ولقد علت ببناته   لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الدنيا   وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت   آى الكتاب البينات
وحضارة الإسلام تنـ   ـطق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالما   ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أُمية   أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس تعيش   الهاتفات الشاعرات

الفصل الخامس

أخى المسلم ... أختى المسلمة

اننا فى هذا الكتاب نقدم نماذج من الأُمهات المسلمات . والزوجات المطيعات والمؤمنات القانتات .

ونقدم الزوجة التى تفانت فى حب زوجها فرصدت حياتها له .

ونقدم الفتاة التى عرفت طريق الحق . فتركت الأب والأم والأخت والأخ وهاجرت إلى الله . وفرت بدينها .

نقدم المرأة التى صُبَّ عليها العذاب صباً لتفارق دينها . وتكفر بربها... فاحتملت العذاب صابرة حتى أنقذها الله مما هى فيه : إنهن النساء اللاتى أنزل الله فيهن قرآنا .

وهدفنا فى النهاية أن نقدم القدوة والمثل للفتاة المسلمة . حتى نعيد للأُسرة كيانها وتماسكها . ووظيفتها الأساسية فى صنع الرجال . فهل نحن فاعلون ؟ نرجو من الله العلى القدير أن يوفقنا إلى ذلك .

عائشة أم المؤمنين

رضى الله عنها

عائشة زوج الرسول ﷺ وأحب نسائه إلى قلبه . والدها أبو بكر الصديق الذى قال فيه رسول الله ﷺ «ما دعوت أحد إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة . ما عتم - أى ما تلبث - حين ذكرته له وما تردد فيه» وهو صاحب الرسول فى الغار . ورفيقه فى الهجرة.

قال الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم : ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

وأمها : أم رومان بنت عامر . كانت زوجة فاضلة . وأُما بارة وسيدة حكيمة .

قال عنها رسول الله ﷺ **«من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين . فلينظر إلى أم رومان»** .

(طبقات بن سعد جـ٨ ص٢٧٧ . وإسناده ضعيف . فيه انقطاع وضعف) .

وأخوها :عبد الرحمن بن أبى بكر الذى قال لمعاوية بن أبى سفيان عندما طلب البيعة لابنه يزيد : «أهرقلية إذا مات كسرى كان كسرى مكانه ...؟ لا نفعل والله أبداً» .

وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم بعد أن أبى البيعة ليزيد فردها عليه وأبى أن يأخذها وقال : «أبيع دينى بدنياى» .

فخرج إلى مكة فمات قبل أن تتم البيعة ليزيد بن معاوية» (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ٢ ص٨٢٥).

وأُختها : أسماء ذات النطاقين التى وقفت مع ابنها عبد الله بن الزبير وشدت من أزره أمام طغيان الحجاج . وعندما قال لها : أخشى يا أماه ان ظفروا بى بنو أمية أن يمثلوا بجثتى.

قالت : يابنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح . فإن كنت على حق فسر على بركة الله . وإن كنت على الباطل فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأصحابك» .

كانت ولادة عائشة بمكة المكرمة . تلك البقعة المباركة من أرض الله وكان والدها من كبار التجار فى مكة . ودرت عليه التجارة الشىء الكثير فعاش فى بحبوحة من العيش . وفى رغد من الحياة وكان رجلا كريما باراً بأولاده وأسرته . وكان سخى اليد فى غير إسراف ، رحيما فى غير ضعف . فيه رجولة واتزان . وتدبير واتقان . واكتسبت منه زوجته هذه الصفات . وسارت على نهجه فى الحياة . فنشأ أولادهما على هذه الخصال الفاضلة والتربية السوية . التى سيكون لها الأثر الكبير فى حياة عائشة أم المؤمنين فى مقبل الأيام .

لقد عاشت عائشة . رضى الله عنها . أحداث الدعوة الأولى مع أبيها . الذى فتح الله قلبه للإسلام وتابع محمداً فيما دعا له . وتقدم بجميع ما له لنصرة هذا الدين والدفاع عن أتباعه ضد تحجر القلوب وضلالات النفوس .

ولقد شبت فى هذا الجو الذى أخذ الكثير من الشد والجذب بين سدنة الأصنام وعُبَّاد الواحد الأحد . فوعت على صغر سنها طبائع النفوس . وسخائم الأفئدة وظلام البصيرة عند هؤلاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولقد منها الله سبحانه وتعالى كل ما تتطلبه أنثى فى الحياة من سلامة القوام . وصباحة الوجه . ونضارة الصبا . وذكاء لماحاً . الأمر الذى جعل أحد سراة مكة وهو المطعم بن عدى يتقدم لخطبتها على ابنة جبير وهى لم تتعد مرحلة الطفولة بعد ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بها الخير . وادخر لها ما تتطاول اليه كل فتاة فى هذه الحياة وأعدها لتكون زوجة لرسول الله ﷺ .

ولكن كيف تم هذا ؟

وهل هناك من أسباب جعلت الرسول ﷺ يخطب عائشة ؟

تقول أوثق المصادر التاريخية التى بين أيدينا : وهى موسوعة آل بيت النبى بنت الشاطئ «لقد ماتت خديجة زوجة الرسول ﷺ وعاش بعدها فى وحشة الفراق والحزن والصحابة يرقبون هذه الآثار على نبيهم فيشفقون عليه من تلك الوحدة. ويودون لو تزوج لعل فى الزواج ما يؤنس وحشته ويخفف بعض ما يعانيه بعد أم المؤمنين الراحلة . لكن واحدا من الصحابة لم يجرؤ على التحدث إليه فى موضوع الزواج . وإذا كان الرجال يجدون بعض الصعوبة والحرج فى مثل هذه الأمور . فإن النساء بما لديهم من أساليب وحيل يقدرون طرق مثل هذه

الموضوعات . والوصول بما لديهم من حاسة الأُنثى إلى معرفة وكشف حقيقة الرجال .

لقد سعت خولة بنت حكيم السلمية إلى بيت الرسول ﷺ وفاتحته فيما لم يستطع أن يفاتحه فيه الرجال ، وقالت له :

«يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة» فأجاب :

«أُجل كانت أم العيال وربة البيت» .

فاقترحت عليه أن يتزوج .

فسأل محدثته فى نبرة عتاب . ومن ... بعد خديجة ؟ ...

قالت خولة على الفور . كأنما انتظرت هذا السؤال . وأعدت له الجواب : «إن شئت يارسول الله بكرا وإن شئت ثيبا» .

فقال : مَن البكر ومَن الثيب ؟ ..

قالت : أما البكر فعائشة بنت أبى بكر .

وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك على الحق .

وسكت الرسول ﷺ إن عائشة يعرفها منذ طفولتها الباكرة وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية . وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة . وبديهة حاضرة مع فصاحة فى اللسان . وشجاعة فى القلب . وبلغ من إعزاز الرسول ﷺ لها أن كان يوصى بها أمها قائلا «يا أم رومان ، استوصى بعائشة خيرا واحفظينى فيها» أخرجه بن سعد جـ ٨ صـ٧٨ . إذا رأها يوما غاضبة وقف فى صفها وقال لأُمها فى عتاب رقيق :

«يا أُم رومان ، ألم أوصك بعائشة أن تحفظينى فيها ؟» .

وأَذن لها الرسول فى خطبتها .

تقول خولة بنت حكيم . فأتيت أم رومان فقلت : ياأُم رومان وماذا أدخل الله عليكم من الخير . قالت . وما ذاك ؟.

قلت : رسول الله ﷺ يذكر عائشة .

قالت : انتظرى فإن أبا بكر آت قالت فجاء أبو بكر فذكرت ذلك .

فقال : أو تصلح له وهى ابنة أخيه ؟

فعادت خولة إلى رسول الله ﷺ فحدثته بما كان من أمر أبى بكر فردها الرسول ﷺ وقال : أما أنا أخوه وهو أخى . وابنته تصلح لى .

عندها قام أبو بكر واتجه الى بيت المطعم بن عدى . وقال له . ما تقول فى أمر هذه الجارية يقصد عائشة وكان خطبها لابنه .

فقالت زوجة المطعم : لعلنا إِن أنكحنا والصبى إليك تصيبه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟

فاتجه أبو بكر إلى المطعم : وقال له : وأنت ما تقول ؟ ..

فقال : أقول الذى قالته ...

فقام أبو بكر - رضى الله عنه - ليس فى نفسه من الوعد شىء . وقال لخولة بنت حكيم : قولى لرسول الله ﷺ فليأت فجاء رسول الله ﷺ فعقد على عائشة وأصدقها أربعمائة درهم . وكان ذلك بمكة فى

شوال قبل الهجرة بثلاث سنين وهى بنت ست سنين وفى رواية أنها كانت بنت سبع سنين .

وسعد الرسول بخطبة عائشة . وكان يتردد على بيت صاحبه فى أوقات متقاربة . ودخل الناس فى دين الله أفواجا وازدحمت دار الأرقم ابن أبى الأرقم بالمسلمين الذين يتابعون رسول الله ﷺ فيما يدعو اليه.

وعندما اشتد أذى المشركين لهذه الفئة المؤمنة أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى يثرب بعد أن كانوا يهاجرون إلى الحبشة . ورصد المشركون تحركات المسلمين وشاهدوهم وهم يحملون الذرارى والأطفال إلى دار الأوس والخزرج . وعرفوا أنها دار منعة .

فخافوا خروج الرسول ﷺ اليها فاجتمعوا فى دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجى منهم وأجمعوا أمرهم على قتل محمد ﷺ وتفرقوا على ذلك .وأتى جبريل رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . وعقد الرسول أمره على الهجرة حيث هؤلاء الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه وينصروه وجاء رسول الله ﷺ إلى منزل أبى بكر.

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار . إما بكرة وإما عشية . حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهجرة فى ساعة لا يأتى فيها رآه أبو بكر قال . ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث .

قالت . فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ. وليس عند أبى بكر إلا أنا وأَختى أسماء .

فقال رسول الله ﷺ أخرج عنى من عندك .

فقال يارسول الله انما هما ابنتاى . وما ذاك ؟ ... فداك أبى وأمى.

فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

فقال : أبو بكر : الصحبة يارسول الله .

قال : الصحبة .

قالت عائشة . فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ .

ثم قال : يا نبى الله. ان هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا . فاستأجرا عبد الله بن أريقط يدلهما على الطريق .

هاجر الرسول ﷺ وصاحبه إلى المدينة وبقيت عائشة مع أُمها وأخواتها يتنسمون الأخبار . ويطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يصل المهاجران إلى مأمنهما حتى يتمكنوا من اللحاق بهما .

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة . وكأنها لا تمر ولا تتحرك ، ولا حديث لهما إلا عن الهجرة واللحوق بأحب الناس إليهما .

وما كاد الرسول ﷺ يستقر بالمدينة . هو وصاحبه أبو بكر حتى بعث زيد بن حارثة ومعه أبو رافع مولاه واعطاهما بعيرين أو ثلاثة . وكتب إلى عبد الله بن أبى بكر يأمره أن يحمل أهله أم رومان وعائشة وأختها أسماء .

وما هى إلا أيام حتى أقلعت القافلة من مكة مع زيد بن حارثة . أم أيمن وابنه أُسامة ، ومع أبى رافع وأم كلثوم وسودة بنت زمعة . ومع عبد الله بن أبى بكر وأم رومان وأختيه ، وخرج معهم طلحة بن عبد الله . حتى قدموا المدينة فنزلوا فى دار بنى حارث بن الخزرج (قصة الهجرة . أخرجها البخارى جـ٧/١٨٣).

وأصبحت عائشة قريبة من رسول الله ﷺ حتى إذا تم بناء المسجد وأخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار . فكر فى الدخول بعائشة .

فأين عائشة الآن ؟... أَترها تستعد لهذا الحدث السعيد؟...

أم أنها طفلة صغيرة . ولم تعد لهذا الأمر عدته ؟...

إن الأخبار التى بين أيدينا تقول : إنها كانت تلعب مع صويحباتها تحت النخيل . فجاءت أمها فأنزلتها ثم مشت بها حتى انتهت إلى الماء فمسحت وجهها بشىء من ماء وفرقت جميمة كانت لها ثم دخلت على رسول الله ﷺ فإذا نسوة من الأنصار فى البيت فقلن على الخير والبر على خير طائر . فأسلمتها إليهن فأصلحن من شأنها . ثم بنى بها رسول الله ﷺ فى بيتها الذى توفى فيه رسول الله . فكانت أحظى نسائه لديه وأحبهن (أخرجه البخارى ١٧٥/٧ . وابن سعد ٨/٦٣) .

عائشة حبيبة ومحبوبة

عاشت عائشة رضى الله عنها فى بيت النبوة حبيبة إلى الرسول ﷺ قريبة إلى نفسه . شيقة الى قلبه . لا يفارقها حتى يعود إليها ولا يظعن إلا ويؤوب وملء فؤاده شوق وحنين . وعلم المسلمون بحب الرسول ﷺ لعائشة ، فكان أحدهم إذا أراد أن يهدى هدية إلى رسول الله ﷺ أخرها حتى إذا ذهب إلى بيت عائشة بعث بها إليه أنظر البخارى ٨٤/٧) وعلمت أمهات المؤمنين بما حدث ويحدث فى بيت عائشة فأرادن منافستها فى هذا الحب ومشاركتها فى هذا الود . ولكنهن لم يستطعن ذلك ؟؟..

فأرسلن أم سلمة لرسول الله ﷺ وقلن لها . أن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة . وإنا نريد الخير كما تريد عائشة . فكلمى رسول الله أن يأمر الناس أن يهدوا اليه حيث ما كان أو حيث دار .

وذكرت أم سلمة لرسول الله ﷺ ذلك فأعرض عنها ولم يقل لها شيئا .

فسألناها فقالت . ما قال لى شيئا .

فقلن لها كلميه يكلمك .

فجاءته فكلمته فقال لها . يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة. فإنه والله ما نزل عليه الوحى فى لحاف امرأة منكن غيرها . (البخارى جـ ١٥١/٥ ، ١٥٢) .

فقالت : أتوب الى الله من ذلك يارسول الله .

وعلمت أمهات المؤمنين ما كان من سفارة أم سلمة . وما قال رسول الله ﷺ ولكنهن لم يقنعهن ذلك . ولم يوافق مطلبهن .

فأرسلن إلى فاطمة الزهراء ابنته ـ رضى الله عنها ـ علّه يستجيب لها .

وجاءت فاطمة الى منزل أبيها فوجدته مضطجعا مع عائشة فى مرطها فأستأذنته فأذن لها فقالت : يارسول الله إن أزواجك أرسلنى اليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة وعائشة ساكتة .

فقال لها رسول الله . أى بنية تحبين ما أحب ؟...

قالت : بلى ...

قال : فأحبى هذه ، فقامت فاطمة لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فخرجت الى أزواج النبى ﷺ فأخبرتهن بالذى قالت وبالذى قال فقلن ما نراك أغنيت عنا من شىء . فارجعى الى رسول الله ﷺ فقولى له .

«ان نساءك ينشدنك العدل وابنة أبى قحافة» .

فقالت فاطمة : والله لا أكلمه فيما أبدا» .

هل اكتفين بذلك الذى حدث ورضيت أمهات المؤمنين بما قسم الله لهن ؟

الحقيقة أنهن لم ييأسن من الطلب ؟

وكأنهن عزمن على المطالبة بما يرونه حقا لهن حتى يستجيب لهن رسول الله ﷺ واخترن من يكلم رسول الله ، هذه المرة ؟

ايذهبن اليه بمجموعهن ؟ أيرسلن اليه أحد الرجال ؟... أينتظرن حتى يمر على كل واحدة منهن فتكلمه فى هذا الأمر؟...

إن حيرتهن لم تطل فلقد قالت زينب بنت جحش أم المؤمنين أنا أذهب اليه وأُحدثه بما عندنا وبما يغضبنا من هذا الأمر .

فوافقنها على ذلك ... واتجهت زينب إلى حجرة عائشة حيث يجلس الرسول ﷺ فاستاذنت عليه فأذن لها .

فقالت : يارسول الله إن أزواجك أرسلننى اليك يسألنك العدل فى ابنه أبى قحافة ولم تكتف بذلك . ولكنها وقعت فى عائشة واستطالت عليها . وعائشة ترقب طرف رسول الله ﷺ هل يأذن لها فى الرد عليها أم لا ؟.

أيرضى رسول الله ﷺ أن تتطاول إحدى نسائه على الأُخرى فى بيتها وفى حضرته ؟.. إنه لا يقبل ذلك ولا يوافق عليه . وهذا ما لحظته عائشة رضى الله عنها من أنه لا يمانع أن تنتصر عائشة لنفسها ولا يكرهه .

فردت على زينب حتى أفحمتها . وهدأت العاصفة ورضيت زينب . وعادت إلى أُمهات المؤمنين ، لتطلب منهن أن يقنعن بما قسم الله لهن .

ومن محبته ﷺ أم المؤمنين عائشة أنه كان بينها وبين النبى كلام فقال لها « من ترضين بينى وبينك ؟ أترضين بعمر ؟...

قالت : لا أرض عمر قط . عمر غليظ .

قال : أترضين بأبيك بينى وبينك ؟

قالت : نعم

فبعث رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فلما جاء قال رسول الله ﷺ إن هذه من أمرها كذا . قالت عائشة : اتق الله ولا تقل إلا حقاً .

فرفع أبو بكر يده فلطم أنفها فولت عائشة هاربة منه . فلزقت بظهر النبى ﷺ حتى قال لها رسول الله :

«أقسمت عليك لما خرجت فإنا لم ندعك لهذا» .

فلما خرج أبو بكر قامت عائشة فتنحت عن رسول الله ﷺ فقال «ادن مني» فأبت أن تفعل . فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

«لقد كنت قبل شديدة اللزوق بظهري» .

إن عائشة أُم المؤمنين التى ملأت قلب رسول الله ﷺ كان لها دور لا ينكر فى حياة الرسول ﷺ وفى تخفيف بعض ما كان يعانيه من تبعات الدعوة وأمور المسلمين ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفخر على أزواج النبى ﷺ بعشر خصال لم تعطهن ذات خمار قبلها .

فكانت تقول : صورت لرسول الله ﷺ قبل أن أصور فى رحم أُمى.

وتزوجنى بكرًا ولم يتزوج بكراً غيرى .

وكان ينزل عليه الوحى وهو بين سحرى ونحرى .

ونزلت براءتى من السماء .

وكنت أحب الناس اليه ﷺ .

وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه . ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيرى ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيرى.

وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد . ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه ومات الليلة التى كان يدور عليَّ فيها .

ودفن فى بيتى .

(أخرجه بن سعد جـ٨/٦٣ . والحاكم فى المستدرك ٤/١٠ وصححه) إن ما ذكرته السيدة عائشة - رضى الله عنها - هو من عوامل حب الرسول لها ودلائل وعلامات على هذا الحب الكبير - الذى كان يملأ قلب الرسول ﷺ وفاض على البشرية كلها . ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تحب الرسول حباً لا يعادله حب ، وكانت الغيرة تسيطر عليها - فتدفعها الى أُمور تغضب رسول الله وتقلقه . ولكن الذى كان يبرر لها ذلك ، هذا الإعزاز الكبير والحب الغامر الذى يملأ قلبها تجاه رسول البشرية .

قالت يوما للنبى ﷺ وهو داخل عليها : أين كنت يارسول الله ؟

قال : كنت عند أم سلمة .

قالت : أما تشبع . فتبسم .

فقالت : يارسول الله . لو مررت بعدوتين إحداهما عافية لم يرعها من الناس أحد وأُخرى قد رعاها الناس . أيهما كنت تنزل ؟...

قال : بالعافية التى لم يرعها الناس .

قالت : فلست كأحد من نسائك (أخرجه بمعناه البخارى ١٠٤/٩ ، وابن سعد ٨/٨) ولقد أرادت السيدة عائشة أن تقول للرسول ﷺ أنه تزوجها بكرًا بخلاف بقية الزوجات فعليه أن يطيل عندها المكث ويخصها بما لم يخصص به الأخريات من نسائه رضوان الله عليهن .

إنها طبيعة المرأة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى جبلتها . ومنها الغيرة التى هى إحدى صفات المرأة التى لا تتخلى عنها ولاتستطيع إن أرادت ذلك وما أحرى الرجال أن يحسبوا حساب هذه الغيرة معاملتها للنساء وأيضاً من دلائل هذا الحب الكبير لرسول الله ﷺ فى قلب عائشة أن جاءها يوما وقال لها :

«سأعرض عليك أمراً فلا عليك أن تعجلى به حتى تشاورى أبويك .
فقالت : وما هذا الأمر يارسول الله ؟

فتلا عليها النبى الله قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] .

فقالت عائشة : فى أى ذلك تأمرنى ان أشاور أبوى وقد أعلم والله

أن أبوى لم يكونا ليأمرانى بفراقك . بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

فسر النبى بذلك وأعجبه .

وقال : سأعرض على صواحبك ما عرضت عليك . فكان النبى ﷺ يقول لهن كما قال لعائشة ثم يقول : قد اختارت عائشة الله ورسوله والدار الآخرة .

(اخرجه البخارى ٣٩٩/٨ فى التفسير ، ومسلم (١٤٧٥) وابن سعد ٦٨/٨ ، ٦٩ وكانت عائشة شديدة الغيرة . والغيرة فى طبائع النساء ألوان . تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة الحاضرة . لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله . وهى تأسى على كل ما يفوتها من شر وغل ذلك القلب ولو لم تكن ثمة منافسة . وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه. وتغار من شريكتها فى رجلها كائنا ما كان حظها من الجمال . وتغار من كل مزية غير الجمال . ما كان فيها سبيل الى الخطوة فى القلب الذى تريدها لها ولا تطيق المزاحمة عليه .

والأُنثى الغيرى فى جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هناك فى سيرة عائشة رضى الله عنها . كما روتها هى وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذى ينبغى لها والحق النبوى الذى هى جاهدة جهدها أن توفره وترعاه .

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبى بالسيدة

عائشة . لكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تتطو على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها .

وكان ﷺ يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة فى ذلك قال :

«إن خديجة أوصتنى بها» (فتح البارى ١٠/٣٦٥ . والمستدرك ١/١٥ ، ١٦ فقالت مغضبة : خديجة : خديجة : لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة . وعلم حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة فغضب فى هذا المرة وتركها فترة ثم عاد وأُمها - أم رومان - عندها - فقالت له أُمها : يا رسول الله ما لك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأَنت أحق من يتجاوز عنها .

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيرا منها ؟...

فأسكتها قائلا . والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كذبنى الناس . وواستنى بمالها حين حرمنى الناس . ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها» (أخرجه أحمد فى المسند) وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها. وربما خرج من عندها فى ليلتها فإذا هى تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها . ووجدته فى ليلة من هذذ الليالى قد ذهب إلى المقابر يستغفر للشهداء فعادت إلى بيتها تقول لنفسها . بأبى أنت وأمى ... أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خاطرها الأول

ومن خطأ ظنها . فلما قفل عليه السلام اليها لحظ ما بها . فسألها ... ما هذه النفس ياعائشة ؟

فقالت : بأبى أنت وأمى أتيتنى فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما فأخذتنى غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض صويحباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع . وخرج مرة أخرى ثم عاد اليها . فإذا هى فى مثل تلك الحالة الأولى فقال ياعائشة أَغرت ؟

فقالت . وما لى لا يغار مثلى على مثلك .

وكانت عائشة تغار من اللواتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ تقول: تهب المرأة نفسها ؟...

فلما أنزل الله عز وجل : ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب : ٥١] .

قالت : ما أرى ربك إلا يسارع لك فى هواك يارسول الله (أخرجه البخارى جـ٨/٤٠٤ ومسلم) وخرجت عائشة مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وخرج معه نساؤه . وكان متاع عائشة فيه خف وكان على جمل ناج . وكان متاع صفية بنت حيى فيه ثقل وكان على جمل بطئ .

فقال رسول الله ﷺ : حولوا متاع عائشة على جمل صفية وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضى الركب .

فلما رأت عائشة ذلك قالت :

«يالعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ فقال رسول

الله : يا أم عبد الله إن متاعك كان فيه خف وكان متاع صفية بنت حيى فيه ثقل فأبطأ الركب فحولنا متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها .

فقالت عائشة : أليس تزعم أنك رسول الله ؟...

فتبسم وقال : أوفى شك أنت يا أم عبد الله ؟..

فعادت فقالت : أولست تزعم أنك رسول الله فهلا عدلت؟...

فتبسم وقال : وفى شك أنت يا أم عبد الله ؟

فعادت وقالت : أولست تزعم أنك رسول الله فهَلا عدلت ؟

فسمعها أبو بكر وكان فيه حدة فأقبل عليها ولطم وجهها .

فقال رسول الله ﷺ : مهلا يا أبا بكر .

فقال يارسول الله أو لم تسمع ما قالت ؟..

فقال رسول الله ﷺ : إن الغيران لا تبصر أسفل الوادى من أعلاه . (انظر كتاب أعلام النساء جـ٣صـ٢٠) .

وصدق رسول الله ﷺ إن الغيرة تعمى وتصم ، إذا كانت بين الرجال فما بالك إذا كانت بين النساء .

فهل تلام عائشة على ذلك . إذا كانت غيرتها على الرسول الكريم الذى صفاه ربه من دنس الشرك والجاهلية . وأدبه وأحسن تأديبه . وأكمل خُلقَه وخَلقه . وحمله رسالة ربه وجعله خاتم النبيين . وحبيب العالمين . إن من حق عائشة ان تغار على زوجها ورجلها . وليس فى

ذلك غضاضة أو نقص فعلماء النفس يقولون : إن الغيرة إحدى بنات الحب ...

عائشة- رضى الله عنها- والعلم

كانت أم المؤمنين عائشة حاملة لواء العلم والمعرفة-عارفة بأحداث عصرها الذى عاشت فيه، خبيرة بشئون بيتها وما يجب أن تقوم به. وكيف لا تكون كذلك؟.. وقد نشأت فى بيت أبيها الذى كان أعلم الناس بأنساب العرب وأيامهم. وفقهت أمور دينها وتعلمت مبادئ الإسلام فى مدرسة الرسول ﷺ وتلقت أصول الأدب والأخلاق على يد من أدّبه ربه فأحسن تأديبه. ومدحه فى محكم آياته بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم : ٤] .

وكانت حياتها فى بيت النبوة الذى نزل فيه الوحي. ويتلى فيه القرآن أناء الليل وأطراف النهار ومن أجل هذا كانت عائشة.رضى الله عنها-على قدر كبير بفقه الاسلام ومبادئه ودراية بأنواع المعرفة وأبوابها .

قال عروة لعائشة: يا أمتاه لا عجب من فقهك أقول زوجة رسول الله ﷺ. وابنه أبى بكر الصديق . ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبى بكر وكان من أعلم الناس .

ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو ومن أين هو؟...

قال: فضربت عائشة على منكبه وقالت :

«أبا عرية إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه فتتعت له الأنعات وكنت أعالجه فمن ثم» (أعلام النساء عمر رضا كحالة) .

وقال الذهرى : لو جمع علم عائشة بعلم جميع أزواج النبى ﷺ وجميع النساء كان علم عائشة أكثر . وفى رواية أفضل .

وكيف لا تكون كذلك وهى صاحبة عقلية لماحة وعين فاحصة الأمر الذى جعلها تعرف علم الطب وتعرف أدويته وتفهم فى أساليبه. من مرض الرسول ﷺ وما يوصف له من دواء. وروت عن رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر بن الخطاب وفاطمة الزهراء وسعد بن أبى وقاص وحمزة بن عمرة الأسلمى وجزامة بنت وهب (٢٢١٠) حديثا ذكر لها فى الصحيحين منها سبع وتسعون ومائتا حديث والمتفق عليه منها أربع وسبعون ومائة حديث . وبهذا يقول علماء الحديث: ان عائشة رضى الله عنها تعد من رواة الحديث المكثرين. وقال عروة سألت عائشة عن قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة : ١٥٨] .

فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بين الصفا والمروة قالت بئس ما قلت يابن أخى ان هذه لو كانت كما أولتها كانت لا جناح ألا يطوف بهما. ولكنها أنزلت فى الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعيدونها عند المشلل (المشلل: جبل يهبط منه الى قدير من ناحية البحر) وكان من أهل بها يتحرج أن يطوف بين الصفا

والمروة. فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك. فقالوا: يا رسول الله انا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله عزوجل: «ان الصفا والمروة من شعائر الله» .

وقالت عائشة . وقد مشى رسول الله ﷺ بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما فأخبرت أبا بكر عن عبد الرحمن فقال: ان هذا العلم ما كنت سمعته . ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهل لمناة كانوا يطوفون كلهم بين الصفا والمروة . فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن قالوا : يارسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة فأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] .

قال أبو بكر . فأحسب هذه الآية نزلت فى الفريقين كليهما فى الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا فى الجاهلية بين الصفا والمروة . والذين كانوا يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام (أخرجه البخارى جـ٨/١٣٢ فى التفسير ومسلم) .

وكانت عائشة رضى الله عنها فصيحة اللسان بليغة المقال إذا حدثت ملكت على الناس مسامعهم . واذا تكلمت أخذت بجامع القلوب.

قال الأحنف بن قيس :

سمعت خطبة أبى بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. وعلى ابن أبى طالب والخلفاء هلم جراً إلى يوم هذا فما سمعت كلاما من فم

مخلوق أفخم ولا أحسن منه فى عائشة . وقال موسى بن طلحة : ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة (أخرجه الترمذى وقال الحديث حسن) .

وقال معاوية : والله ما رأيت خطيبا قط أبلغ ولا أفصح من عائشة.

ولما توفى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وقفت عائشة على قبره وقالت :

«نضر الله وجهك يا أبت وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا منزلاً بإدبارك عنها وللآخرة معداً بإقبالك عليها . ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك . إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر عنك حسن العوض منك . وأنا أستنجذ موعد الله تعالى بالصبر فيك واستقضيه بالاستغفار لك أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمت بأمر الدين لما وهى شعبه . وتفاقم صدعه . ورجفت جوانبه . فعليك سلام الله تَوديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك» (أعلام النساء جـ٣ صـ١١٤) .

إنها حكيمة أخذت حكمتها من كتاب الله تعالى .

وبليغة أخذت بلاغتها من أدب الرسول ﷺ .

وفصيحة لأنها عربية ونشأت بين بطاح مكة .

ومؤثرة ، وكيف لا تكون كذلك . ولقد استقت من نبع الإسلام وتعلمت الكثير من آداب الرحمن .

المرأة ووظيفتها عند أم المؤمنين

من تكون المرأة المسلمة فى نظر عائشة ـ رضى الله عنها ـ وأى الأعمال تختار لها .

أهى المرأة التى تهجر بيتها وتترك أطفالها لتساهم فى الحياة العامة؟... أم أنها المرأة التى تدرس لتحصل على أرقى الشهادات وأكبر الدرجات العلمية متجاهلة وظيفتها الأساسية ورسالتها فى الحياة؟

أم أنها المرأة التى تجلس فى بيتها لا تفكر فى عمل ولا تساهم فى حياة . وتترك أعباء بيتها وأولادها على زوجها ؟

إن المرأة فى نظر أم المؤمنين ليست هذه ولا تلك . ولكن المرأة هى التى تعرف حقيقة وضعها . وتقوم بأعباء وظيفتها ـ وتساهم فى حل مشكلة الحياة مع زوجها .

فتراها تقول : «المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله» .

ورأت أثر المغزل فى يد امرأة فقالت لها :

«أبشرى بما لك عند الله عز وجل ولو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقررتم ليلا ولا نهاراً» .

ما من المرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاها الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزلها فإذا ملأت مغزلها أعطاها الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب . ولها بكل ثوب

مائة وعشرين الف مدينة . وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينتهى إلى العرش له دوى كدوى النحل . ويعدل عند الله عز وجل منزلة كبيرة . بلغوا عنى النساء ما أَقول : ما من امرأة غزلت حتى كسيت نفسها إلا استغفر لها سبع سموات وما فيهن من الملائكة .

إلى أن قالت : ابشروا معاشر النساء ما لكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المساكين فى الدنيا والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يغفر الله لكنَ كل ذنب عملتهن ما خلا الكبائر» (أعلام النساء .عمر رضا كحالة صـ١١٩ جـ٣) .

إن أم المؤمنين تهيب بالنساء المسلمات أن يعملن فى داخل بيوتهن والعمل الذى يناسب وظيفتهن . أما هذا التبذل الرخيص الذى نشاهده اليوم فهى تنهى عنه . إن المرأة تستطيع عن طريق المغزل أو الوسائل الحديثة «كالتريكو» وخلافه أن تساهم فى التخفيف عن ميزانية المنزل . وبذلك تحل الكثير من المشاكل . وهو عمل يقابله أجر كبير : أن الملائكة تبارك هذا العمل .

والمؤمنون فى كل عصر ومصر يشجعون عليه لأنه عند الله عبادة. وعند الزوج مشاركة .

وعند الأبناء برٌّ ووفاء وتسأل أم المؤمنين عن أفضل النساء فتقول :

«هى التى لا تعرف عيب المقال . ولا تهتدى لمكر الرجال . فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها . والإبقاء فى الصيانة على أهلها . إن المرأة

العاقلة التى تأدبت بأدب الإسلام لا تعرف فحش القول ولا سلاطة اللسان .

فهى عفيفة فى قولها .
صادقة فى حديثها .
أمينة على عرضها .

وهى من قبل هذا ومن بعده . تهتم بزينتها من أجل زوجها، تسر بمظهرها كما تسر بمخبرها هذه المرأة تعف نفسها وتصون زوجها . وتجمل الحياة بأخلاقها وحسن معاملتها لبعلها إنه الدستور الطيب الذى وضعته أم المؤمنين للنساء المسلمات وطالبتهن باتباعه وتنفيذ بنوده . والاقتداء بتعاليم الإسلام ... فهل تراهن مطيعات ومنفذات؟... نرجو من الله ذلك .

أم المؤمنين والحياة العامة ...

لقد كان لأُم المؤمنين . بعد وفاة الرسول ﷺ دورها فى حياة المسلمين . من ذلك مشاركتها فى الدعوة إلى الله . وقيامها بالرواية عن رسول الله . والإجابة على أسئلة النساء المؤمنات وتفقيههن فى أمور دينهن وبالجملة فلم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن حياة المسلمين فى السلم أو الحرب .

وكان كبار الصحابة يستشير أم المؤمنين فى كبريات الأمور التى تجابههم ولا يقطعون فيها برأى . من ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . عندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى ، بخنجره وأحس أنه عما قريب سيفارق الدنيا قال لابنه عبد الله :

«اذهب إلى عائشة واقرئها منى السلام واستأذنها أن أُقبر فى بيتها مع رسول الله ومع أبى بكر» (طبقات ابن مسعود جـ٣ صـ٣٦٣) .

فأتاها عبد الله فأعلمها فقالت . نعم وكرامة . ثم قالت . يابنى أبلغ عمر سلامى وقل له لا تدع أُمة محمد بلا راع استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا فإنى أخشى عليهم الفتنة» .

فأتى عبد الله فأعلمه فقال : ومن تأمرنى أن أستخلف لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته . فإذا قدمت على ربى فسألنى وقال لى : «من وليت على أُمة محمد» .

قلت : أى رب سمعت عبدك ونبيك يقول : لكل أُمة أمين وأمين هذه الأُمة عبيدة بن الجراح . ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته فإذا قدمت على ربى فسألنى من وليت على أُمة محمد ؟» ... (أخرجه البخارى جـ٧/٧٣ ومسلم ٣٤١٩) .

قلت أى رب سمعت عبدك ونبيك يقول : أن معاذ بن جبل يأتى بين يدى العلماء يوم القيامة .

ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته فإذا قدمت على ربى فسألنى من وليت على أمة محمد ؟... قلت أى رب سمعت عبدك ونبيك يقول : «خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين» أخرجه الترمذى (٣٨٤٥) .

ولكنى سأستحلف النفر الذى توفى رسول الله وهو عنهم راض فأرسل اليهم فجمعهم . وهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان

وطلحة بن عبيد الله . والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف . ان أم المؤمنين تطالب عمر وهو فى النزع الأخير . أن يعين للأمة خليفة من بعده حتى لا تتفرق بهم السبل أو تتناوشهم الأهواء . ويصبح بأسم بينهم شديداً . وأراد الله بالمسلمين خيراً وتم اختيار عثمان بن عفان خليفة لهم واستراح المسلمون لذلك .

ومرت الأيام وكرت الليالى . وأم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ تراقب أحوال الخليفة الجديد . وترصد أعماله فوجدت فى بعض تصرفاته ما يخالف ما كان يأمر به رسول الله ﷺ ومن جاء بعده. فأرسلت إليه من يذكره ويحذره.

فكان نتيجة ذلك أن نقص السيدة عائشة عما كان مقدراً لها فى عهد الخليفة عمر .

وهذا النقص قد يكون سائغا إذا دعت اليه حاجة فى خزانة الدولة. ولكنه لا يسوغ ولا يستريح اليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألف التى يحار فيها الإحصاء . وغنائم أفريقيا وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير .

وجاء وفد من الكوفة يتهم الوليد بن عقبة أخا عثمان لأُمه بشرب الخمر فتبرمت بهم حاشية الخليفة وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل الكوفة .

فقال لهم : أكلما غضب رجل منكن على أميره رماه بالباطل؟... لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم فاستجاروا ببيت النبى وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان . فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً :

أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة»؟

فسمعت فقيل انها رفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت : «تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل» ؟... (أعلام النساء جـ٣ صـ٣٢) .

وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد ، فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل ما للنساء وهذا ؟.. حتى تصايحوا وتضاربوا بالنعال . ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه أن يعزل أخاه .

ومما يروى عنها . رضى الله عنه . أنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته فى منزلها وكانت تقول للداخلين إليها :

هذا ثوب رسول الله ﷺ لم يبل وعثمان قد أبلى سنته» (تاريخ اليعقوبى جـ٢ صـ٢٠٣) وراجع الأغانى جـ٤ صـ١٧٨ .

واستطاعت حاشية عثمان ـرضى الله عنه ـ أن تعزله عن الرعية . وجعلوه يصم أُذنيه عن نصح الناصحين . وتذكير الذاكرين . فما إن كان منها كما قيل إلا أن أطلقت لسانها فيه . وأعلنت الحرب عليه . حرب التذكير . والنصح ، ويقال أطلقت عليه «نعثلا» وكانت تقول : اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا (شرح نهج البلاغة لابن أبى جـ٢صـ٧٦) .

ونعثل رجل يهودى طويل اللحية شبهوا عثمان به لطول لحيته . ونحن نستبعد أن يصدر هذا القول من أم المؤمنين ولكنه من تزايد الرواة والله أعلم .

واستمر الحال على ذلك . حتى كانت الفتنة . الفتنة التى حذر منها رسول الله ﷺ بقوله : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . صحيح مسلم (١١٨) فى الإيمان والترمذى ١٩٥ ، فى الفتن) وقتل عثمان رضي الله عنه .

ووصل خبر مقتله عائشة رضى الله عنها فقالت : أبعدهُ الله قتله ذنبه وأقاده الله بعمله يامعشر قريش لايساومنكم قتل عثمان . كما سام أَحمر ثمود قومه (انظر فى تكذيب هذه الرواية رأى ابن تيمية فى منهج السنة جـ٢ صـ١٨٨).

ولكن لم تمض إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تردد فى أرجاء الأُمة الإسلامية أن أم المؤمنين عائشة تطالب بالقصاص من قتلة عثمان . وتحرض الناس على عدم مبايعة الإمام على .

كيف تمَّ هذا؟.. وما هى المبررات التى دفعت أم المؤمنين على أن تسلك هذا المسلك الوعر ؟

ان رواية أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى تقول : أن عائشة - رضى الله عنها - لما بلغها قتل عثمان وهى بمكة - أقبلت مسرعة وهى تقول :

«إيه ذا الأصبع لله أبوك أم أنها وجدوا طلحة لها كفؤاً» .

فلما انتهت الى «سرف» استقبلها عبيد بن أبى سلمة الليثى فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان قالت : ثم ماذا ؟...

قال : ثم صارت الأُمور الى خير فبايعوا علياً .

فقالت : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا ويحك انظر ماذا تقول ؟

قال : هو ما قلت لك يا أم المؤمنين . والله ما أعرف بين لابتيها أحدًا أولى بها منه . ولا أحق ، ولا أرى له نظيرا فى جميع حالاته . فلماذا تكرهين ولايته ؟ .. فما ردت جوابا عليه.

لقد كانت أم المؤمنين عائشة تعيب على عثمان مخالفته لسنة رسول الله ﷺ وتعيين أقاربه وأنصاره فى الولايات العامة فى الأمصار الإسلامية . وخشيت أن تتحول الخلافة إلى وراثة . وطالبت بتنحية عثمان وعزله ... فلما تم ذلك ... أسندت الخلافة إلى على . لم تتقبل هذا الأمر ... اتنكر على ابن عم الرسول ﷺ شيئا فى خلقه ودينه ؟...

انها أقرب الناس معرفة به وأقدرهم جميعاً للحكم له أو عليه . فلماذا الغضب على رجل هو أقرب الناس إلى بيت النبى ﷺ . وزوج ابنته وأبو حفيديه ؟

أيكون هذا الغضب يرجع بأسبابه إلى الكلمة التى قالها الإمام فى حادث الإفك عندما سأله رسول الله عن رأيه فى عائشة . فقال له : يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير (ابن كثير جـ٥ ص ٦٤) .

فلا ريب أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد جانبه التوفيق فى تلك النصيحة إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبى وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبى قد أدانها وأنف من معاشرتها، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحى فى زمانها ولا بعد زمانها . وقد يتعدى

الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذى أفكوا به مطعناً فى صدق الدين ونبيه .

وهذا كله ما نحسب عليا رضي الله عنه قد سها عنه وهو ينصح إلى النبى بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبى وبيته .

وهذه الكلمة التى قالها الإمام على لا تنسى لأن المرأة قد تنسى كل شئ إلا شيئا واحدًا هو أن تحس أن هناك شخصا آخر رجلا كان أو امرأة يريد التفريق بينها وبين زوجها .

ولكننا نستبعد أن يكون ذلك هو العامل الأساسى الذى من أجله خرجت السيدة عائشة رضى الله عنها لحرب الإمام على أو تحريض المسلمين على عدم البيعة له ..

وصاحب العقد الفريد يقدم لنا رواية مضمونها أن عائشة رضى الله عنها قالت : كيف يقتل عثمان بعد أن استتاب . وعزل أقاربه وأنصاره . لقد تُرك عثمان كالثوب الأبيض نقيًا من الدنس ثم عدوا عليه فقتلوه (أنساب الأشراف للبلاذرى جـ ٢ ص ١٠١) .

وعندما قال لها عبيد بن أبى سلمة : «يا أمة إن أول من أمال حرفه لأنت» (تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٤٧٧) .

قالت : قد قلت وقالوا . وقولى الأخير خير من قولى الأول.

أما أنها كانت تريد للخلافة طلحة بن عبيد الله لأنه من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها . وكان

يؤازرها فى هذا الأمر الزبير زوج أختها أسماء وابنه عبد الله ابنها الذى اختارته لكنيتها فى بعض الروايات فكانت تكنى من أجله بأُم عبد الله .

ومما يؤيد هذه الرواية أنها عندما كانت فى طريقها إلى مكة لقيت ابن عباس موفدا من قبيل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينه وبين الثائرين فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله .

لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإن يل الخلافة يسر سيرة ابن عمه أبى بكر رضي الله عنه » .

قال لها ابن عباس : يا أمة لو حدث - أى اعتزل عثمان ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا . قالت : أيها عنك لست أُريد مكابرتك ولا مجادلتك (الطبرى جـ ٣ ص ٤٣٤) .

وتضطرب الروايات هنا أشد الاضطراب وتتباين أشد التباين . ويكاد الوصول فيها إلى رأى أمثل يكون من قبيل المحال .

فلنتابع مع أم المؤمنين رحلتها التى انتهت بمعركة الجمل .

أم المؤمنين عائشة وموقعة الجمل

أرادت عائشة رضى الله عنها إيقاع القصاص بقتلة عثمان، حتى لا يكون قتل الحكام والأُمراء سنة يلجأ إليها العامة . كلما خالفهم أمير أو حاكم . ولأن قتل الأُمراء أو الخلفاء على هذه الصورة باب خطير يشيع الفتنة . ويدفع الأطراف جميعا إلى رفع السلاح والدخول فى معمعة القتال . الأمر الذى يفرق المسلمين ويشتت وحدتهم . ويضعف هيبتهم.

ولبى دعوة عائشة أمهات المؤمنين وآزرنها فى المطالبة بدم عثمان وإنزال العقوبة بقتلته ، وكان رأيهن أن تقصد عائشة المدينة . فلما تحول رأيها إلى أهل البصرة آثرن البقاء على الخروج معها وأما حفصة ابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنها . فأرادت الخروج مع عائشة . وفاء للذكرى الجميلة التى ألفت بينهم وجمعتهم فى بيت الرسول ﷺ ، وكانت حفصة دائما معها تشاركها فيما يعن لها من أمور . وما تدبره من مواقف لأمهات المؤمنين الأخريات .

فعزم عليها أخوها عبد الله بن عمر أن تقعد فقعدت . وبعثت إلى عائشة تعتذر إليها لأن عبد الله حال بينها وبين الخروج .

فقالت عائشة : يغفر الله لعبد الله . (تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ٤٧٠).

وأما أم سلمة فلما رأت صنع عائشة وعزمها على الخروج كتبت إلى عائشة : «أما بعد فإنك سُدة بين رسول الله ﷺ وبين أُمته . وحجابك

مضروب على حرمته وقد جمع القرآن الكريم ذيلك فلا تبذليه . وسكن عقيرتك فلا تضيعيه» .

الله من وراء هذه الأُمة قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال . ولا يرأب بهن إن انصدع .

خمرات النساء غض الأبصار . وضم الذيول . ما كانت قائلة لرسول الله . وقد هتكت حجابه الذى ضربه عليك ؟ .

ولو أتيتُ الذى تريدين ثم قيل لى ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى الله هاتكة حجابًا قد ضربه علىَّ . فاجعلى حجابك الذى ضرب عليك حصنك فابغيه منزلاً لك حتى تلقيه فإن أطوع ما تكونين إذا ما لزمته . وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه . ولو ذكرتك كلامًا قاله رسول الله ﷺ لنهشتنى نهش الحية والسلام» (الغائق للزمخشرى جـ ص ٢٩٠ والعقد الفريد حـ ٣ ص ٩٦) .

وما كان يصل هذا الخطاب إلى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - حتى ذهبت إلى أم سلمة فى بيتها وقالت : «ليس مسيرى على ما تظنين ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فئتين متناجزتين» .

فقالت أم سلمة رضى الله عنها :

يابنت أبى قحافة أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله ﷺ وأنت كبيرة أُمهات المؤمنين . وكان رسول الله ﷺ يقسم لنا من بيتك . وكان جبريل أكثر ما يكون فى منزلك .

فقالت عائشة : إن عبد الله أخبرنى أن القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائماً فى شهر حرام . وقد عزمت على الخروج على البصرة . ومعى الزبير وطلحة فاخرجى معنا لعل الله أن يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا .

فقالت أم سلمة : انك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه القول . وما كان اسمه عندك إلا نعثلا . وإنك لتعرفين منزلة على ابن أبى طالب عند رسول الله ﷺ أفأذكرك ؟

قالت : نعم .

قالت : أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه . حتى إذا هبط من قريد ذات الشمال خلا بعلى بناحية فأطال فأردت أن تهجمين عليهما فنهيتك فعصيتنى - فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية .

فقلت : ما شأنك ؟

فقلت : انى هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلى :

«ليس لى من رسول الله ﷺ إلا يوم من تسعة أيام أفما تدعنى يابن أبى طالب ويومى ؟ ..

فأقبل رسول الله ﷺ وهو غضبان محمر الوجه فقال : «ارجعى وراءك والله لا يبغضه أحد من أهل بيتى ولا من غيرهم من الناس إلاوهو خارج من الإيمان» فرجعت نادمة ساقطة .

قالت عائشة : نعم أذكر ذلك (أعلام النساء حـ ٣ ص ٣٧) .

قـالت : وأذكـرك أيضـا كنـت أنت وأنـا مع رسـول الله ﷺ وأنت تغسلين رأسـه وأنا أحيس لـه حيسـاً . وكان الحيس يعجبه، (الحيس . الخلط وهو طعام يتخذ من تمر يخلط بسمن وأقط) فرفع رأسـه وقال «ياليت شعرى أيتكن صاحبة الجمل الأذنب تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط. فرفعت يدى من الحيس فقلت : أعوذ بالله ورسوله من ذلك . ثم ضرب على ظهرك وقال .

إياك أن تكونيها . ثم قال : «إياك أن تكونيها يا حميراء أما أنا فقد أنذرتك» .

قالت عائشة نعم أذكر هذا (شرح نهج البلاغة حـ ٢ ص ٧٨) .

«قالت : واذكر أيضا كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ فى سفر له وكان على يتعاهد نعلى رسول الله ﷺ فيخصفها ويتعاهد أثوابه فيغسلها ، فنقبت له نعلاً . فأخذها يومئذ يخصفها وقعد فى ظل شجرة وجاء أبوك ومعه عمر فاستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب ودخلا يحادثانه فيما أرادا ثم قالا :

«يارسول الله إنا لا ندرى قدر ما تصحبنا فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعاً» .

فقال لهما : أما إنى قد أرى مكانه ولو فعلت لتفرقتم عنه. كما تفرقت بنو اسرائيل عن هارون ابن عمران . فسكتا ، ثم خرجا .

فلما خرجنا إلى رسول الله ﷺ قلت له : وكنت أجرأ عليه منا - من كنت يارسول الله مستخلفاً عليهم ؟

فقال : خاصف النعل .

فنزلنا فلم نرَ أحدا إلا علياً .

فقال : هو ذاك .

فقالت : عائشة : نعم أذكر ذلك .

فقالت : فأى خروج تخرجين بعد هذا ؟

فقالت : انما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله .

فقالت : أنت ورأيك .

فانصرفت عائشة عنها وكتبت أم سلمة بما قالت .

ثم ماذا ؟ .. حملت عائشة أم المؤمنين فى هودج قد ألبس جلود النمر ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد .

ثم نادى المنادى : إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين . والطلب بثأر عثمان فليتبعنا ثم خرجت عائشة أم المؤمنين فتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق فلم ير يوم كان أكثر باكيا على الإسلام أو باكيا له من ذلك اليوم ، حتى دعى ذلك اليوم بيوم النحيب (تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ٤٧٨) وأمَرت عائشة على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فكان يصلى بهم فى الطريق وبالبصرة حتى قتل . وخرج معها مروان بن الحكم وسائر بنى أُمية إلا من خشع وأخذوا معهم دليلاً يقال له العُرنِى

فسار معهم فكان لا يمر على واد ولا ماء إلا سألوه عنه حتى طرقوا «ماء الحوأب» فنبحتهم كلابها .

فقالوا : أى ماء هذا ؟ ..

قال : ماء الحوأب .

فصرخت عائشة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالت :

«أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقا . ردونى تقول ذلك ثلاثاً فأناخت وأناخوا حولها وهم على ذلك وهى تأبى حتى كانت الساعة التى أناخوا فيها من الغد .

فجاءها ابن الزبير فقال : النجاء النجاء فقد أدرككم والله على بن أبى طالب فارتحلوا وشتموا الدليل وصرفوه» (تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٤٧٥ . وراجع شرح نهج البلاغة حـ٢ / ٨٠ والتقى الجمعان ، وتقاتلوا قتالاً شديدًا وكانت الدائرة على جيش طلحة والزبير ونصر الله جيش على بن أبى طالب ﵁ وكان أول عمل قام به أن أصدر أمره بالمحافظة على «هودج» أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها (اليعقوبى حـ ٢ ص ٢١٣) .

ثم جهز على عائشة بكل شىء ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام . واختار لها أربعين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وألبسهن العمائم وقلدهن بالسيوف وقال لهن : لا تعلمن عائشة أنكن نسوة

وأنتن اللاتى تلين خدمتها وحملها فلما أتت المدينة قيل لها كيف رأيت مسيرك؟

قالت : كنت بخير . والله لقد اعطى على بن أبى طالب فأكثر . ولكنه بعث معى رجالا . فعرفها النسوة أمرهن فسجدت لله شكرا وقالت :

«ما ازددت والله يا بن أبى طالب إلا كرمًا وودت أنى لم أخرج وأن أصابنى كيت وكيت وإنما قيل لى تخرجين فتصلحين بين الناس . فكان ما كان» (مروج الذهب حـ٢ ص ١١) .

وتمر الأيام وتكر الليالى . وتحاول أم المؤمنين عائشة أن تكفر عن هذا العمل الذى قامت به . وتتوب إلى الله آناء الليل وأطراف النهار . وحاولت أن تعتزل الحياة . وتفر من الناس . وأن تعيش لعبادتها والتقرب إلى ربها . حتى كان يوم دخل عليها بعض النسوة يخبرنها بقتل على بن أبى طالب رضي الله عنه عدت إلى قبر رسول الله ﷺ فلم يبق فى المسجد أحد من المهاجرين إلا استقبلها يسلم عليها ، وهى لا تسلم ولا ترد السلام ، ولا تطيق الكلام من غذرة الدمعة . وغمرة العبرة وتتعثر فى أثوابها والناس من خلفها حتى أتت إلى الحجرة فأخذت بعضادتى الباب ثم قالت :

«السلام عليك يا نبى الهدى . السلام عليك يا أبا القاسم. السلام عليك يارسول الله . وعلى صاحبيك . يارسول الله أنا ناعية إليك أحظى أحبابك وذاكرة لك أكرم أوادئك عليك قتل والله حبيبك المجتبى

وصفيك المرتضى قتل والله من زوجته خير النساء . قتل والله من آمن ووفى . وإنى لنادبة ثكلاء وعليه باكية حراء . فلو كشف عنك الثرى لقلت إنه قتل أكرمهم عليك أحظاهم لديك» (تاريخ الطبرى وراجع اعلام النساء حـ ٢ ص ١٠٣) واشتاقت عائشة -رضى الله عنها-) إلى الأحبة الذين سبقوها إلى الدار الأخرة . وتوعكت فلزمت فراشها . واشتد عليها المرض . وجاء عبد الله بن عباس يستأذن عليها قبيل موتها . وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن فقال لها : هذا عبد الله بن عباس يستأذن عليك .

فقالت : دعنى من ابن عباس فإنه لا حاجة لى به ولا بتزكيته .

فقال : يا أمتاه إن ابن عباس من صالحى بنيك يسلم عليك ويودعك.

قالت : فأذن له فدخل فلما أن سلم وجلس ، قال : «أبشرى» قالت : بم ؟

قال : «ما بينك وبين أن تلقى محمدا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد . كنت أحب نساء رسول الله إلى الله ولم يكن رسول الله يحب إلا طيبا ، وسقطت قلادتك ليلة الإيواء فأصبح رسول الله ليطلبها حين يصبح فأصبح الناس ليس معهم ماء . فأنزل الله أن يتيمموا صعيدا طيباً ، فكان ذلك من سبيلك ، وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة فأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الأمين فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هى تتلى فيه آناء الليل والنهار» .

فقالت : «دعنى منك يا ابن عباس فوالذى نفسى بيده لوددت أنى كنت نسيا منسيا .

وبلغ الكتاب أجله . وفارقت روحها جسدها فى ١٧ رمضان سنة ٥٧ هـ وهى ابنة ست وستين سنة وأمرت أن تدفن من ليلتها . (أخرجه أحمد فى المسند جـ ١ / ٢٧٦ ، ٣٤٩ وصلى عليها أبو هريرة ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع - كما أوصت على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت . وسارت الجموع من ورائها باكية معولة فلم تُرَ ليلة أكثرَ ناسا منها وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين . وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة وتنافس. وأَخمد الزمن ذاك اللهب الذى توهج أعواما فى ذلك الكيان الرقيق اللطيف .

وفى صحيح البخارى أن عائشة رضى الله عنها أوصت عبد الله بن الزبير ابن اختها أسماء - أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع .

ونزل معها إلى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير . والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن وكلهم من رواة الحديث عنها (طبقات ابن سعد . والاستيعاب . والإصابة) .

ونامت أخيرا . وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت فى السادسة من عمرها . معنيا يتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة .

من الشهر المبارك . شوال الذى شرفت فيه بالزواج من خير البشر. خاتم النبيين ﷺ . رضى الله عنها وأفسح لها فى جناته . إنه سميع قريب مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) ﴾ [النور: ١١ – ١٧] .

أقوال العلماء فى نزول الآيات

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآيات بسبب اتهام أم المؤمنين عائشة . قال ذلك الإمام القرطبى جـ١٢ صـ١٩٧.

وقاله الإمام بن كثير فى تفسيره جـ٣ صـ٢٦٨ .

وقاله صاحب كتاب الدر المنثور جـ٥ صـ٢٥ .

وقاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى جـ٧ صـ٤٣١ .

وقاله الإمام الواحدى فى كتابه «أسباب نزول القرأن» صـ١٨٢ .

أسباب نزول الآيات

قال الإمام أحمد رضي الله عنه :

ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت :«كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه . فأيتهن خرج سهمها . خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة - رضى الله عنها - فأقرع بيننا فى غزوة غزاها . فخرج فيها سهمى وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما نزل الحجاب فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل . ودوننا من المدينة . آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى . فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى . فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه بعيرى الذى كنت أركب . وهم يحسبون أنى فيه . قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه . وكنت جارية حديثة السن . فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعدما

استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب . فتيممت منزلى الذى كنت فيه . وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون اليَّ . فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمى . ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى . فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى وقد رآنى قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى . فخمرت وجهى بجلبابى . والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته . فوطئ على يدها فركبتها . فانطلق يقود فى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأني.

وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى سلول .

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك . وهو يريبنى فى وجعى ولا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذى أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يقول : كيف تيكم ؟..

فذلك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت . وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع . وهى متبرزنا . ولا تخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب فى التنزه فى البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها فى بيوتنا .

فانطلقت أنا وابنة أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف وهى أم

مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب . وحين فرغنا من شأننا أقبلنا نحو بيتى فعثرت أم مسطح فى مرطها . فقالت : «تعس مسطح» .

فقالت لها . بئسما قلت تسبين رجلا شهد بدراً ؟...

فقالت : ألم تسمعى ما قال ؟

قلت : وماذا قال ؟

قالت : فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا الى مرض . فلما رجعت إلى بيتى دخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلم. ثم قال «كيف تيكم» ؟

فقلت له : «أتأذن لى أن آتى أبوى؟» .

قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلها . فأذن لى رسول الله ﷺ فجئت أبوى فقلت لأمى :

«يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به» ؟

فقالت : أى بنية هونى عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها إلا أكثرت عليها .

قالت . فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها ؟؟.. فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت أبكى. قالت . فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب . وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله . قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود .

فقال أسامة : يارسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا» .

وأما على بن أبى طالب فقال :

يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية يصدقك الخبر» .

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : «أى بريرة رأيت من شيء يريبك من عائشة» ؟

فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت منها امرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن . تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله» فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أَبى سلول . قالت فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر :

يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى . فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الا خيرا . وما كان يدخل على أهلى إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال :

وأنا أعذرك منه يارسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج - وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله . ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل» فقام أسيد ابن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة :

«كذبت لعمر الله لنقتلنه - فإنك منافق تجادل عن المنافق».

فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر . فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ قالت : وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

قالت : فبينما هما جالسان عندى . وأنا أبكى . إذا استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى . فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس .

قالت . ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل . وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شىء . قالت . فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال:

«أما بعد ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه . فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب . تاب الله عليه» .

قالت . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله .

فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

فقلت لأُمى : أجيبى رسول الله ﷺ .

فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .

قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثير من القرآن : والله لقد علمت . لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم أنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا

تصدقوننى . ولئن أعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال ليوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف : ١٨] .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى . قالت . والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى . ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى . ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق . وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه .

قالت : فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى ياعائشة أما الله عز وجل فقد برأك» .

قالت : فقالت لى أمى : قومى اليه . فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى وأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور : ١١] .

فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه . وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أُنفق عليه شيئا أبداً بعد الذى قال لعائشة .

فـأنزل اللّه تعـالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢] .

فـقـال أبو بكر : «بلى واللّه إنى لأحب أن يـغفـر اللّه لـى» فـرجع إلى مسطح النفقـة التى كان ينفق عليـه . وقـال . واللّه لا أنزعهـا منه أبدا» (أخرجه البخاري) .

فاطمة الزهراء

رضى الله عنها

بنت رسول الله وزوجة الإمام . وأُم الشهداء .

وأُمها خديجة بنت خويلد . أم المؤمنين . الزوجة المؤمنة الصابرة الحكيمة التى وقفت بجوار زوجها تشد من أزره . وتخفف من همومه . وتقدم له كل ما تملك من ثروة ومال . وعندما نزل عليها جبريل عليه السلام فى غار حراء . وعاد إليها يقص ما حدث ويقول : لقد خشيت على نفسي» استقبلت هذا الخبر بالحكمة والعقل والتدبر . وأخذت تخفف عنه وتواسيه وقالت له :

«الله يرعانا يا أبا القاسم . أبشر يا بن العم واثبت . فوالله الذى نفس خديجة بيده . إنى لا أرجو أن تكون نبى هذه الأُمة. والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم . وتصدق الحديث . وتحمل الكل. وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر» .

وزوجها الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه الذى قال له رسول الله ﷺ أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدي» (صحيح مسلم (٢٤٠٤)) .

وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة والذى كان الرسول ﷺ يقول عنهما : **«هذان ابناى وابنا ابنتى اللهم أنى أُحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»** (أخرجه الترمذى ٣٧٨٢ حديث صحيح) .

ولدت ـ رضى الله عنها ـ وقريش تجدد بناء الكعبة قبل مبعث الرسول ﷺ بخمس سنين وفتحت عينيها على أمر عظيم ـ أمر الرسالة التى حملها والدها للبشرية كلها ـ وتحمل فى سبيل ذلك الشىء الكثير من أذى قريش . والسخرية به . والتنكيل بأتباعها . وحصاره وذويه وأقاربه فى شعب من شعاب مكة قرابة الثلاث سنوات ..

لقد وعت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى طفولتها المبكرة الحرب التى شنتها قريش على أبيها . فكانت تتبعه إذا خرج وترافقه إذا عاد . ثم حدث حادث لا تتساه لقد كان والدها ساجدًا فى الحرم وحوله الناس من مشركى قريش فجاءه عقبة بن أبى معيط بسلى جذور فقذفه على ظهره . فلم يرفع ﷺ رأسه حتى تقدمت فاطمة . فأخذت السلى . ودعت على من صنع ذلك . وإذ ذاك رفع النبى رأسه وقال : اللهم عليك الملأ من قريش . اللهم عليك أبا جهل بن هشام . وعتبة بن ربيعة. وشيبة بن ربيعة . وعقبة بن أبى معيط . وأبى بن خلف» (فتح البارى جـ٦ ومسلم وأحمد) فخشع المشركون لدعائه . وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته . وانصرف الى بيته . تصحبه ابنته فاطمة . وتوالت الأحداث . وركبت قريش رأسها ـ وصبت جام غضبها على المسلمين وأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة الى الحبشة . وتمزقت القلوب والأفئدة وتشتت الأحباب .

فاطمة ترقب كل ذلك . ويحاول عقلها الصغير أن يرتب الحوادث. ويتفهم النتائج ويرصد جهاد الرسول ﷺ .

حتى كان يوم فقدت فيه القلب الكبير الذى يعطف عليها . واليد الحنون التى تربت والفم الباسم الذى كان دائما يخفف من جفاف الحياة . ومن قسوة الأعداء ويحيل الدنيا إلى جنة فواحة بالعطر زاخرة بالأرج .

لقد ماتت أمها خديجة فى وقت أشد ما تكون هى فى حاجة إليها وكذلك والدها وأحست فاطمة أن أباها فقد بموتها الشىء الكثير .

إن خديجة لم تكن بالنسبة لأبيها زوجة فحسب أو امرأة ككل النساء ولكنها كانت الزوجة الوفية التى تقدر زوجها وتعرف ما عليها من واجبات .

وكانت الأم الحنون العطوف التى يسعدها سعادة أبنائها وتوفيقهم فى أعمالهم وكانت الصديقة المخلصة . التى يلجأ اليها كلما ضاقت به الحياة . أو آلمه جهل الآخرين ولؤمهم وكانت ... وكانت ...

فهل تستطيع فاطمة أن تقوم بهذا العبء . وتملأ الفراغ الذى تركته والدتها ؟... إنها تقدر ظروف أبيها . وتعرف مقدار التبعة الملقاة على عاتقه . فلتكن فى هذا البيت الذى خلا بموت خديجة زهرة فواحة بالعطر . تجفف الدمعة وتطبب القلوب وتشارك فى أعباء الجهاد . ولكن الرسول ﷺ بعد موت خديجة . لم يعد إلى بيته إلا فى فترات خاطفة . ولم تجد فاطمة فسحة من الوقت لتجلس معه أو تخفف عنه ما يعانيه ومع هذا أحست أن هناك أمرًا يدبره ويعد العدة له فما هذا الأمر ؟

ولماذا لم يخبرها به ؟...

إن البشر يكاد لا يملأ وجهه . والبسمة الحانية عادت ترف على شفتيه كما كانت . أأذعنت قريش لما يدعوه لها من نبذ الأصنام وعبادة الرحمن ؟ .. أيمكن أن تستجيب لكلمة التوحيد ؟..

من يدرى أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب .. ولماذا لم تصل فاطمة إلى نهاية فى تفكيرها انهمكت فيما هى فيه . من عمل البيت واعداد الطعام .

حتى إذا فرغت مما فى يدها أخذتها إعفاءة من النوم فلم تستيقظ الاعلى صوت طرقات على الباب ... وفتحت عينيها فرأت نور الصباح يملأ الكون . ولم يكن والدها فى مخدعه الذى اعتاد أن يبيت به . وعندما استفسرت من الطارق ؟..

جاءها صوت على رضي الله عنه من خلف الباب . يخبرها فيه بهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب . وعليها وأختها يعدا أمرهما للحاق به بعد يوم أو يومين ... وهاجرت فاطمة الى المدينة . واستقرت مع أبيها وسط قوم بذلوا أموالهم وأرواحهم رخيصة فى سبيل نصرة الرسول ﷺ ونصرة دينه وأخذت الحياة تصفو بعض الوقت ... واستعادت فاطمة صحتها وقوتها . وبدأ شبابها ينمو . وأنوثتها تكتمل . وغدت مطمع الرجال الراغبين فى الزواج .

ويتقدم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ لصاحبه رسول الله يطلب منه فاطمة لتكون زوجة له . (كتاب السمط الثمين ـ المحب الطبرى صـ١٧١).

فقال الرسول ﷺ يا أبا بكر انتظر بها القضاء . فذكر ذلك أبو بكر لعمر .

فقال له عمر . ردك يا أبا بكر .. ثم إن أبا بكر قال لعمر :

«أخطب فاطمة الى النبى ﷺ فخطبها . فقال له مثل ما قال لأبى بكر : انتظر بها القضاء فجاء عمر الى أبى بكر فأخبره .

فقال له : ردك ياعمر .

ثم إن أهل على ـ رضى الله عنه ـ قالوا . لعلى بن أبى طالب: اخطب فاطمة إلى رسول الله ﷺ .

فقال : بعد أبى بكر وعمر ؟

فذكروا له قرابته من النبى ﷺ (أخرجه بن سعد فى الطبقات ١٩/ ٨ ورجاله ثقات) .

فأتى رسول الله ﷺ فسلم عليه .

فقالت : ما حاجة ابن أبى طالب ؟.

قال : ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

قال : مرحبا وأهلا : لم يزده عليهما فخرج عليٌّ على أولئك الرهط من الأهل والأنصار الذين ينتظرونه . قال : ما وراءك؟..

قال : ما أدرى غير أنه قال لى : مرحبا وأهلاً .

قالوا : يكفيك من رسول الله إحداهما . أعطاك الأهل وأعطاك

المرحب . وتمت خطبة فاطمة إلى عليٍّ . رضى الله عنه . وما لبث أن قدَّم مهرها . درعاً حطمية كان أعطاها له الرسول ﷺ وباع بعيراً بثمانين وأربعمائة درهم .

فقال ﷺ اجعلوا ثلثين فى الطيب . وثلثا فى الثياب وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال له « انطلق وادع لى أبا بكر وعمر . وعثمان وطلحة والزبير وبعض الأنصار قال فانطلقت فدعوتهم . فلما اخذوا مجالسهم قال ﷺ :

«والحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته . المطاع لسلطانه . المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه . الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه . وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمرا مفترضا : وحكما عادلا وخيرا جامعا أوشح بها الأرحام وألزمها الأنام فقال الله عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان : ٥٤]

وأمر الله يجرى إلى قضائه . وقضاؤه يجرى إلى قدره ولكل أجل كتاب .

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد : ٣٩] .

ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على . على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة . فجمع شملهما وبارك لهما وأطاب

نسلهما . وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة . ومعادن الحكمة . وأمن الأُمة. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم» (طبقات بن سعد جـ٨ صـ١٥) .

قال أنس . وكان عليّ رضى الله عنه غائبا فى حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها ... ثم أَمرنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ... فقالوا «انتبهوا» فبينما نحن كذلك إذ أقبل عليٌّ فتبسم اليه رسول الله ﷺ وقال :

«ياعلى ان الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وإنى زوجتكها على أَربعمائة مثقال فضة» .

فقال عليٌّ : رضيت يارسول الله .

ثم إن عليا خر ساجداً شاكراً لله . فلما رفع رأسه قال رسول الله ﷺ : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير والطيب» (طبقات بن سعد جـ٣ صـ١٦) .

وزفت فاطمة إلى عليٍّ رضي الله عنه .

وكان زفافاً مباركاً هادئا لم تعلق فيه الثريات . ولم تعزف فيه الموسيقى . ولم تتناقله وسائل الإعلام والصحافة . ولم تقدم إليهما مئات التهانى والبرقيات كما يحدث فى زماننا هذا . ولم يتخم منزلهما بالتحف النادرة . أو الريش الفاخر . أو الأثاث الثمين المطعم بالذهب والفضة . والأصداف الغالية. وإنما كان بيتاً بسيطاً معبراً .

تحدثت أم أيمن رضى الله عنها . تعدد أثاث فاطمة . وما حمل لها

من جهاز . فقالت : كان جهازها خملة ووسادة أدم حشوها ليف . ورحايتين ، وسقاء وجرتين» (طبقات بن سعد جـ٨ صـ٢٣) . ومن أول يوم وطئت فيه فاطمة رضى الله عنها منزل زوجها . أحست أن عليها واجباً كبيراً إزاء زوجها . فهى تعرف ظروفه الاقتصادية . وتعلم دخله . وما تتطلبه الحياة من أعباء وتكاليف . ولم يستطع زوجها أن يستأجر لها خادماً تعاونها فى ما تقوم به من العمل الشاق . فحاول أن يساعدها فى بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك .

حتى ناء كلاهما بما يحمل . فانتهز على كرم الله وجهه عودة النبى ﷺ من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا وقال: «يافاطمة لقد شقوت حتى أسليت صدرى وقد جاء أبوك بسبى فاذهبى إليه فالتمسى واحدة تخدمك» .

فأجابته وهى تنحى الرحى جانباً فى تعب وكلال : أفعل إن شاء الله... ثم قامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية فلما رآها رسول الله ﷺ هش لها وسأل :

ما جاء بك يابنية ؟...

أجابت : جئت لأسلم عليك .

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله .

ثم عادت من حيث أتت لتنبئ زوجها أنها استحت أن تطلب من أبيها شيئا . فقام على رضي الله عنه وصحبها مرة أخرى . إلى بيت رسول الله ﷺ وتلى السؤال عنها فقال :

«يارسول الله أدارت فاطمة الرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت

القربة حتى أثرت فى نحرها ، فلما أن جاءك الخدم . أمرتها أن تأتيك فتستخدمها خادماً تقيها حر ما هى فيه» لقد مست هذه الشكوى قلب الأب الحنون وشغلته عن كل شىء حوله . ولكن أيعطى ابنته ما طلبت ويحرم فقراء المسلمين؟...

إن فاطمة من أقرب الناس إلى قلبه . بل هى قطعة منه كما كان يردد دائما . وهو أعلم الناس بما تعانيه ولكن بجوار هذا مجموعة الفقراء من أهل الصفة الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله . وانقطعوا للعبادة . ونزل وحى السماء يطلب من النبى ﷺ ألا يتحول عنها . أو يهمل مطالبهم أو يغفل عن حق من حقوقهم قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢] .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨] .

إذن هؤلاء أحق من فاطمة ومن على .

واستراح الرسول ﷺ لهذه النتيجة عندها قال لهما : «لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم . ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن» .

وأنصرفت فاطمة وعليّ رضى الله عنهما . وأحس الرسول ﷺ أن قلبه ينسحب معهما ويتبعهما حيث يتجهان . حتى إذا جن المساء . ولف

الكون ظلام دامس . اتجه رسول الله ﷺ الى منزل الحبيبين . ودلف عليهما من الباب فوجد الزوجين قد اتجها إلى فراشهما وأوشك الكرى أن يأخذ بمعاقد أجفانهما . وما كادا يشاهدان رسول الله ﷺ حتى هبَّا للقائه فابتدرهما ﷺ قائلا «مكانكما» .

ثم أضاف فى رفق وهو يقدر حالهم :
ألا أُخبركما بخير مما سألتمانى ؟..
أجابا معا : بلى يارسول الله .. قال :

كلمات علمنيهن جبريل : «تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً ، واذا أويتما الى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين» . (أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود) .

ثم ودعهما ومضى . بعد أن زودهما بهذا المدد الإلهى ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب وتهزم المتاعب .

«ولقد سُمع الإمام على بعد أكثر من ثلثى قرن يذكر كلمات الرسول ويقول : «فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن» .

سأله رجل من أصحابه : ولا ليلة صفين ؟

فأجابه مؤكدا : ولا ليلة صفين (أخرجه مسلم وطبقات ابن سعد جـ٨ صـ٢٥) .

ثم ماذا ؟...

هل مرت حياة الزوجين رخية هانئة ؟...

أكان السرور يرفرف على جنبات البيت الصغير ؟.. البيت الذى يعانى فيه على وفاطمة الكثير من شظف العيش ، وضيق ذات اليد ؟..

البيت الذى تعمره زوجة مرهقة بتبعاته وأعماله ويدبر شئونه الاقتصادية رجل تملأ قلبه هموم كبار ينوء بها أصلب الرجال ؟..

الحقيقة - التى يرويها التاريخ - أن رياح الخلاف أوشكت أن تطيح بأمن هذا البيت وسعادته لماذا ؟.. لأن فاطمة رضى الله عنها كانت - كما يصفها الرواة - صغيرة الجسم .. نحيلة العود. رقيقة الإحساس مرهفة الشعور .

وكان الإمام على - رضى الله عنه - فية شدة أَقرب إلى أن تكون صرامة وخشونة أوشكت أن تكون غلظة . وحزما كاد يتحول إلى صلابة وهذه صفات لا تعيب الرجال وهو يدرب فى بيداء الحياة ويصارع تبعاتها الجسام أما فى البيت : فالمرأة فى حاجة من رجلها الى يد حانية ، تزيل التعب وتخفف الآلام . وخصوصا مع زوجة مثل فاطمة لاقت فى مستهل حياتها الكثير من المتاعب والصدمات .

حدثوا أنه ﷺ رئى ذات مساء وهو يسعى الى دار بنته فاطمة بادى الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشراً فقال قائل من الصحابة :

«يارسول الله دخلت وأنت على حال . وخرجت ونحن نرى البشرى فى وجهك ؟...

فأجابه عليه الصلاة والسلام .

«وما يمنعنى وقد أصلحت بين أَحب أثنين إليَّ» ؟.. (طبقات بن سعد جـ٨ صـ٢٠) .

وحدث مرة - كما يذكر الرواة - أن ضاقت الزهراء بما تجد من شدة زوجها وصلابته فقالت « والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ فانطلقت وانطلق عليٌّ بأثرها ، فقام حيث يسمع كلامهما .

فشكت إلى رسول الله غلظة على وشدته عليها فقال : «يابنية اسمعى واستمعى واعقلي» .

قال على : فكففت عما كنت أصنع وقلت : والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً» ولكن هل بر على بما وعد ؟

وهل حرص على إرضاء زوجه فاطمة ؟... ووطن نفسه على احتمال ما كانت تأتيه مما لم يوافق هواه ؟

تقول الروايات التاريخية أن الإمام على أراد الزواج من ثانية . وفى حسبانه أنه يجرى على مألوف عادة قومه . فى الجمع بين زوجين أو أكثر . وهو فى نفس الوقت يفعل ما أباحه الإسلام من تعدد الزوجات... ولكن من تكون الزوجة الثانية التى فكر الإمام على رضي الله عنه فى مشاركتها فى بيت واحد مع بنت رسول الله ﷺ ؟..

أهى ابنة رجل من السابقين الى الإسلام الملبين داعى الله؟..

أم أن والدها كان من هؤلاء الذين استشهدوا دفاعاً عن نصرة

الحق؟ .. أو تكون كريمة أحد الرجال الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم رخيصة فى سبيل نصرة الله وإعلاء كلمة الله ؟...

الحقيقة أنها لم تكن ابنة أحد من هؤلاء ؟؟...

ولكنها كانت ابنة عدو الإسلام الأول ... إنها كريمة أبى جهل....

نعم العدو الأول للدعوة ، والذى كان إذا سمع برجل أسلم وتابع محمداً فيما يدعو إليه أنبه وأخذه وقال :

«تركت دين أبيك وهو خير منك ؟.. لنسفهن حلمك . ولنقبحن رأيك. ولنضعن شرفك» وان كان أسلم تاجراً قال : «والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ؟...

وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به .

أتكون ابنة هذا الرجل شريكة لفاطمة فى زوجها ؟...

إن هذا لن يكون ...

ووصل الخبر الى مسامع الزهراء رضى الله عنها .. فانكسر قلبها.. وتألمت نفسها واتجهت الى أبيها لتضع أمامه جملة حالها وقالت : «يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك وهذا علِيّ ناكح بنت أبى جهل ﷺ (صحيح الأمام مسلم جـ١٦/٤) وما كادت فاطمة تنتهى من كلامها حتى دلف على رسول الله ﷺ بنو هاشم بن المغيرة يستأذنوا رسول الله ﷺ فى تزويج ابنتهم من على ؟

وانطلق ﷺ إلى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب فى جماعة المسلمين فقال : «إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم

عليّ بن أبى طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم . اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإن ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها . وانى أتخوف أن تفتن فى دينها» .

ثم ذكر ﷺ صهره أبا العاص .. وهو من بنى عبد شمس لا من بنى عبد المطلب كعليٍّ . فأثنى عليه فى مصاهرته إياه أَحسن الثناء فقال :-

«حدثنى فصدقنى . ووعدنى فأوفى لى . وانى لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً . ولكن والله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبداً» (أخرجه البخارى جـ٧/٦٧ ومسلم ٢٤٤٩ وأبو داود والترمذي) .

«أترى عليا قد أراد الزواج من بنت عدو الإسلام» .

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل فى سبيل الدعوة المحمدية ؟..

بل كيف هان عليه أن يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب . ويكسر قلبها بزواج كهذا لا يمكن أن يؤول إلا بالرغبة فى متاع حس مادى لا يجده لديها ؟ .. لقد كان لزواج محمد ﷺ . من نسائه مبرراته الخاصة وظروفه الملجئة . وإلا فما باله ﷺ قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة فلم يتزوج عليها حتى ماتت . وقد بلغ الخمسين من عمره وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته؟..

ألا فلتكن بنت أبى جهل من حظ غيره . أما هو ، فليس بالذى

يحيط جهاده الباسل . فيستبدل بالنبى ، أبا جهل بن هاشم صهراً ... وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه . فى أحب بناته إليه ، ولن يكون أبو العاص بن الربيع قبل إسلامه . أبر منه ببنت محمد ، ابن عمه عبد الله بن عبد المطلب ولا أرعى فى مصاهرته للنبى ذماماً .

وينتهى به المسرى الى البيت حيث يجد الزهراء فى وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها . فيدنو منها حتى يأخذ مكانه إلى جانبها صامتا لا يدرى ماذا يقول ...

واذا رآها هَمَسَ معتذراً :

«هبينى أخطأت فى حقك يافاطمة .. فمثلك أهل للعفو والمغفرة» ..

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب غفر الله لك يا بن العم (موسوعة آل النبى صـ٥٩٢) فلثم أطراف أناملها . ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد .ويصف لها مشاعره ، حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وإنكاره على أن يتزوج عليٌّ من بنت أبى جهل مع الزهراء . وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدُو الله ببيت واحد أَبداً .. واغرورقت مقلتا «فاطمة» بالدموع تأثراً بحب أبيها وانفعالاً بموقفه ثم قامت للصلاة (موسوعة آل النبى عائشة عبد الرحمن صـ٥٩٢) .

ومرت الأيام بالزوجين الحبيبين هادئة ناعمة ، وتخلصت فاطمة الزهراء مما كانت تعانيه ، وتلاشت المسحة الحزينة التى كانت تملأُ حياتها . وتجعل حياة البيت مهددة بالبوار والإنفصال ، وأقبل الإمام

على زوجته يسكب بين يديها كل صنوف المحبة والوفاء . ولم يمض عام على حادث الجفوة الذى يمثل فى رغبة على فى الزواج من أُخرى حتى كانت الزهراء تضع مولودها الأول الحسن . وسعى البشير الى أبيها النبى بالنبأ السعيد فخف إليه مشوقا فرحا وحمل وليدها بين ذراعيه وتلا الأذان فى مسمعه . وعمت المسلمين فرحة غامرة بمولد الحسن . وأمر جده ﷺ أن يُتصدَّق على الفقراء من أهل المدينة بزنة شعره فضة (انظر مستد الإمام أحمد جـ٦ صـ٣٩٠ والطبرانى ٩١٧ ، ٢٥٧٦ وذكره الهيثمى فى المجمع جـ٤ صـ٥٧ وقال حديث حسن) وكان لوجود هذا الزائر الجديد فى منزل فاطمة أثر كبير فى تدعيم حياة الزوجين والتقائها دائما معا على بكاءه وسروره . نومه ويقظته تدليله وتطبيبه . وما كاد يمضى على هذا النبأ السعيد نبأ مولد الحسن عام أو بعض عام حتى ولدت فاطمة رضى الله عنها «الحسين» وسر الرسول ﷺ بهذين الحفيدين يملآن حضن أُمها الزهراء . ويدخلان الفرحة والأمل فى قلب على وكان الرسول يدعوهما دائما ابنيه .

فعن أَنس بن مالك رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقول لفاطمة . رضى الله عنها .

«ادعى لى ابنيَّ . فإذا ما جاء اليه شمهما وضمهما»

وعن أُسامة بن زيد أنه قال : «طرقت باب النبى ﷺ فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو ؟ فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يارسول الله؟...

«فكشفه فإذا الحسن والحسين . وقال : هذان ابناى وابنا ابنتي» اللهم إنى أحبهما فأحبهما . وأَحب من يحبهما» (أخرجه الترمذى (٣٧٧٢) فى المناقب : باب مناقب الحسن والحسين وهو حديث حسن وصححه ابن حبان والحاكم) .

ومن أجل هذا الحب الكبير الذى ملأ قلب الرسول ﷺ كان دائما يذهب إلى بيت فاطمة ويوصيها بهما خيراً .

وحدث فى إحدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس . والحسن يبكى ويطلب طعاما فلم يهن على الأب أن يوقظ العزيزين النائمين . بل أسرع إلى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها حتى ارتوى . صدق ربى فى وصف رسوله الكريم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم : ٤] .

إن بكاء الطفل آلمه ، ووجد الوالدين نائمين ولا يوقظهما بكاء الطفل. فهما إذن فى تعب شديد . جراء ما يقومان به طوال يومهما من كد وتعب . وهو نبى الرحمة : كما عبر عن نفسه : إنما أَنا رحمة مهداة ، أهداها الله سبحانه وتعالى فى صورة هذا النبى الكريم . وهذه الرحمة تمسح دمعة على خد الصغير ، وتواسى القلوب المحرومة من لقمة تسد الرمق . أو خرقة تستر الجسد . وتخفف من المكروبين والمصابين بعض ما يقع عليهم من قسوة الحياة وهى أشد ما تكون من رحمة وحنواً لهؤلاء الأطفال الصغار الذين لم يعرفوا بعد من أمر شئونهم شيئا .

حتى إذا مر مرة أخرى ببيت على وهو متعجل . فبلغ سمعه صوت بكاء الحسين فدخل مسرعاً ليقول لابنته معاتباً «أو ما علمت أن بكاءه يؤذيني» ؟ (أخرجه الطبرانى ٢٨٤٧) وشب الحسن والحسين . وكان المسلمون كثيراً ما يشاهدون الرسول ﷺ حاملا أحد حفيديه على كتفه. حتى إذا بلغ المسجد وقام للصلاة وضعه إلى جانبه فى رفق وأقبل يؤم القوم، حتى كان يوم أطال الرسول ﷺ السجود على غير عادته . فلما قضيت الصلاة قيل له : «يارسول الله إنك سجدت سجدة أَطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك» .

فقال : كل ذلك لم يكن ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته» (رواه النسائي) وفى يوم وقف رسول الله ﷺ يخطب فى المسلمين . فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران . فنزل النبى ﷺ من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم صدق الله العظيم فى كتابه الكريم : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨] .

نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه).

ولم ينس المسلمون صورة الرسول ﷺ وهو آخذ بكتفى الحسين وقدماه على قدمه ﷺ يرقصه قائلا «ترق ، ترق» فما زال الصبى يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك فيفتحه ويقبله ﷺ وهو يقول «اللهم أحبه فإنى أُحبه» (صحيح مسلم بشرح النووى جـ٥ صـ١٩٥) .

أو صورته ، وقد خرج يوماً فى نفر من صحابته إلى طعام دعوا إليه فإذا بالحسن فى الطريق يلعب مع غلمان من أترابه . فتقدم الرسول ﷺ أمام القوم وبسط يده محاولا أن يمسك بحفيده . والغلام يفر ها هنا وها هنا ، فما زال عليه الصلاة والسلام - يضاحكه حتى أخذه . فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ثم قبله وقال «حسين منى وأنا من حسين. أحب اللهم من أحب حسينا» (أخرجه الترمذى ٣٧٧٧ فى المناقب وابن ماجه ١٤٤ فى المقدمة والحاكم فى المستدرك جـ٣ صـ١٧٧) ثم ماذا ؟.. ولدت فاطمة فى العام الخامس طفلتها الأولى فسماها رسول الله ﷺ زينب : وفى العام السابع ولدت طفلتها الثانية فسماها رسول الله ﷺ «أم كلثوم» وعاش البيت السعيد عيشة هنيئة طيبة . الزوج يحرص على سعادة زوجته ، والأُخرى تبادله نفس الإحساس . وتشاركه فيما يعن له من أمور وتقوم بأعمال بيتها على خير قيام . حتى كان يوم وفاة رسول الله ﷺ وفاطمة فى بيتها تراعى أطفالها . وترتب شئون مملكتها الصغيرة وتنتظر دعوة عليٍّ الذى خرج لبعض حاجته .

واذا برسول من قبل أبيها يقول : إن رسول الله ﷺ يريد فاطمة . فخرجت مسرعة إلى بيت أبيها .

تقول عائشة رضى الله عنها : كل أزواج النبى ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة . فأقبلت فاطمة تمشى ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئا فلما رآها رحب بها وقال : مرحبا يا ابنتى ثم

أجلسها عن يمينه أو عن شماله . ثم سارَّها فبكت بكاء شديداً . فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكت فقلت لها خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرائر ثم أنت تبكين .

فلما قام رسول الله ﷺ سألتها ما قال لك رسول الله ﷺ؟...

قالت : ما كنت أفشى على رسول الله ﷺ سره (صحيح مسلم بشرح النووى جـ٦ صـ٧٢٦) .

قالت : فلما توفى رسول الله ﷺ قلت : عزمت عليك بما لى عليك من الحق لما حدثتيني .

ما قال لك رسول الله ﷺ عند وفاته ؟...

فقالت: أما الآن فنعم أما حين سارَّني فى المرة الأولى . فأخبرنى أن جبريل كان يعارضه القرآن فى كل سنة مرة وأنه عارضه الآن مرتين وأنى لا أرى الأجل الا قد اقترب فاتقى الله واصبرى فإنه نعم السلف أنا لك . قلت فبكيت بكائى الذى رأيت . فلما رأى جزعى سارَّني الثانية.

فقال : يافاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأُمة ؟...

قالت : فضحكت ضحكى الذى رأيت .(أخرجه البخارى جـ٦٢٦٤ فى الأنبياء . ومسلم ٢٤٥٠) .

ثم انصرفت فاطمة إلى دارها . وقلبها لا يطاوعها على فراق أبيها.

ولكن شجعها رسول الله ﷺ على ذلك لترعى أطفالها . وتباشر أمور بيتها . وإنه الآن أصبح صحيحا معافى ... ثم مرت الأيام بطيئة سوداء وذهبت لعيادته فرأته يتحامل على نفسه ويتجمل بالصبر . ويدور على نساء أمهات المؤمنين كمألوف عادته . ولكن ما كاد يبلغ بيت «أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية» حتى اشتد به الوجع . فدعا زوجاته اليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة . أتستطيع أن تفارق أباها وهو فى هذه الحالة ؟...

أيطاوعها قلبها على هذا ؟.

إنها حتى لو أراد لها رسول الله ﷺ ذلك . فانها لا تستطيع وأقامت بجواره تمرضه وتعنى بشئونه . وتتكلف الصبر . وتدعو الله خالصة مؤمنة أن يخفف عن أبيها ما هو فيه ولكن صبره نفد عندما اشتد الوجع . ورأته يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه . وهو يقول «واكرباه».

فقالت بصوت يقطع الأفئدة ويدمى القلوب «واكربى لكربك ياأبتاه» فرد عليها وهو يرنو اليها فى عطف وحنو . «لا كرب على أبيك بعد اليوم» . وبلغ الكتاب أجله ولحق محمد ﷺ بالرفيق الأعلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن وفاة الرسول ﷺ هزت نفوس المسلمين هزًا عنيفا وأثرت فيهم تأثيرا قويا . ولا أدل على ذلك من قول عمر رضى الله عنه عندما بلغه الخبر : أن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن إنما عُرِج بروحه كما عرج بروح موسى . لا لا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدى أقوام

وألسنتهم . يقول ابن عباس : إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال إجلس فأبى عمر أن يجلس ، فقال اجلس ، فأبى عمر أن يجلس ، فقال اجلس ، فأبى أن يجلس . فتشهد أبو بكر فمال الناس إليه وتركوا عمر .

فقال : أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت . قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

قال والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية الا حين تلاها أبو بكر رضي الله عنه .

قال : فتلقاها منه الناس كلهم فما تسمع بشرا إلا يتلوها .

قال الزهرى : وأخبرنى سعيد بن المسيب : أن عمر بن الخطاب قال. والله ما هو إلا أن سمعت أن أبا بكر تلاها فَعقِرْت حتى والله ما تُقلنى رجلاى وحتى هويت الى الأرض وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات .

وكأن هذا الحادث المفجع . رجهم من الداخل رجا عنيفاً واختلف المسلمون فى حقيقته بين مصدق ومكذب ....

أمات رسول الله ﷺ ؟...

أتنتهى حياته بهذه السهولة ؟...

إن هذه نهاية كل حى .. وسبحان الحى الباقى والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

لقد بلغ محمد بن عبد الله رسالة ربه . وأَدى ما عليه من أمانة تجاه أُمته ونزول قول الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

ولكن أَين حجى العقول يقول الذى نزل بها هذا المصاب وفى وسعها أن تفكر ؟.. وأين استقر الإيمان الذى كان يملأ القلوب حتى يوقظ ويثبت فى هذا الفادح الكبير ؟...

لقد استمر المسلمون على ذلك حتى خرج عليهم الرجل الذى أمره الرسول ﷺ أثناء مرضه ، ان يؤم المسلمون . وكان هذا إيذاناً من الله ورسوله . أن أبا بكر هو الرجل الذى بمقدوره أن يرد المسلمين إلى صوابهم ويعيد الشاردين الى ساحة الإيمان . ويوقى الجزيرة العربية من الهلاك والبوار . وبويع أبو بكر بالخلافة . وشغلته أحداث الردة عن نفسه ، وعن أَقرب الناس إليه . واتجه بكليته إلى الله ، وأعلن الحرب على هؤلاء المارقين الخارجين من ربقة الإيمان .

وأرسلت فاطمة إلى أبى بكر - رضى الله عنه - تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك . وما بقى من خمس خيبر .

فقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل آل محمد فى المال» ﷺ أنظر

البخارى جـ٦/١٣٩ ، ١٤١ . وجـ٧/٢٥٩ ومسلم ١٣٥٩ وإنى والله لا أغير شئيا من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التى كان عليها فى عهد رسول الله ﷺ . ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ ولست تاركا شيئا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به . فإنى أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ . ولما أجمع أبو بكر على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ من فدك وبلغ ذلك فاطمة . لاثت خمارها على رأسها . وجاءت لأبى بكر قائلة :

الآن تزعمون أن لا إرث لنا ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

فأجابها أبو بكر فقال :

يابنة رسول الله لقد كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفا رحيما وعلى الكافرين عذاباً اليماً . وأنتم لا يحبكم إلا العظيم السعادة . ولا يبغضكم إلا الردىء الولادة وأنتم عترة الله الطيبون وخيرة الله المنتخبون على الآخرة أدلتنا وباب الجنة لسالكنا . وأما منعك ما سألت . فلا ذلك لي. وأما فدك وما جعل لك أبوك فإن منعتك فأنا ظالم وأما الميراث فقد تعلمين أن رسول ﷺ قال «لا نورث ما تركنا صدقة» (صحيح مسلم جـ٣ صـ١٣٧٩).

قالت : إن الله يقول عن نبى من أنبيائه : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : ٦] .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل : ١٦] .

فهذان نبيان . وقد علمت أن النبوة لا تورث . وإنما يورث ما دونها فما لى أمنع إرث أبى ؟... أأنزل الله فى الكتاب إلا فاطمة بنت محمد فتدلنى عليه فأقتنع به ؟...

فقال : يا بنت رسول الله أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لى بجوابك ولا أدفعك عن صوابك . ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت وأنبأنى بما أخذت وتركت .

قالت : فإن يكن ذلك كذلك فصبرا لمر الحق والحمد لله إله الحق» (بلاغات النساء) وفى شرح ابن أبى الحديد «إن فاطمة لما كلمت أبا بكر بكى ثم قال : يا بنت رسول الله والله ما ورَّث أبوك ديناراً ولا درهماً وإنه قال : «إن الأنبياء لا يورثون» .

فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله ﷺ .

قال : فمن يشهد بذلك ؟...

فجاء على بن أبى طالب فشهد ، وجاءت أم أيمن فشهدت أَيضا . فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله ﷺ كان يقسمها .

فقال أبو بكر : صدقت يا بنة رسول الله ﷺ وصدق على وصدقت أم أيمن وصدق عمر . وصدق عبد الرحمن بن عوف وذلك أن مالك لأبيك كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ، ويحمل منه فى سبيل الله فما تصنعين بها؟...

قالت : أصنع بها كما كان يصنع بها أَبى .

قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيه أبوك .

قالت : الله لتفعلن .

قال : الله لأفعلن .

قالت : اللهم اشهد . وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى . وكان عمر كذلك ثم كان على كذلك (نهج البلاغة شرح بن أبى الحديد) . ولكن الكثير من الرواة ينكرون رواية ابن أبى الحديد .. ويقولون إن فاطمة خرجت مغضبة ومما يؤيد ذلك . هذه الرواية التى بين أيدينا وخلاصتها أن عمر قال لأبى بكر انطلق بنا إلى فاطمة . فإنا قد أغضبناها . فانطلقا جميعا فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها . فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام.

فتكلم أبو بكر فقال : «ياحبيبة رسول الله . والله إن قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى . وانك لأحب إلى من عائشة ابنتى . ولوددت يوم مات أبوك أنى مت . ولا أبقى بعده، أفترانى أعرفك . وأعرف فضلك وشرفك . وأمنعك حقك . وميراثك من رسول الله إلا أنى سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول : لا نورث ما تركناه فهو صدقة».

فقالت : أريتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول االله . تعرفانه وتفعلان به .

قالا : نعم .

قالت : ناشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخط فاطمة من سخطى فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني» (وفى صحيح مسلم بشرح النووى . فاطمة بضعة منى يؤذينى ما أذاها جـ١٦ صـ٣) .

قالا نعم : سمعناه من رسول الله ﷺ .

قالت : فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى . وما أرضيتمانى . ولإن لقيت النبى لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر : أنا عائذ بالله تعالى من سخطه . وسخطك يافاطمة. ثم انتحب أبو بكر يبكى حتى كادت نفسه تزهق وهى تقول : « والله لأدعون الله عليك فى كل صلاة أصليها » ثم خرج أبو بكر باكيا فاجتمع عليه الناس . فقال لهم :

يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسروراً بأهله . وتركتمونى . وما أنا فيه . لا حاجة لى فى بيعتكم . أقيلونى بيعتى .

قالوا : ياخليفة رسول الله . بعدما سمعت ورأيت من فاطمة» (كتاب أعلام النساء صـ١٢٣-١٢٤) .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ وماذا كان موقف عمر وأبى بكر منها؟...

لقد مرضت فاطمة واشتد عليها المرض . وبقيت فى بيتها فترة لا ترى . ولكن أخبار مرضها . وصلت إلى أسماع خليفة رسول الله ﷺ

فأسرع يستأذن عليها . فقال لها الإمام على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . هذا أبو بكر على الباب . فإن شئت أن تأذنى له . قالت : «وذلك أحب اليك» ؟

قال نعم .

فدخل عليها واعتذر إليها وكلمها فرضيت عنه (أعلام النساء صـ١٣٠ وطبقات بن سعد جـ٨ صـ٢٧) .

ما نزل فيها من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

أقوال العلماء فى نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير وكتاب السير التاريخ نزلت هذه الآية فى فاطمة بنت محمد ﷺ . وزوجها وأولادها .

قال ذلك الإمام الواحدى فى كتابه أسباب النزول صـ٢٣٩ .

وذكره الإمام القرطبى فى تفسيره جـ١٤ صـ ١٨٣ .

وذكره صاحب الدر المنثور فى تفسيره جـ٥ صـ١٩٨ .

وقاله ابن كثير فى تفسيره جـ٥ صـ٤٥٤-٤ .

وذكره الإمام مسلم فى صحيحه جـ١٥ صـ١٩٥ .

أسباب نزول الآيات

روى الإمام أُحمد بسنده عن أَنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة - رضى الله عنها - ستة أشهر إذا خرج الى صلاة الفجر يقول :

«الصلاة ياأهل البيت ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» .

وروى الإمام أحمد بسنده عن شداد بن عمار قال :

دخلت على واثلة بن الأسقع رضي الله عنه وعنده قوم فذكروا عليا رضي الله عنه فتحدثوا عنه بما لا يسر وتحدث معهم فلما قاموا قالوا لى : تحدثتم عن على ؟

قلت : نعم . قال ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟

قلت بلى . قال أتيت فاطمة رضى الله عنها أسألها عن على رضى الله عنه ، فقالت : توجه إلى رسول الله ﷺ . فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه على وحسن وحسين رضى الله عنهم .أخذ كل واحد منهما بيديه ، حتى دخل فادنى عليا وفاطمة رضى الله عنهما . وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسنا وحسينا رضى الله عنهما كل واحد منهم على فخذه . ثم لفَّ عليهم ثوبه . أو قال كساءه . ثم تلا ﷺ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت ـ جاءت فاطمة رضى الله عنها الى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة ، تحملها على طبق. فوضعتها بين يديه ﷺ فقال «أين ابن عمك وابناك...؟».

فقالت رضى الله عنها : فى البيت .

فقال ﷺ : ادعيهم .

فجاءت إلى على رضي الله عنه فقالت : أجب رسول الله ﷺ أنت وابناك . قالت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ فلما رآهم مقبلين معاً ـ مدَّ رسول الله ﷺ يده الى كساء كان على المائدة . فمده وبسطه وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال : «**اللهم هؤلاء أهل بيتى . فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا**» (انظر سنن الترمذى وتفسير بن كثير . فى تفسيره الآية ٣٣ من سورة الأحزاب) وقال الإمام أحمد بسنده . إن أم سلمة ـ رضى الله عنها – حدثته قالت :

بينما رسول الله ﷺ فى بيتى يوما إذ قالت الخادم ـ إن فاطمة وعليا ـ رضى الله عنهما ـ بالسدة .

قالت : فقال لى رسول الله ﷺ قومى فتنحى عن أهل بيتى.

قالت : فقمت فتنحيت فى البيت قريبا . فدخل علىٌّ وفاطمة ومعهما الحسن والحسين – رضى الله عنهما ـ وهما صبيان صغيران .

فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما . واعتنق علياً رضى الله عنه بإحدى يديه . وفاطمة رضى الله عنها باليد الأخرى . وقبل فاطمة وقبل عليا . وأغدق عليهم خميصة سوداء .

وقال : اللهم إليك لا إلى النار . أنا وأهل بيتى .

قالت : فقلت وأنا يارسول الله ...؟

قال ﷺ : وأنت .

وقال ابن جرير بسنده عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت: إن هذه الآية نزلت فى بيتى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قالت وأنا جالسة على باب البيت . فقلت: يارسول الله ألست من أهل البيت ؟

فقال ﷺ : إنك الى الخير . أنت من أزواج النبى ﷺ قالت: وفى البيت رسول الله - وعلى وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم .

وفاة فاطمة

رضى الله عنها

اشتد المرض على الزهراء رضى الله عنها وشكت إلى أسماء بنت عميس نحول جسمها .

وقالت : أتستطيعين أن توارينى بشىء ...؟

قالت : إنى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير . فأمرتهم بذلك وعمل لها نعش قبل وفاتها . فنظرت إليه وقالت : «سترتمونى ستركم الله» .

وقالت قبيل وفاتها :

يا أمة اسكبى لى غسلاً فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ثم قالت: «إيتينى بثيابى الجدد ، فأتتها بها فلبستها ثم قالت: «يا أمة إنى مقبوضة الساعة وقد اغتلست فلا يكشفن لى أحد كفنا» (طبقات ابن سعد جـ٨ صـ٢٧) .

ثم توفيت رحمها الله وكان ذلك ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة ١١ هـ .

وهى ابنة تسعة وعشرين سنة (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ٤ صـ١٨٩٩) .

كيف نحافظ على دعائم الأُسرة المسلمة وعلى سعادتها فلا تتبدد..؟ وعلى أمنها فلا يتبخر ..؟

الحقيقة أن السعادة لن توجد بالكامل الا إذا تلقت الفتاة فى بيت أَبيها حسن معاملة زوجها . وشاهدت بعينها أسس الاحترام المتبادل بين أَبيها وأُمها .. هذا أَولا .

وثانيا :- أن يتلقى الزوج المبادئ الأولية لحسن معاملة الزوج لزوجته على يد والدها عندما يشاهده يحسن معاملة زوجته، يعودها إن مرضت أو ضجرت ويخفف عنها إن تعبت أو تألمت ويشاركها فى أعمال بيتها ورعاية أبنائها إن ثقلت عليها الأعباء أو كثرت عليها المطالب .

ثالثا :- أن يلتزم كل من الزوجين بتعاليم الإسلام تجاه الآخر وأن يقتدى الرجل بأعمال الرسول ﷺ فى بيته وأن تتبع الزوجة منهج أُمهات المؤمنين فى معاملة الرسول ﷺ .

ومن الأشياء التى لا تبلى ولا يمكن أن تنسى على مر الأَيام تلك الوصية الغالية التى قدمتها امرأة عوف بن محلم الشيبانى الى ابنتها عندما زفت إلى ملك كندة .

قالت الأُم : أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت . وعشك الذى فيه درجت الى وكر لم تعرفيه . وقرين لم تألفيه.

فكونى له أَمة يكن لك عبداً .

واحفظى له عشر خصال يكن لك زخراً .

أما الأولى والثانية : فالصحبة له بالقناعة . والمعاشرة له بحسن السمع والطاعة وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينيه . والتفقد لموضع أنفه .

فلا تقع عينه منك على قبيح . ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

والكحل أحسن الحسن . والماء أطيب الطيب المفقود وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت طعامه . والهدوء عند منامه فإن حرارة الجوع ملهبة . وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالعناية ببيته وماله . والرعاية لنفسه وحشمه وعياله وملاك الأمر فى المال حسن التدبير وأما التاسعة والعاشرة فلا تغشى له سراً ولا تعصى له أمراً فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره . وان عصيت أمره أوغرت صدره .

ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان حزينا . والاكتئاب عنده إن كان فرحًا فإن الخصلة الأُولى من التقصير والثانية من التكدير وكونى أشد ما تكونين له إعظامًا . يكن أشد ما يكون لك إكراما . وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما يكون لك مرافقة . واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك . وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت والله يخير لك .

إن هذه الوصية في الحقيقة تعتبر بحق دستورا للأُسرة لو صارت عليها كل فتاة .

إنها لم تترك صغيرة ولا كبيرة فى الحياة الزوجية إلا وأشارت إليه لقد أمرتها بطاعة زوجها والاستماع له . وقد حث الرسول ﷺ على هذه الطاعة بقوله :

ثلاثة لا تمسهم النار :

المرأة المطيعة لزوجها .

والولد البار بوالديه .

والعبد القاضى حق الله وحق مولاه .

وقال عليه الصلاة والسلام لأم المؤمنين «أم سلمة» «إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها ، وحركت المغزل ، كانت كأنها تسبح لله سبحانه وتعالى» .

وأمرتها أن تتزين لزوجها .. وأن تتجمل له ، وبينت لها أساليب الجمال ووسائله قالت :

«الكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب» .

والرسول ﷺ يقول : «جهاد المرأة حسن التبعل» أى طاعة البعل والتزين له ، وقيل له ﷺ : أى النساء أفضل .. ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : «التى تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر».

وأمرتها بالقناعة ، والقناعة فى الأسرة من دعائم السعادة ومرهم يزيل الجروح التى تتعرض لها أيام أزماتها المالية والاقتصادية.

ويقال : إن رجلاً صالحًا هم بالسفر فكره جيرانه سفره . فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة ... ؟

فقالت : زوجى - منذ عرفته - عرفته أكالاً ، وما عرفته رزاقاً ، ولى رب رزاق ، يذهب الأكال ويبقي الرزاق .

وأمرتها بالمحافظة على ماله والحرص عليه .

والرسول ﷺ يقول : **«لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذى يخاف فساده ، فإن أطعمت - عن رضاه - كان لها مثل أجره - وأن أطعمت بغير إذنه - كان له الأجر وعليها الوزر»** (رواه البيهقى من حديث ابن عمر) .

وقالت امرأة يارسول الله :

إنا كَلٌّ على آبائنا وأبنائِنا وأزواجنا فما يحل لنا من أموالهم...؟

قال «الرطب تأكلنه وتُهدينه» (رواه أبو داود) .

ولقد كانت السيدة فاطمة الزهراء مثال الزوجة المطيعة الصابرة عملت في بيتها حتي كلت يداها وكان زوجها يلاحظها وهي تقوم بأشق الأعمال وأرهق الأمور ، ولم يستطع أن يحضر لها خادمًا تشاركها فى أعباء البيت .

ولم يقل أحدٌ أنها شكت أو تألمت ..

ولم يحدثنا التاريخ أنها تذمرت ، أو حدثت أباها بما تعانيه في بيت زوجها ..

حقا إنها ذهبت إلى أبيها تطلب منه أن يعطيها احدى السبايا ولكن ذلك كان بإيحاء من زوجها على وحتى بعد أن ذهبت إلى رسول الله ﷺ لم تستطع أن تلقى أمامه بشكايتها - فعادت من حيث أتت .

وكانت أما فاضلة ، ربت فأحسنت التربية ، وقامت النهار وسهرت

الليل حتى قدمت للإنسانية خيرة شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضوان الله عليهما ، فرضى الله عن الزهراء ابنة رسول الله ﷺ ورضى الله عنها زوجة مطيعة صابرة ورضى الله عنها أما قامت على تربية أولادها وحسن تنشئتهم وما أجدر المؤمنات المسلمات فى كل عصر ومصر أن يسرن سيرتها ويسلكن مسالكها فى حسن التبعل لزوجها وفى المحافظة على أبنائها وفق الله الجميع إلى ما فيه خير الأمة الإسلامية - وهدى نساءها إلى الطريق السليم طريق القرآن - ونهج الرسول ﷺ .

حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها

أم المؤمنين العابدة القوامة : زوجة الرسول ﷺ فى الجنة كما أخبر بذلك جبريل . وابنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - الذى تولى الخلافة بعد أبى بكر الصديق - فكان يبكى حتى تخضل لحيته . ويقول لمن يكفه عن البكاء - أخشى لو عثرت بغلة فى طريق العراق - لحاسب الله عليها عمر لأنه لم يسو لها الطريق .

وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب أخت الصحابى الجليل عثمان بن مظعون الذي حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية . وقال : «لا أشرب شرابا يذهب عقلى . ويضحك بي من هو أدنى منى . ويحملنى على أن أنكح كريمتى» (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ ٢ ص ١٠٥٣) .

وأخت المتبتل العابد عبد الله بن عمر الذى قال عنه رسول الله ﷺ لزوجه حفصة بنت عمر : «إن أخاك عبد الله رجل صالح لو كان يقوم من الليل» .

يقال : فما ترك ابن عمر بعدها قيام الليل : (أخرجه البخارى جـ ٦٠٥/٣ بلفظ «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل . فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا . ومسلم ص ٢٤٧٩) .

فهى إذن من هذه الأُسرة العابدة القانتة التى كانت ترى فى الشرك انتقاصاً يزرى بالرجل . وترك النفس لشهواتها . ورغباتها . يحط من كرامة الإنسان الشريف . ولدت رضى الله عنها - وقريش تبنى الكعبة - قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين .

ودرجت على بطحاء مكة . حيث الجبال المرتفعة ، والطبيعة الصامتة ، والحياة الرتيبة المملة . التى لا تغرى بعمل - ولا تدفع إلى نشاط - هذا إذا استثنينا أيام الحجيج التى كان يأتى فيها الوافدون من أنحاء الجزيرة العربية إلى البيت العتيق يطوفون . ويبيعون ويشترون . ويستمعون إلى أشعار الشعراء ومفاخر القبيلة فى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز - ويفاضلون بينها ويزرون ببعضها حتى يعلق الجيد المحلق منها على أستار الكعبة .

وعندما وصلت إلى مرحلة الشباب . وأخذت بوادر النضج والأنوثة تظهر عليها . سمعت والدها يعلن إسلامه . وينضم إلى أتباع محمد ﷺ . وقبل أن يعلن عمر رضي الله عنه عن هجرته إلى المدينة ويلقى على مسامع القرشيين كلماته الخالدة التى حفظتها آذان التاريخ «من أراد أن يثكل زوجه أو ييتم ولده فليتبعنى وراء هذا الوادى» .

تقدم لخطبة حفصة رضى الله عنها - خنيس بن حذافة بن قيس - وكان خنيس هذا ليس معروفا فى أندية مكة ومجالسها .

ولم يكن من سراتها ولا تجارها الممولين .

وأيضا لم يكن من فرسانها الذين تعرفهم ظهور الخيل ورحى المعارك ولكنه كان يملك عقلا ذكيا وذهناً ألمعياً . هدياه إلى الإسلام . وهذا هو الذى رشحه فى نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليزوجه حفصة .

وعندما اشتد أذى المشركين بالمؤمنين - هاجر إلى الحبشة وفر بدينه فى أرض الله - ثم عاد مرة أُخرى إلى مكة - وأخذ زوجته حفصة وهاجرا معا إلى المدينة موطن الإسلام - وقلعة الإيمان .

واشترك خنيس فى معركة بدر الكبرى - وشاهد انتصار المسلمين واندحار عصابة الكفر .

وفى غزوة أحد أصيب بجراحات عدة - أخذ يطيب منها - ولكن جاء أجله فمات بالمدينة رضوان الله عليه .

مات ابن حذافة وترملت المرأة العابدة - وعاشت فى بيت أبيها تجتر أحزانها وتعيش آلامها لا يخلو لها مطعم ولا تطيب لها حياة وأخذت زهرة شبابها تذبل ونضرتها تضوى .

وكان عمر رضي الله عنه يلحظ بعينه اللماحة وقلبه الكبير ما تعانيه ابنته من قلق وضيق . ومن حزن وألم - بعد أن فقدت رجلها وعاشت تجتر أيامها السابقة أيام كانت ملكة فى بيتها - تناغى زوجها إذا حضر وتنتظر إيابه إذا ذهب .

فخرج عمر يبحث عن السعادة لابنته - ولكن كيف ؟

إنه يقدر ما تعانيه هذه الإنسانة المترملة ، بعد أن تعودت على الحياة الزوجية ؟

إن ذهب العالم وفضته لا يمكن أن يعوضا المرأة شيئا عندما تفقد زوجها ، ولكن يمكن لرجل آخر أن يعيد لها السعادة ، ويوجد لها الأمل ويجمل أيامها ولياليها . إذن لابد من زواج حفصة ... إن رجلا آخر يمكن أن يعيد لها السعادة ويريح قلب عمر .

وعندما وصل عمر رضي الله عنه إلى هذا استراح قلبه واطمأن خاطره - إن

زواج حفصة ليس بمشكلة . سيعرضها بنفسه على أحد المسلمين نعم ولم لا .... ؟

أليس فى هذا حل لمشكلته ومشكلتها أيضا ؟

إن قلبه يكاد يتقطع كلما دخل بيته ووجد حفصة - على هذه الصورة الكئيبة الحزينة التى لا تفارقها .

وبينما ينقل عمر خطواته فى إحدى الطرق الممتدة داخل المدينة . وقعت عينه على عثمان بن عفان رضي الله عنه - فاقترب منه - وبادله التحية وجلسا يتكلمان وبينما هما فى ذلك ، لمعت الفكرة السابقة فى ذهن عمر . فقال بكل ما يحمله قلب الإنسان من حب لابنته فى إسعادها :

يا عثمان :

فاجاب : نعم يا عمر .

فقال : أتتزوج حفصة يا عثمان ؟؟

فأخذت المفاجأة عثمان .. لأنه ما فكر فى هذا الأمر . ولم يكن لديه جواب .

فقال : يا أخى ياعمر . مالى فى النساء حاجة .

ولكن عمر لم ييأس . ولم ير أن فى ذلك عيبا ينقص من قدره . أو يزرى بمروءته إن ابنته تعانى من وحدتها الشىء الكثير . فهل يلام إذا كان يبحث لها عن السعادة ويعيد لها النضارة ... ؟ والتقى بأبى بكر الصديق رضي الله عنه وما قاله لعثمان قاله لأبى بكر أتتزوج حفصة يا أبا بكر... ؟ ولكن أبا بكر لأمر فى نفسه سكت ولم يجد جوابا .

فغضب عمر .. وكيف لا يغضب . وهؤلاء إخوته فى الإسلام لا يتقدمون لمساعدته فى مشكلته . ولا يخففون عنه بعض ما يعانيه ... ؟

فاتجه إلى الرسول ﷺ ليضع أمامه جملة حاله ، ويشكو له هؤلاء الذين تخلوا عنه فى مشكلته . وعندما مثل أمامه قال :

«يارسول الله ألا تعجب من عثمان : إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عنى» .

فقال الرسول ﷺ ياعمر :

«قد زوج الله عثمان خيرا من ابنتك . وزوج ابنتك خيرا من عثمان».

وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة أيتزوج رسول الله ﷺ من ابنته...؟

إن هذاالشرف لم تتطاول إليه أمانيه .

أتتزوج أم كلثوم بنت الرسول ﷺ من عثمان - نعم فهذه هي خير من حفصة وصدق رسول الله .

وتتزوج حفصة رسول الله ﷺ فهذا خير من عثمان ونهض إلى الرسول يصافحه متهللاً وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض وخرج مسرعا يزف إلى ابنته وإلى أبى بكر . وعثمان . وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة وكان أبوبكر أول من لقيه . فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته فمد يده مهنئا معتذرا بقوله :

«لا تجد على يا عمر ، فإن رسول الله ذكر حفصة فلا أفشى سر رسول الله ﷺ ولو تركها لتزوجتها» .

وعاشت حفصة فى بيت الرسول ﷺ مع «سودة» و «عائشة» رضى الله عنهما وكان بينها وبين عائشة بعض النفور . ولكن ما لبث أن كثرت أُمهات المؤمنين فى بيت الرسول ﷺ .

ورأت عائشة رضى الله عنها أن تستعين بحفصة بما تفعله فى الزوجات الأخريات وانحازت حفصة لجانب عائشة رضى الله عنها .

وكان عمر يرقب موقف ابنته فى قلق وآلمه أن تساير صاحبتها وليس لها مثل حظها من حب الرسول ومكانته .

فأقبل على ابنته يحذرها مما هى فيه من مسايرة عائشة رضى الله عنها وتدللها على رسول الله ﷺ وقال لها : «أين أنت من عائشة ؟ وأين أبوك من أبيها ...؟» .

فهل استجابت حفصة لأوامر أبيها .. ؟ وهل أَذعنت لما قال... ؟

يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كل يوم إلا وهو يطوف على نسائه فيدنو من أهله فيضع يده ويقبل كل امرأة من نسائه حتى يأتى على آخرهن.. فإن كان يومها قعد عندها وإلا قام . فكان إذا دخل بيت أم سلمة يحتبس عندها .

فقلت أنا وحفصة : ما نرى رسول الله يمكث عندها إلا أنه يخلو معها ، قالت : واشتد ذلك علينا ، حتى بعثنا من يطلع لنا ما يحبسه عندها فإذا هو إذا صار إليها أخرجت له عكة من عسل فتحت له فمها فيلعق منه ! قاً . وكان العسل يعجبه.

فقالت : ما من شيء نكرَّهه إليه حتى لا يلبث فى بيت أم سلمة ...؟

فقالتا : ليس شيء يكرهه إليه من أن يقال له نجد منك ريح شيء . فإذا جاءك فدنا منك فقولى : إنى أجد منك ريح شيء . فإنه يقول من عسل أصبته عند أم سلمة .

فقولى له : أرى نحله أكل عرفطاً ، ثم خرج من عندها فدخل على حفصة فدنا منها فقالت مثل الذي قالت عائشة فلما قالتاه جميعاً اشتد عليه على أُم سلمة بعد ذلك فأخرجت له العسل فقال : أخرجيه عنى لا حاجة لى فيه . فقالت : فكنت والله أرى أن قد أتينا امراً عظيما . منعنا رسول الله شيئا كان يشتهيه .

وهكذا شاركت حفصة فى أساليب الغيرة . وما يترتب عليها فى بيت النبوة وساهمت مع عائشة فى طريقة إبعاد الرسول ﷺ عن بعض زوجاتة إن المرأة دائما تحب أن يكون زوجها لها وحدها . فإذا شاركتها امرأة أخرى فيه . أكلت الغيرة قلبها . وانتهزت أول فرصة للانتقاص من غريمتها أو إيقاع الضرر بها .

لقد كانت السيدة عائشة تفعل ذلك مع الرسول ﷺ بغية أن يخلو لها وحدها . ولكن ذلك كان من المحال . لأن الرسول ﷺ كان يتزوج نساءه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى فلماذا تورطت حفصة مع عائشة ... ؟

ولماذا شاركتها فى هذا الطريق الوعر ... ؟ بعد أن حذرها والدها من ذلك وطلب منها أن تلتزم حدها . ولا تتجاوز ما ليس لها .. ؟

إن حفصة لم تفعل ذلك فحسب . ولكنها كانت تراجع رسول الله ﷺ وترد عليه .

فقد روى جابر بن عبد الله . عن أم مبشر أنها سمعت النبى ﷺ يقول عند حفصة : «لا يدخل إن شاء الله النار أحد من أَصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها» .

قالت : بلى يارسول الله . فانتهرها .

فقالت حفصة : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] .

فقال النبى ﷺ : قد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم : ٧١ ، ٧٢] .

وانتشرت هذه الواقعة بين نساء المدينة . وعلمت بذلك نساء الصحابة رضوان الله عليهم .

وفى يوم تكلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع زوجته فما إن كان منها إلا أن اعترضت عليه . فأكبر ذلك عمر من زوجته فقالت له ليس وحدها التى تراجع زوجها ولكن ابنته أيضا حفصة تراجع الرسول ﷺ فما كاد يسمع ذلك حتى انطلق إليها من فوره يسألها إن كان ما سمعه حقًا..؟

فلما أجابت أن نعم .

صاح فيها وزجرها وقال لها : تعلمين أنى أُحذرك عقوبة الله وغضب رسوله يابنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ لها والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك. ولولا أنا لطلقك» (تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٥٤) .

ثم يمضى عمر عن حفصة وتستجيب لما أمرها له . وتطيع زوجها وتؤدي ما عليها تجاه زوجها وربها .

إنها المؤمنة الصابرة . الراضية القانعة . وقد حقق الله لها كل ما تريد بزواجها من الرسول ﷺ فعليها أن تسمع وتطيع حتى يتم الله عليها نعمته . ويبارك لها فى حياتها وأيامها .

ولكن حدث ما لم تستطع حفصة أن تصبر عليه من ذلك أن الرسول ﷺ خلا (بمارية) فى بيت حفصة . فعادت إلى أحزانها وتمثل لها أبوها يقول : (والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاى لطلقك) .

فلما انصرفت «مارية» دخلت حفصة حجرتها . وقالت للرسول : لقد رأيت من كان عندك . والله لقد سببتى وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك» ثم استعبرت باكية .

ووقعت كلمتها من الرسول موقعا أليما . فأقبل عليها يترضاها . وهان عليه أن يُسر إليها أن مارية حرام عليه فلتتناس حفصة ما كان ولتعتبره كأن لم يكن ورضيت حفصة .

وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه ، حتى إذا مضى عنها الغداة ولمحت عائشة قريبة منها لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوى من سر خطير . فنبأت به صاحبتها التى انتهزت الفرصة لتنال من غريمتها «الأمة القبطية» (تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٥٧) .

ولم تقدر حفصة وهى تذيع السر لعائشة ، انها بسبيل إشعال نار

فى بيت الرسول فإن عائشة لم تهدأ حتى جمعت نساء النبى فى مظاهرة ثائرة بمارية مصرة على ألا يبقى لها فى مدينة الرسول مكان.

واندفعت عائشة تستثير ضرائرها فمازالت بهنَّ حتى انضممن إليها وقد تناسين غيرتهن منها وكانت كلمتهن : «صبرن على إيثار الرسول لابنة أبى بكر . وما بقى إلا تلك الأمة القبطية فأى هوان» .

ولجت عائشة فى غيرتها والنساء يظاهرنها على زوجهن الرسول غيظا من مارية التى حملت دونهن بضعة من رسول الله . وترفق الرسول بهن ما استطاع مقدرا بواعث هذاالتظاهر . لكنهن تمادين فى اللجاج إلى حد الشطط . مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن .

وما كان ﷺ فارغ البال إذ ذاك لهذا العبث النسوى المسرف، ولا كان يستطيع أن يرضى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل فاعتزلهن فى صراحة لم يألفنها ، وأعلن فى حزم وتصميم أنه منقطع عنهن» (موسوعة آل بيت النبى ص ٢٧١).

وأُشيع أن الرسول ﷺ طلق حفصة ، أو طلق زوجاته جميعا.

وعندما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها فنزل جبريل من الغد على النبى ﷺ فقال: «أرجع حفصة فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك فى الجنة» (حديث صحيح أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم والطبرانى فى الأوسط) ودخل عمر رضي الله عنه وقال : يارسول الله ما يشق عليك من أمر النساء ... ؟

إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل . وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

فقال له الرسول ﷺ إنما هجرتهن شهرًا .

وانطلق عمر إلى المسجد فنادى بأعلى صوته : «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه» .

ونزل قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم : ١، ٢] .

وعاشت حفصة فى بيت الرسول ﷺ ولم تفكر مرة أُخرى أن تفعل ما يغضب الله ورسوله .

فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه . كانت حفصة من بين زوجاته عليه السلام هى التى اختيرت لتحتفظ بالنسخة الخطية للقرآن الكريم وبقى المصحف عندها حتى أخذه أمير المؤمنين عثمان بن عفان فى خلافته فنسخ منه النسخ الأربع التى وزعت على الأمصار .

ودخل عمر رضي الله عنه على حفصة فى بيتها بعد وفاة الرسول ﷺ فقدمت إليه مرقا وخبزا وصبت فى المرق زيتا .

فقال : أدمان فى إناء واحد .. ؟ لا أذوقه حتى ألقى الله عز وجل . فقالت حفصة : يا أبت إنه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير فلو طعمت طعاما ألين من طعامك ولبست لباسا ألين

من لباسك فقال عمر : يا حفصة سأخاصمك إلي نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من الشدة فى العيش .. ؟ فمازال يذكرها حتى أبكاها ثم قال : إنى قد قلت لك إنى والله لئن استطعت لأشاركنهما فى عيشهما الشديد لعلى ألقى معهما عيشهما الرخى» (طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٧٧) .

يعنى رسول الله وأبا بكر .

ومات أبوها وعاشت بعده . عابدة قانتة . حافظة لدينها متبتلة بكتاب ربها . حتى قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ودخل المسلمون فى فتنة عمياء . وانقسموا فرقا وأحزابا . وكل فريق يعمل بما يرى أن فى ذلك صالح المسلمين . واعتزل مجموعة من الصحابة عن هذه الفتنة . وأغلقوا عليهم أبوابهم. مثل سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ... وأرادت السيدة عائشة الخروج للتصدى أمام على بن أبى طالب رضي الله عنه . وفكرت أن تأخذ معها رفيقة حياتها وشريكتها فى بيت النبوة حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها .

فهل استجابت حفصة لما طلبته عائشة رضى الله عنها ...؟

وهل فكرت فى الخروج معها لقتال على بن أبى طالب رضي الله عنه ... ؟

ترى بعض الروايات التاريخية أن حفصة أوشكت أن تستجيب لطلب عائشة وتخرج معها .

لولا أن أخاها عبد الله بن عمر رضي الله عنه منعها من ذلك . (تاريخ الطبرى حـ ٢ ص ٤٧٥) .

فأذعنت له واستمعت لأوامره وعاشت فى بيتها تنتظر قضاء ربها وانتهاء أجلها بالعبادة لله والتضرع إليه .

حتى وافاها أجلها فى سنة خمس وأربعين للهجرة فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهما ومتعهما بما فى جناته من نعيم .

ما نزل فيها من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ صدق الله العظيم [التحريم : ٣ - ٥] .

أقوال العلماء فى نزول الآيات

قال بعض رجال التفسير نزلت هذه الآية فى أم المؤمنين حفصة بنت عمر .

قال ذلك الإمام القرطبى حـ ١٢ ص ١٨٦ .

وقاله صاحب الدر المنثور جـ ٦ ص ٢٣٩ .
وقاله ابن كثير فى تفسيره جـ ٦ ص ٥٢٠ .
وذكره الإمام البخارى جـ ٦ ص ٤٠ .
وذكره الطبرى فى تفسيره جـ ٢٨ ص ١٥٩ .

أسباب نزول الآيات

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لم أزل حريصا أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ ، اللتين قال الله لهما : ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم : ٤] حتى حج فحججت معه وعدل فعدلت معه بالإداوة (وهى الإناء الذى يكون فيه الماء) ثم جاء فسكبتُ على يده من الإداوة فتوضأ . ثم قلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج رسول الله ﷺ اللتان قال الله لهما : ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ .

فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس : هما عائشة وحفصة . ثم قال : إنى كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أُمية بن زيد وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ فينزل يومًا وأنزل يومًا . فإذا نزلت جئته بما يحدث من خبر ذلك اليوم من الوحى وغيره . وإذا نزل فعل مثل ذلك . وكنا معشر قريش نغلب النساء . فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذون من أدب الأنصار فصحت على امرأتى فراجعتنى فأنكرت أن تراجعنى . فقالت : ولم

تنكر أن أراجعك .. ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل .. ؟؟

فأفزعنى ذلك فقلت : قد خاب من ذلك منهن ، ثم جمعت علىَّ ثيابى فنزلت فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت : «ياحفصة أتغاضب إحداكن رسول الله يومًا إلى الليل ...؟» .

قالت : نعم .

قلت : خبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله فيهلكك ... ؟

لا تستكثرى على رسول الله ولا تراجعيه فى شىء ولا تهجريه وسلينى ما بدا لك ، ولا يغرك أن كانت جارتك هى أوضأ منك وأحب إلى رسول الله - يريد عائشة - قال عمر : وكنا قد تحدثنا أن غسان تجهز الخيل لتغزونا . قال فنزل صاحبى الأنصار يوم نوبته فرجع إلىَّ عشاء فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أنائم هو ... ؟

ففزعت فخرجت إليه فقال : «قد حدث اليوم أمر عظيم» .

قال : قلت ما هو ... ؟ أجاءت غسان ...؟

قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله نساءه.

فقلت : خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون .

فجمعت على ثيابى فصليت مع رسول الله الفجر فدخل رسول الله مشربة له فاعتزل فيها .

قال ودخلت على حفصة فإذا هى تبكى فقلت : «ما يبكيك... ؟ ألم يكن قد حدثتك هذا ... ؟ طلقكن رسول الله... ؟

فقالت : لا أدرى ما أقول . هو ذا معتزل فى هذه المشربة .

قال : فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكى بعضهم . قال : «فجلست معهم ثم غلبنى ما أجد فجئت المشربة التى فيها رسول الله فقلت لغلام أسود : استأذن لعمر .

قال : فدخل الغلام فكلم رسول الله ﷺ ثم خرج إلىَّ فقال: «قد ذكرتك له فصمت .

قال : فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبنى ما أجد فجئت فقلت استأذن لعمر .

فدخل ثم رجع فقال : قد ذكرتك له فصمت .

قال : فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبنى ما أجد فقلت للغلام استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج إلىَّ فقال : قد ذكرتك له فصمت . فلما وليت منصرفًا إذا الغلام قال : قد أذن لك رسول الله .

فدخل على رسول الله . فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة أدم حشوها ليف . فسلمت على رسول الله ﷺ ثم قلت وأنا قائم : «يارسول الله أطلقت نساءك ... ؟

قال : فرفع بصره إلىَّ فقال : لا .

فقلت : الله أكبر . ثم قلت وأنا قائم استئناساً بأمر رسول الله : لو رأيتنى وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم فتغيظت علىَّ امرأتى فإذا هى تراجعنى . فأنكرت ذاك عليها فقالت : «أتنكر أن أُراجعك ؟ إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه ويهجرنه . وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، قد خابت حفصة وخسرت أفتأمن إحداهن أن يغضب الله لغضب رسول الله فإذا هى قد هلكت ...؟

فتبسم رسول الله . ثم قلت : يارسول الله لو رأيتنى ودخلت على حفصة فقلت لها : لا يغرنك أن كانت صاحبتك أوضأ منك وأحب إلى رسول الله منك ..» .

فتبسم رسول الله تبسمة أخرى .

قال : فجلست حين رأيته تبسم قال : فرفعت بصرى فى بيته فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر غير أهب ثلاثة . فقلت : «يارسول الله ادع الله أن يوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله» .

قال : فجلس رسول الله وكان متكئاً فقال : «أو فى شك أنت يا بن الخطاب ... ؟ عُجلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا» .

قال قلت : يارسول الله استغفر لى .

قال : فاعتزل رسول الله نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعا وعشرين ليلة ، وكان يقول رسول الله ﷺ «ما أنا بداخل عليهن شهرًا» من شدة موجدته عليهن ، حتى عاتبه الله .

فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها . قالت عائشة : يارسول الله أما كنت أقسمت ألا تدخل علينا شهرًا ... ؟ وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدها لك عدًا .

فقال رسول الله ﷺ الشهر تسع وعشرون ليلة - وكان ذلك الشهر تسعا وعشرين» .

وقال عروة بن الزبير : انطلقت حفصة إلى أبيها تحدث عنده وأرسل رسول الله ﷺ إلى مارية فظل معها ببيت حفصة وضاجعها . فرجعت حفصة من عند أبيها وأبصرتهما فغارت غيرة شديدة ثم إن رسول الله أهرج سريته فدخلت حفصة .

فقالت : «قد رأيت ما كان عندك وقد والله سُؤتنى» .

فقال النبى : فإنى والله لأرضينك . انى مسر إليك سرًا فأخفيه لى».

فقالت : ما هو ... ؟

قال أشهدك أن سريتى علىَّ حرام» : يريد بذلك رضا حفصة ، وكانت حفصة وعائشة قد تظاهرتا على نساء رسول الله .

قال : فانطلقت حفصة فحدثت عائشة فقالت لها : «أبشرى فإن

الله حرم على رسوله وليدته» فلما أخبرت رسول الله انزل الله ... ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم: ١ - ٥] .

وصيتى إلى المرأة

المرأة جهاز روحى عجيب ، يلقى فى قلب الرجل أسرار القوة ومعانى الثقة بالنفس والمرأة إنسان كريم وأسمى ما فيها إنسانيتها الرفيعة . وقد قضت سنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة ، وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات . أُما وزوجة وربة بيت ...

فإن كانت أُما ففى طاعتها رضوان الله تعالى . وتحت أقدامها الجنة وإن كانت زوجة صالحة فهى أفضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله . وهى الحسنة التى يطلبها المؤمن من ربه صباح مساء ويتمناها فى دنياه وآخرته بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) ﴾ [البقرة: ٢٠١] .

وإن كلمة واحدة منها - لزوجها - وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران أو مكائد الرجال كفيلة أن تمده بطاقات عجيبة من الهمة والأمل والثقة بالنفس ، فإذا هو خلق جديد . وبناء غير الذى كان يوشك أن ينهار . إن المرأة فى منهج الإسلام هى الستر والوقاية . هى الحفظ والرعاية تلتقى بزوجها فتكاشفه بسرها . ويفضي بين يديها بجملة حاله ... تعرف ماضيه وحاضره ، وتتطلع إلى مشاريعه ومستقبله . وتساهم معه فى معركة الحياة الضارية التى يخوضها بغية توفير الحياة الهادئة التى يريدانها معاً . حتى يوفقهما الله سبحانه وتعالى فى تربية الأولاد ويقيما دعائم عشهما الصغير على الود والمحبة .

إن الله سبحانه وتعالى عبر عن الحياة الزوجية باللباس قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦] .

واللباس فى الحقيقة لا يستغنى عنه الإنسان فى هذه الرحلة رحلة الحياة : فهو الذى يحول بينه وبين وقدة الصيف ولفحة الشمس . وهو الذى يدثره ويبعث الدفء فى أوصاله فى ليالى الشتاء . وهو فوق ذلك يستر تشوهات الجسم وعيوبه بالنسبة لكل منهما فلا تمجهما العيون أو تنفِّر منهما الآخرين .

وهو بالنسبة للمرأة ستر وقاية أيضا يستر محاسنها ومفاتنها ويقى جسدها من عيون الرجال المتلصصة ومن فى قلوبهم مرض وإذا كان

هذا بالنسبة للباس .. فماذا بالنسبة للرجل والمرأة فى حياتهما الزوجية ..؟

إن كلا منهما ستر للآخر . ستر لأقواله وأفعاله . وحفظ لأسراره وما يخفيه .

فالمرأة ستر للرجل ووقاية ، عندما يوشك أن تغلبه الإرادة ، والرجل ستر للمرأة وصيانة عندما تغلبها العاطفة ويسيطر عليها ضعف الأنثى.

والله سبحانه وتعالى يقول بالنسبة للنساء في وصفهن والقيام بواجبهن تجاه زوجها وأمام ربها : قال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤].

حافظات لزوجها فى حياته الخاصة والعامة . وحافظات على ماله وأولاده ، وحافظات لأسراره وأقواله .

وحافظات لماء وجهه فلا تكلفه من المطالب المعيشية مالا يقدر عليه. لأن هذا يؤذيه فى شعوره . وقد يضطر أن يبحث عن وسائل للكسب الحرام حتى يرضي زوجته .

وقد كانت الزوجة من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله : اتق الله وإياك والكسب الحرام فإننا قد نصبر على الجوع والضر فى الدنيا . ولكننا لا نصبر على النار فى الآخرة .

ومن جملة ما يحفظ ما يكون بينهما من علاقة خاصة فلا تكون

حديثا فى المجالس أو سمرًا فى الندوات مع الأصدقاء والصديقات ففى الحديث عن رسول الله ﷺ «إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة . والمرأة تفضى إليه ثم ينشر سرها» أخرجه مسلم (١٤٣٧) وأبو داود صـ (٤٨٧٠) وأحمد حـ ٦٩/٣ من حديث أبى سعيد الخدرى .

والحديث الآخر رواه أبو هريرة من قوله :

صلى بنا رسول الله ﷺ ، فلما سلم أقبل علينا بوجهه فقال: مجالسكم هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره ، ثم يخرج فَيُحَدِّث فيقول فعلت بأهلى كذا ...؟ فسكتوا .

فأقبل على النساء فقال : هل منكن من تُحَدِّث .. ؟

فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها . وتطاولت ليراها رسول الله ﷺ ويسمع كلامها فقالت : أى والله إنهم يتحدثون، وانهن ليتحدثن.

فقال عليه السلام : «هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ... ؟ مثل شيطان وشيطانة لقى أحدهما صاحبه بالسكة فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه» (أخرجه أحمد فى مسنده حـ٥٤١/٢ ، وأبو داود (٢١٧٤) .

وبعد هذا الأدب النبوى الكريم لأُمته ، هل يجوز للمرأة التى عرفت القليل والكثير عن حياة زوجها أن تكشف سره ... ؟

وأن تتحدث للآخرين به ، وأن توضح لهم ما يريد أن يخفيه عنهم أو يكتمه عن دنياهم ... ؟

الحقيقة أن بعض النساء يفعلن ذلك . وينشرن على الآخرين ما يجب أن يختفى ، ونتيجة هذا الإفشاء . غالباً ما تكون وخيمة وقد يؤدى إلى الانفصال أو الطلاق .

وقد يكتم الرجل سرًا يخفيه عن كل ما حوله . وتأتى المرأة فيكشف هذا السر . فيكون نتيجة ذلك القتل أو السجن أو مشاكل لا تقف عند حد ، والدليل على ذلك سر الرسول ﷺ الذى ألقى به لأُم المؤمنين حفصة فأفشته . فكان ما كان ، من هجر زوجاته شهرًا على ما يقال .

والتفكير فى الانفصال عنهن جميعا ....

فالمرأة العاقلة هى التى تحافظ على أسرار زوجها ... ولا تعلنها للآخرين ولو كانوا أقرب المقربين إليها - حرصا على سلامة الأُسرة ، وسعادة البيت وتربية الأطفال .

فهل تراهن فاعلات ...؟

نرجو من الله ذلك ...

قصيدة مع الله

يارب

بك أستـجـيـر . ومن يجـيـر سـواكـا
فـأجـر ضـعـيـفـا يحـتـمـى بحـمـاكـا
إنى ضـعـيـف أسـتـعـين على قُـوى
ذنبى ومـعـصـيـتى ببـعـض قـواكـا
أَذنـبـتُ يـاربـى وآذتـنـى ذنـوبـى
مـالهـا من غـافـر إلا كـا
دنيـاى غـرتنى وعـفـوك غـرنى
مـا حـيلتى فى هذه أوذاكـا
لـو أن قـلبـى شك لـم يـك مـؤمـنـا
بكريم عـفـوكَ مـا غَـوى وعَـصـاكـا
يا مـدرك الأبصـار . والأَبصـارُ لا
تـدرى لـه ولـكـنـه إدراكـا
أتـراك عينٌ والعـيـون لهـا مَـدًى
مـا جـاوزتـه ، ولا مـدى لِمَـداكـا
إن لم تـكن عـينى تـراك فـإننى
فى كل شىءٍ أسـتـبين عـلاكـا

● ● ● ●

يامنبت الأزهار عـاطرةَ الشَّـذا
هذا الشـذا الفـوَّاحُ نفحُ شَـذاكـا

يامرسل الأطيار تصدح فى الرُبا
صدحاتُها إلهامُ موسيقاكا
يامجرى الأنهار : ما جريانُها
إلا انفعالةُ قطرةٍ لنداكا

●●●●

رباه ها أنذا خَلُصت من الهوى
واستقبل القلب الخلى هواكا
وتركت أُنسى بالحياةِ ولهوها
ولقيت كُلَّ الأُنس فى نجواكا
ونسيت حبى واعتزلت أَحبتى
ونسيت نفسى خوف أن أنساكا
ذقت الهوى مراً ولم أذق الهوى
يارب حلوا قبل أن أهواكا
أنا كنتُ ياربى أسيرَ غشاوةٍ
رانت على قلبى فَضَلَّ سناكا
واليومَ ياربى مسَحتُ غشاوتى
وبدأت بالقلب البصير أراكا
ياغافر الذنب العظيم وقابلا
للتوب : قلبُ تائب ناجاكا
أتردُه وتردُّ صادقَ توبتى
حاشاك ترفض تائبا حاشكا

يارب جـــئـــتك نادمـــا أبكى على

مـــا قـــدمـــتـــه يداى لا أتبـــاكى

أنا لست أخـــشى من لقـــاء جـــهنم

وعـــذابهـــا لكننى أخـــشـــاكـــا

أَخـــشى من العـــرض الرهيب عليك

ياربى وأخـــشى منك إذا ألقـــاكـــا

●●●●

يارب عـــدت إلى رحـــابك تائبـــا

مـــســتـــسلمـــا مـــســتـــمـــسكا بعـــراكـــا

مـــالى ومـــا لـلأغنيـــاء وأنت

يارب الغنىُّ ولا يُحـــدُّ غِناكـــا

مـــالى ومـــا لـلأقـــوياء وأنت

ياربى وربُّ الناس مـــا أقـــواكـــا

مـــالى وأبواب الملوك وأنت من

خلق الملوك وقـــسم الأمـــلاكـــا

إنى أويت لكل مـــأوى فى الحـــيـــاة

فـــمـــا رأيت أعـــز من مـــأواكـــا

وتلمَّست نفسى السبيلَ إلى النجاة

فلم تجـــد منجى ســوى منجـــاكـــا

وبحـــثت عن ســر الســعـــادة جـاهداً

فـــوجـــدت هذا الســـر فى تقـــواكـــا

فليـرض عنى الناس أو فليسـخطوا

أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

أَدعوك ياربى لتغفر حوبتى

وتُعينَنى وتمدَّنى بهداكا

فاقبل دعائى واستجب لرجاوتى

ما خاب يوما من دعا ورجاكا

● ● ● ●

يارب هذا العصر ألحد عندما

سخرت ياربى له دنياكا

علمته من علمك النووى ما

علمته فإذا به عاداكا

ما كاد يُطلق للعُلا صاروخه

حتى أشاح بوجهه وقلاكا

واغتر حتى ظن أن الكون فى

يمنى بنى الإنسان لا يمناكا

أو ما درى الإنسان أن جميع ما

وصلت إليه يداه من نعماكا ؟

أو ما درى الإنسان أنك لو أردت

لظلت الذرات فى مخباكا ؟

لو شئت ياربى هوى صاروخُه

أو لو أردتَ لما استطاع حَراكا

يا أيهــا الإنســان مــهــلا واتئــد

واشكر لـربك فــضلَ مــا أولاكــا

واســجــد لمولاك القــدير فــإنما

مــســتــحــدثأتِ العلم من مــولاكــا

الله مــيــزك دون ســائر خلقــه

وبنعـمـة العـقل البـصـير حـبـاكـا

أفــإن هداك بعلمــه لعــجــيــبــةٍ

تَـزْوَرُّ عنه وَيـنْـثنى عِـطـفــاكــا

إن الـنَّـواةَ ولـكـتــــرونـاتِ الـتـى

تجــــرى بَـرَاهـا الله حـين بـراكــا

مــا كـنـت تـقـــوى أن تـفــتـت ذرة

منهن لولا الله قـــد قـــواكــا

كل العــجــائب صنعــة العــقل الذى

هو صنعـــة الله الذى ســـواكــا

والعـــقل ليس بمدرك شــيــئــا إذا

مــا الله لم يكتب لـه الإدراكــا

لله فـي الآَفــــــاق آيـات لـعـلـم

أقلًهــا هو مــا إليــه هداكــا

ولـعـل مـــا فى الـنـفس مـن آيـاتـه

عــجبٌ عُــجَــاب لو ترى عــيناكــا

والكون مشحون بأسرار إذا

حاولت تفسيرا لها أَعياكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى

ياشافى الأمراض : من أرداكا ؟

قل للمريض نجا وعُوفى بعدما

عجزت فنون الطب : من عافاكا ؟

قل للصحيح يموت لا من علة

من بالمنايا يا صحيحُ دهاكا ؟

قل للبصير وكان يَحْذر حفرة

فهوى بها من ذا الذى أهواكا

بل سائل الأَعمى خَطا بين الزحام

بلا اصطدام : من يقود خُطاكا ؟

قل للجنين يعيش معزولا بلا

راع ومرعى : ما الذي يرعاكا ؟

قل للوليد بكى وأجهش بالبكاء

لدى الولادة : ما الذى أبكاكا ؟

● ● ● ●

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه

فأسأله : من ذا بالسموم حشاكا ؟

واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو

تحيا وهذا السم يملأ فاكا ؟

واســأل بطون النحل كــيف تقــاطرت

شــهــداً وقل للشّــهــد من حَــلاَّكــا ؟

بل ســـائلَ اللبن المصـــفى كـــان

بين دم وفــرث مــا الذى صــفــاكــا ؟

وإذا رأيت الحى يخـــرج من حنايا

مــيتٍ فــاســأله : من أحــيــاكــا ؟

وإذا ترى ابن الســود أبيض ناصــعــا

فــاســأله : من أين البــيــاض أتاكــا ؟

وإذا ترى ابن البــيض أســود فــاحــمــا

فــاســأله : من ذا بالســواد طلاكــا ؟

● ● ● ●

قل للهــواء تحــســه الأيدى ويخــفى

عن عــيــون الناس من أخــفــاكـــا ؟

قل للنبــات يجف بعــد تعــهــد

ورعــاية : من بالجــفــاف رمــاكــا ... ؟

وإذا رأيت النبت فى الصـــحـــراء

يربو وحــده فــاســأله : من أرباكــا ؟

وإذا رأيت البـــدر يســـرى ناشـــرا

أنوارَه فــاســأله : من أســراكـــا ؟

واســأل شـــعــاع الشــمس يدنو وهى

أبعــدُ كلُ شىء مــا الذى أدناكـــا ؟

قل لِلمَـــرِّيـر من الثـــمـــار من الذى

بالمر من دون الثـــمـــار غَـــذَاكـــا ؟

وإذا رأيت النخل مـــشـــقـــوق النوى

فـــاســـأله : من يا نخلُ شق نواكـــا ؟

وإذا رأيت النار شب لهـــيـــبـــهـــا

فـــاســـأل لهـــيب النار : من أوراكـــا ؟

وإذا ترى الجـــبل الأشم مناطحـــا

قـمـم السَّـحـاب فـسله من أرســاكـا ؟

وإذا ترى صـــخـــرا تفـجـــر بالميـــاه

فـــسله : من بالماء شق صـــفـــاكـــا ؟

وإذا رأيت النهـــر بالعـــذب الزلال

جـــرى فـــسله : من الذى أجـــراكـــا ؟

وإذا رأيت البـــحـــر بالملح الأُجـــاج

طغى فـــسله : من الذى أطغـــاكـــا ؟

وإذا رأيت الليل يَغْـــشَى داجـــيـــا

فـــاســـأله : من ياليل حـــاك دُجـــاكـــا ؟

وإذا رأيت الصبح يُسْـفِـر ضـاحـيـا

فاسـأله : من يا صبح صـاغ ضحـاكا ؟

هذى عـــجـــائبُ طالما أخـــذت بهـــا

عـــيناك وانفـــتـــحت بهـــا أذناكـــا !!

والله فى كل العـــجـــائب مـــاثل

إن لـم تـكـن لتـــراه فـــهـــو يـراكـــا

● ● ● ●

يا أيهـــا الإنـســـان مـــهـــلا مـــا الذى

بـالله جـل جـــــلاه أغـــ ـــراكـــــا ؟

حـــاذر إذا تـغـــزو الفــضـــاء فــريما

ثـأرَ الفـــضـــاء لنفـــســـ ، فـــغـــزاكـــا

اغـــز الفـضـــاء ولا تكن مـــســتـعـمـ را

أو مـــســـتـــغـــلا بـاغـــيـ ـا ســفـــاكـــا

إيـاك أن تـرقـى بالاســـتـــعـــمـــار فى

حـــرم الســـمـــوات الـ ـــلا إياكـــا

إن الســـمـــاوات العـــلا حـــرم طهـــور

يحـــرق المســـتـــعـــمـــر الأفَـــاكـــا

اغـــز الفـــضـــاء ودع كـــواكـــبـــه ســـوابح

إنَّ فـى تـعـــــويقـــــهن هـلاكـــــا !

إن الكواكب ســـوف تفـــقـــد رشـــدهـا

وتحـطـم الأبـراج والأفـــــــلاكـــــــا

والجـــاذبيـــة ســـوف يَفْـــسُـــدُ أمـــرُهـا

وتسـوءُ عـــقـــبـــاهـا إلى عـــقـــبـــاكـــا

ولـــســـوف تعلـم أن فى هـذا قـــيـــام

الســـاعـــة الكبـــرى هنا وهنـاكـــا

أنا لا أثبط من جهود العلم أو

أنا فى طريقك أغرس الأشواكا

لكننى لك ناصح فالعلم إن

أخطأت فى تسخيره أفناكا

سخر نشاط العلم فى حقل الرخاء

يصغ من الذهب النُّضَار ثَراكا

سخره يملأ بالسلام وبالتعاون

عالما متناحرا سفاكا

وادفع به شر الحياة وسوءَها

وامسح بنُعمى نوره بُؤْساكا

العلم إحياء وإنشاء وليس

العلم تدميرا ولا إهلاكا

فإذا أردت العلم منحرفا فما

أشقى الحياة به وما أشقاكا

نصيحتى إليك يا أخى

١- ألا تحب أن تكون ممن يحبهم الله ؟ فأحببْ نَبِيَّك ﷺ وأهل بيتِهِ وبالوالدين إحسانًا .

٢- ألا تحب أن تكون ممن يقول يَارَبِّ يارَبِّ . قال الله لبيكَ عبدى . سل تُعْطَهُ فأطب مطعمك تجب دعوتك . وانتصف الناس من نفسِكَ .

وخالق الناس بخُلُقٍ حَسَنٍ .

٣- ألا تحبُّ أن تكون ممن تُسْتجابُ دعوتُه وتتلألأ صحيفَتُه نورًا يوم القيامة ؟ طهِّر قلبَك . وأكثِر من قول «لا إله إلا الله . وأستغفرُ الله لذنبى وللمؤمنين والمؤمنات» ولا تكنْ من الغافلينَ .

٤- ألا تحبُّ أن تكونَ من الحامدين المقرَّبين ؟ فإنَّه إذا قال العبد : الحمدُ لله .. قال الله : شكرنى عبدى وحمدنى . فاستكثرْ من قولِ الحمدُ لله .

وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى .

٥- ألا تحبُّ أن تكون من الشاكرينَ وأن يُصلح الله ذُرّيتك ؟

فعليك بآيتى الشكر : (سورة النمل أية ١٩ وهى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

[النمل : ١٩] .

ومن سورة الأحقاف آية ١٥ : يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه

الكريم : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف : ١٥] .

٦- ألا تحب أن أدلكَ على ما يجمعُ لك أمر دينك وأمر دنياك ؟ فاعمل ما استطعت بأمر الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج : ٧٧] .

٧- ألا تحب أن أدلك على قلب كل شيء ؟

﴿قل : آمنتُ بالله ثم استقم﴾ وأوصيك بثلاث :

١- المحافظة على صلاة النوافل .

٢- صلاة الليل ولو ركعتين .

٣- صلاة الضحى ولو ركعتين . تقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)﴾ وأفوض أمرى إلى الله أن الله بصير بالعباد) ثم قراءة سورة (قل يا أيها الكافرون ...) .

وفى الركعة الثانية بعد قراءة الفاتحة تقرأ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)﴾ .

أخى المسلم :

لاشك أن هناك كثيرًا من النصائح التي ينبغى أن تُسدى . ولكن

أسأل الله تعالى أن يجعل هذه بداية لقيام روح التناصح بين المسلمين وأن يستكمل تلك المسيرة فى رحاب الإسلام وما أقوم به فى هذا العدد من الجزء الثالث من كتاب رحاب الإسلام وإذا اجتهدت فأصبت . ولكنها محاولة من باب الضرورة فإن كان فيها صواب فمن الله وحده . وإن كان فيها من الخطأ - وهذا وارد - فمن النفس والشيطان فمن وجد خللاً أو خطأ فليستر وليستغفر الله لى ولينصح . ومن وجد صوابًا وخيرًا فليحمد الله وليعلم أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وما أريد إلا الإصلاح ما وجدت لذلك سبيلا وما توفيقى إلا بالله .

ولقد أحسن القائل إذ يقول :

ولقد نصحتك أن قبلت نصيحتى
والنصحُ أرخصُ ما يُبَاعُ ويُوهَبُ

ولا تحسب أخى الكريم أنى أفعل ذلك من باب أنى أفضل منك لا ثم لا ، ولكنه الدين والتناصح وإلا فإنى أقول ما قاله أبو العتاهية أو على بن أبى طالب :

إلهى لا تُعذبْنى فإنى
مُقِرٌّ بالذى قدْ كَانَ مِنِّى
فَمَا لى حِيلَةٌ إلاَّ رَجَائى
لِعفْوكَ إنْ عَفَوتَ وَحُسْنُ ظَنِّى

وكم من ذَلةٍ لى فى الخطايا
وَأَنْتَ عَلىٌّ ذُو فَضْلٍ ومَنٍّ
إذا فكرتُ فى نَدَمِى عليها
عَضَضتُ أنَامِلِى وَقَرَعْتُ سِنِى
يَظنُ الناسُ بى خَيراً وإنى
لشر الخلق إن لم تَعْفُ عَنِى

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وإلى اللقاء فى الجزء الرابع إن شاء الله.

الشيخ

السعيد عبد الغفور سالمان

المراجع

١- القرآن الكريم .

٢- صحيح البخارى .

٣- سيرة سيدنا محمد ﷺ المعروفة بسيرة ابن هشام .

٤- جامع البيان فى تفسير القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .

٥- البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير الدمشقى .

٦- إحياء علوم الدين للإمام الغزالى .

٧- المسلمون والإسلام للمرحوم الشيخ محمد عبده .

٨- تجديد الفكر الدينى فى الإسلام للمرحوم محمد إقبال ترجمة الأستاذ عباس محمود .

٩- تراجم سيدات بيت النبوة . الدكتورة عائشة عبد الرحمن .

١٠- أعلام النساء : عمر رضا كحالة .

١١- المرأة في التصور الإسلامى . للاستاذ عبد المتعال محمد الجبرى .

الفهرس

ترقبوا فى الجزء الرابع من الموضوعات

الإسلام والأُسرة - تربية الأبناء - حق الأبناء على الآباء .
حق الآباء على الأبناء - حق اليتيم - أدب الحديث .
الصدق - الأمانة - الوفاء - الإخلاص - الحلم والصفح .
الجود والكرم - اختيار الأصدقاء - الحياء - الصبر .
الإخاء - العلم والعقل .

وغيرها من مواضيع تثرى القارئ العربى بنور العلم والمعرفة .

وعلى الله التوفيق



في رحاب الإسلام

المرأة فى الإسلام

أيُها القارئُ الكريم .. وهذا قبسُ منْ نورٍ قدمْناهُ لكَ نبتغى بذلكَ الأجرَ منَ الله . وهذه باقةُ منَ الزهْرِ جُمعتْ لكَ منْ بَساتينِ شتَّى لكَى تُظْفَرْ بها منْ عدةِ أسْفار . ففيها منْ رياضِ القُرآنِ وأزاهيرِ السُنَة وتلْكَ بعْضُ إشَاراتٍ إلى اليَنابيع الطَّاهرةَ التَّي يَفيضُ بِهَا هذا الكِتَاب . الذى يَتحدثُ عنَ الإسْلامَ والمرأةَ والنِساءُ شَقَائقُ الرجَالْ . حَظُ المَرأةَ منَ المَيراثْ . وسَماحةَ الإسْلاَم فى المُنَاداةَ بتَعْليم المَرأةْ أيُها المُسلمُون علموا بناتكمْ . حَقُ الزوْج علَّى زوْجَته حق الزوْجَةُ علَى زَوجها . وغير ذلك منَ الأبْحَاثْ . وقدْ برْهنتْ علَى أنَّ الإسْلام . هُو المُنْقذْ للعالمْ فى الحَّاضرِ و المُستَقْبلَ وهُوَ سبيلُ الهدايَة إلى الطريق المُستَقيم طريقُ السلْم والسَّلام راجينَ منَ الله أنْ ينْفعكَ بضيائها و حكمتها . وأنْ يُنيرَ قلبكَ بما جاءَ فيها منَ الخير واللهُ المُوفقْ .